

محاضرات ألقاها سماحة

آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني

دام ظله الوارف

الطبعة الثالثة

مصححة ومنقحة

ترجمة: عباس بن نخي


مقتطفات ولائية
محاضرات ألقاها سماحة
آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني
دام ظله الوارف

مقتطفات ولائية

محاضرات ألقاها سماحة

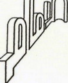
آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني

دام ظله الوارف

ترجمة: عباس بن نخي

محاضرات بالفارسيَّة أُلقيَتْ في مدينة «قم» المقدسة في فترة امتدَّت من ١٤١١ حتى ١٤١٦ هـ، دُوِّنت ثم تُرجِمَتْ إلى العربيَّة. خرجَتْ الطبعةُ الأُولى في ذي القعدة ١٤١٦هـ الموافق نيسان ١٩٩٦م، تلتها الطبعة الثانية في ١٤١٨هـ الموافق ١٩٩٨م.

الطبعة الثالثة
مُصحّحة ومُنقّحة
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



- دوَّن النصوص عن الأشرطة المسجَّلة: السيد حسنين النقوي
- ضبَطَها على أُصولها ونقلها إلى العربية وأنشأها كتاباً: عباس بن نخي
- راجعَ الترجمة والحواشي وصحَّحها: السيد هاشم الهاشمي
- راجع الطبعة الثالثة وصحَّحها: السيد محمد علي الحكيم

التنضيد والإخراج الفني، والتنفيذ والإصدار:
مؤسسة الإمام للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم صل على محمد وآل محمد

مقدمة المترجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله، والصلاة والسلام على خير خلقه وأشرف بريَّته «محمَّد» وآله الطيبين الطاهرين، واللعنُ الدائمُ على أعدائهم ومُنكِري فضائلهم من الأوَّلينَ والآخرين

في رحاب "المسجد الأعظم" في مدينة «قُم» المقدَّسة، الملحق بحرم السيدة «فاطمةَ المعصُومة» عليها السلام، يتوقَّد بين حين وآخر نورٌ بطَاقةٍ ذاتيَّةٍ، لا تعرف له سبباً، ولا تقِف له على مادَّة؟ يكادُ يُضيءُ ولو لم تمسَسْهُ نارٌ، فكأنه يستمِدُّ من شجرة زيتونة مباركة، ثم يَسْنو بَرْقٌ يكادُ ـ لولا البصائر ـ أن يذهَبَ بالأبصار، فهو يحكي ذلك الأصل، وكُلٌّ إلى ذاك الجمال يُشيرُ...

ويخرق السكونَ المهيبَ الذي يَلُفُّ أفاريز ذلك المسجد وأروقته صوتٌ، كأنما هو صدىً يحكي الخشوعَ والهيْبَةَ التي فرَضَها مزيجُ أجواء القُدس والعِلم التي تكتنفُ هذا الفضاء الملكوتي، فيدوِّي ويقرع الأسماعَ لتَخفِقَ القلوبُ الواعية، وتخشَعَ الأنفُسُ الزكيَّة،

وقد عاد بها هٰذا الدَويُّ لذكرىٰ تغوُصُ في أعماق التاريخ، بل ما وراء التاريخ، في عالم ما قبل هٰذه النشأة، فتُجَدِّدُ عهداً بميثاقٍ قديم أُخِذَ منها وهي لم تَزَلْ في ظهور الآباء... فتنطلق سابحةً في أُفقٍ يُشرف من عُلُو، وينادي الذين أخلَدوا واثّاقَلوا إلى الأرض، بفخر واعتزاز ومباهاة: بلىٰ، اللهُ ربُّنا، و«محمدٌ» نبيُّنا، و«عليٌّ» إمامنا...

وللأمر علاماتٌ ونجومٌ هاديةٌ... فعندما تجد أنَّ العَبَقَ أخذَ يَسْري والشذا صَارَ يَضُوع، وترىٰ الأريجَ يَلْفَحُ بنَسَماتِه الوُجوهَ في ذلك الفضاء، ولم تَرَ مجامِرَ البُخور ولا قوارير الطيوب، فاعلَم أنها واحدةٌ من تلك النفَحات، وقَبَسٌ من تلك الجذاء...

في تلك اللحظات يتغيَّرُ كلُّ شيء، حتىٰ العِلم المتدفِّق من ذاك البحر المتربِّعُ علىٰ المنبر الرفيع والكُرسيِّ الشامخ بجهة القبلة، هٰذا الذي تراهُ يُسرِّحُ الطَرْفَ بين فِقهٍ وأُصول، ويسقي الظِماء من جنّاتٍ وأنهار... يَحلو طَعْمُهُ، وتزكو رائحته، وينجلي عنه ما يلزمه - لأمثالي - من الكلل والملل، وتدُبُّ فيه روحٌ أُخرىٰ وحياةٌ جديدة!

يعزفُ الأُستاذُ لحنَ الخلود، ويُرتِّلُ تلاميذه الأُنشُودَةَ في طَرَب ونشوة، فتراقص المعاني حتىٰ تتحوَّلَ إلى نشيجٍ ونحيب! يقطع الحديث، ويوقف أسترساله، في أنفِصالٍ واقِعيٍّ عن عالم المادة، وأنتقالٍ حقيقيٍّ إلىٰ عالم المعنىٰ... موجاتٌ من البكاء تترقرق فيها الدموعُ من عيون الشوق، والعاشق في شغل عن مَسْحِها، حتىٰ تتقاطر وتنهمر علىٰ كريمته وتصبغ جميع وجهه بذلك النور! تضِجُّ الصبابةُ واللوعة، وتضيق بها الصدور، فتنبعث أنّاتُ جَوىٰ تملأ قيثارةَ العاشق، فتفيض سِحْراً كأنه نَغَمٌ جَرَت علىٰ فَمِ داوود ومزاميره فغنَّاها!... لتزيد في روعة تلك الأجواء المفعمة بالروحانية، المكتنزة بالطُهرِ، وتضيف شطراً جديداً لهٰذه العصماء التي حقَّ أن تكون في "المعلَّقات"، فتبني بذلك قصراً في الجنة لا بيتاً في قصيدة... إنه عالَمٌ لا يمكن وَصْفه ونقلُه بشكل مدوَّن، ورحابٌ قد لا يُطيقُها إلّا "المسجد الأعظم"، بما يعنيه من موقع روحيٍّ وعلميٍّ، أقتَرَنَ - دائماً - بالعَظَمَة، يجمع الزبدة والصَّفوَةَ من المشتغلين بتحصيل علوم «آل محمد»، من جنود «الحُجَّة» ﷺ الذين نفروا من كُلِّ فَجٍّ عميق، والتقوا هناك...

من هنا كانت نصائح بعض الإخوة بالإعراض عن فكرة هذا الكتاب، فهو مما يُصنَّفُ لـ "الخواص" ولا حَظَّ لـ "العوام" فيه!...

يقولون: إنها أعماقٌ لا يمكن لِعامَّة الناس، أو كما يُطلَقُ عليهم: "العوام"، سَبْرَ أغوارها، ومادّةٌ ثقيلة تنوءُ ظهورهم بحملها، وآفاقٌ رحبة لا تسعها صدورٌ ضيّقتها العلومُ العصريَّة الحديثة، ودقائق راقية لا تنفذ في فِكْرٍ لَوَّثَتهُ المادِّية، وارتَهَنَتهُ أدواتُ العصر ووَسائل الحضارة والمدنيَّة التي يتقلَّب فيها "العوام" حتى عادت جزءاً من شخصيَّتهم وذهنيتهم التي لا يمكنهم الخروج منها والانسلاخ عنها! فأنَّى لهم بهذا النقيِّ الخالص؟ وكيف لهم بهضمه وقبوله؟!

ولَعَلِّي أستفدت من هذا الاعتراض وجعلته مدخلاً جَيِّداً للاعتذار المسبق عن العَثَراتِ التي قد تُسجَّلُ على هذه الترجمة! فالحقُّ أنَّ المادَّة هنا محكيَّةٌ مَسْمُوعةٌ، أكثر مما هي مكتوبة مقروءة. ولكن دعونا ننظر إلى الأمر من زاوية أُخرى، أو دعونا نلاحظ الجوانب والحيثيَّاتِ الأُخرى للموضوع...

❁ ❁ ❁

فهل يَرْقى هذا القول إلى مستوى "دليل" يُسَوِّغُ حَجْبَ هذه العلوم ومَنْعَ انتشارها؟ هل يمكننا أن نَحْرِمَ رُوَّادَ المعرفةِ وطُلَّابَ الحقيقة، وإن لم يتلبَّسوا بِزيِّ أهل العلم وطُلَّابه، ولم يتفرَّغوا للاشتغال به وتحصيله... من هذه المادَّة العظيمة التي يمكنها أن تفتح أمامهم آفاقاً شاسعة، وتأخذ بأيديهم في مراقي التكامل والسُمُوِّ، ولا سيَّما الروحيِّ منه والأخلاقي؟!

ولا يعني هذا - بطبيعة الحال - إنكار دور وموقع التَخَصُّصِ العِلميِّ وخطَره كمقدمة لإدراك بعض الحقائق، وفَهْمِ بعض القضايا، بل هذا مما نُقِرُّ به ونذعن له، كما لا يعني بخْسَ مَقام العلم والاستهانة به والعياذ بالله! لكنه - ببساطة - يعني احترامَ قدرة الإنسان على الفهم والإدراك، ويعني الإيمان بالحرية الفكرية، والمساواة أمام المعلومة العِلميَّة، وتكافؤ الفُرَصِ في الاستقاء من هذا المنهل...

كما يعني أنَّ هذه المادَّة هي ضَرْبٌ من الحقِّ و "الإيمان" الذي حبَّبَهُ الله وزيَّنَهُ في القلوب، فقال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝﴾ (الحجرات)، فلا بُدَّ. إذاً. أن يلتقي بأرضيَّة رَحْبَةٍ هناك، ويهبط بهدوء وسلام في مَدْرَجٍ شَقَّتْهُ الفطرة وهذَّبَتْهُ، وأزاحَتْ عنه الموانع والسدود، اللهم إلّا مَن شقِيَ وظلَمَ نفسه!

إنَّ التقدُّمَ الذي يشهده العالم في وسائل الأتصال وتقنيَّةِ المعلومات، وفي ضوء ما يستخدمه العدوُّ في حربنا من وسائل وأدوات، وما يفتحه علينا من ميادين وجبهات، (ولا سيَّما ما يقوم به المشكِّكُون من أدعياء الثقافة والتنوير المنسوبين إلى الطائفة، والمحسوبين عليها، ممن تلبَّسَ بزيِّ العلماء وأدَّعى الأنتسابَ إليهم)، يُحتِّمُ علينا التعبئة العامَّة، وشَحْذَ الهِمَم، وأستخدام أقصى الطاقات والإمكانيات والأسلحة التي زَوَّدَنا بها «وُلاتُنا» ﷺ. هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ فإنَّ هذا التطوُّر (وقد سُخِّرَ للجاسوسيَّة العلميَّة أيضاً) لم يُبْقِ لنا في دُنيا العلم ما يمكن نعته بأسرار ومطالب خاصَّة! ولعلَّ أمتناعنا عن بَثِّ بعض المعلومات التي تُهيِّئُ الأرضيَّةَ لتلقِّي علوم خطِرة وحَسَّاسة على صعيد البُنْيَةِ العقائديَّةِ للمؤمن، بتوَهُّم وُجودِ مَصلَحةٍ في ذلك، لَهُوَ من قبيل أمتناعنا عن إذاعة أسم «الإمام المهديِّ» ﷺ وتعيين شخصه، وإنكار وجود ذريَّة للامام «الحسن العسكريِّ» ﷺ، مما كان يفعله الشيعة في عهد "الغيبة الصغرىٰ"! كأمثال صحيح في حينه، وتعبُّديٍّ محض في زماننا الحاضر، من دون أن تترتَّبَ ثمرة ومصلحة على صعيد الغاية من الوضع في يومنا هذا.

إنه عَصْرُ الأنفتاح، وتداخل المعلومات، ولعلَّ اللجان وفِرَقِ العمل الخاصَّة التي تعمل على دراسة وتحليل كتب الشيعة في جامعات "إسرائيل" وأمريكا والغرب عموماً، ودوائر مخابراتهم، هي أكثر عدداً وإمكانيات من نظيراتها في «قم»! لقد كان وما يزال التراث الإسلامي يُنقَلُ إلى الغرب منذ بدايات تقاطر المستشرقين، وحتى نفوذهم في الشبكة المعلوماتية العالمية اليوم...

إنَّ "المعجم الفقهي" الذي يحوي أغلَبَ إن لم نقُل جميع كتب ومُصنَّفاتِ الشيعة، ومعلومات بسعة تفوق (٦٠٠ ميغابايت) في الفقه والتفسير والحديث، قد دخلت في شبكة "الإنترنت"، وهناك برامج كومبيوترية جَمَعَتْ مكتبات وتراثاً عريضاً من مؤلفات الشيعة وكتبهم في أقراصٍ مُدْمَجة صغيرة، مبذولة ومتوفِّرة لمن شاء!

هذا فضلاً عن حركة النشر العشوائية السريعة التي تكتسح الأسواق بدوافع مُخْلِصة وأُخرىٰ تجارية أو مُغْرِضَـة، حتىٰ طفحت المكتبات بالأُصول والمنابع التي كانت حتىٰ الأمس القريب من "الأسرار والمحذورات" التي يخشىٰ علىٰ العوام ثقلُها وعدمُ القدرة علىٰ هضمها وتحمُّلِها، وسُوء حملها...

• • •

أمَّا بخصوص ما يُثارُ في المقام من أنَّ عَرْضَ هكذا مواضيع يُوَفِّرُ لأعداء «أهل البيت» عليهم السلام وأعداء شيعتهم، فرصة وذريعة يستغلُّونها للتشنيع والافتراء، وخَلْقِ مزيد من أجواء الفتنة، وتكلُّف أسبابٍ جديدة للفرقة...

فهو مدفوعٌ بعدَّة أدِلَّة، ومَنْقوضٌ بأُخرىٰ.

فَمِمَّا لا شك فيه أنَّ الفتن والاختلافات التي تُطرَحُ في الساحة اليوم، تخضع قبل أيِّ شيء لقرارات سياسية مُسْبَقة! تتَّخِذُها جهاتٍ معادية للمسلمين، ولن يُؤخِّرَ تنفيذَ هذه القرارات خلُو الساحة من أسباب حقيقية، فهناك ـ دائماً ـ ذريعة لإشعال الشرارة الأُولىٰ، ففي جعبتهم كثير ومزيد من هذه، ويمكنهم خلقها وبثُّها بين ليلة وضحاها! وقد شَهِدنا كيف أستطاعَ برنامج تلفزيونيٌّ تهريجيٌّ (بإسم الحوار الصريح) أدارته قناةٌ فضائية من بريطانيا، أستطاعَ أن يَعصِفَ بجهود سنين متمادية من المساعي "الوحدوية" التي بذَلَتها الأحزاب السياسيَّة الشيعيَّة، صرفت فيها كلَّ طاقاتها، فذهبت أدراج الرياح!

أمَّا إذا رَقىٰ الأمر إلىٰ البحث العلمي والتعامل مع الحقائق كما هي، بعيداً عن التشنيع والحرب الإعلامية، فليس لدينا ما نخفيه ونتكتَّم عليه، بل نحن نتحيَّن الفرصة لوضعه علىٰ مائدة البحث، ونُرَحِّبُ بذلك أيَّما ترحيب...

ماذا نخفي وعلامَ نتكتَّم و "ما يوم حليمة بِسِرٍّ "؟!

أمَّا القوم، فإنهم يعلمون أنَّ جزءاً كاملاً من (بحار الأنوار) لم يُطبَع لأنه يحوي "الفتن والمطاعن"، ويعلمون أنَّ ذلك إمَّا لتَقِيَّة، أو لعنوان الوحدة الإسلامية، أو لأغراض ومصالح سياسيَّة، أو لِنَزَعاتِ التسنُّن التي أُصيبَ بها بعض أبناء الشيعة!

كما أنهم يعلمون جيِّداً أنَّ الشيعة لا يقولون في تشهُّدهم "خان الأمين"! ويعرفون السبب في عدم أداء صلاة الجمعة في بعض البلاد دُون أُخرىٰ، ودليلَ مواقيت الصلاة (الجمع بين الصلاتين)، والسجود علىٰ التربة، وزواج المتعة، والشهادة الثالثة في الأذان، ومآتم العزاء الحسيني، و... إلىٰ آخره، مما قضينا عمراً في توجيهه وبيانه بشكل يُسقِطُ التُّهم ويدفع الشرَّ عن المذهب وأتباعه، لقد مضىٰ عهدُ "وشيعة موسىٰ جار الله"، وأنقضىٰ زمنها، وهذه الإذاعات والتلفزيونات، وشهود العِيان تنقل مباشرةً من قلب العالم الشيعي ما يغنينا عن كُتب الردود، ويدحض الأفتراءات تلقائياً...

وبعد، فهذه جنائز أبناء الشيعة الذين قضوا شهداء في الجهاد والمقاومة في «لبنان» سقطت بأيديهم، وكشفوا عنها فما وجدوا للشيعة أذناباً!

فلا يعود للكتمان بعد الآن من مَعنىً ونتيجة إلَّا حرمان شباب الشيعة من أسباب تقوية بُنيتهم العقائدية، ولا ثمرةَ للتحفظ إلَّا خسارة مزيد من المواقع والميادين...

إننا مُلزَمونَ بالدفاع عن عقيدتنا بجميع الوسائل، وأدلَّة هذا الدفاع ومُسوِّغاتِ النهوض به، حاكِمَةٌ علىٰ حُجَجِ إخفائه، والإبقاء عليه في نطاق "الخواص"، إنَّهُم لا يدَّخِرون وُسْعاً في ضربِ أُسسنا الدينية، والمعركة اليوم، عقائديَّة فكريَّة قبل أن تكون سياسية وأقتصادية، فلماذا نُخلي الثغور، وننسحب من الجبهات وميادين الصراع؟

❁ ❁ ❁

ولا سبيل إلَّا بالعودة إلىٰ الأصالة، وعرض المخزون الأصيل وأستخدامه في التصدِّي لهؤلاء... ولا وجود لهذا الأصيل إلَّا لدىٰ نواب «الحُجَّة» المستَحْفَظون على الدين، المؤتمَنون علىٰ الشريعة، الذين جَعَلَهُم «المولىٰ» ﷺ باباً وسبيلاً لإرادته...

ونحن هنا في رحاب أَحَدِهِم....

عزيزي القارئ، هذا الكتاب هو خطوة في هذا الطريق، طريق التصدِّي للانحراف العقائدي، والعَبَث الفكري الذي نتَجَ عن خَوْضِ الجهلة، ممن " عَلِم شيئاً وغابت عنه أشياء "، المصابين بجنون العظمة، هذا الهَوَس الذي جعلَهم يقحَمُون كُلَّ ميدان لا باعَ لهم فيه ولا متاع، ويجيبون عن كُلِّ سؤال بما شاء الشيطان من التُرّهاتِ المنمَّقة بزُخرف القول غروراً، المتدثِّرة بصَخَبِ الصيت والسمعة، فكانَ عرضاً أجوفاً، واستعراضاً دعائياً مقيتاً، بعث الازدراء والاشمئزاز في نفوس النُخبَةِ الواعية، وخلَّف الداء والبلاء في جبهة أُخرى كان الضحية الأولى فيها المستضعفون من الشيعة... أيتام «آل محمد»!

إنّها محاولة - محدودة - للتقدُّم في طريق العلاج، عسى أن تتدارك بعض ما يفسدون، وتُطَهِّرَ بعض ما يُلَوِّثون، وتربط على قلوب هؤلاء الأيتام وتثبِّتَ عقائدهم الحقَّة.

لقد وَقَفتُ على حجم الحرمان الذي تعانيه المكتبة العربية من هكذا أبحاث، ولمست مدى البَخْسِ الذي يعانيه إخواني في الله، جرَّاء انقطاعهم وبُعدهم عن هذه الأجواء، ووقوعهم ضحيةً لأُولئك المتطفِّلينَ على العلم، فأحْبَبْتُ أن أنقل لهم صورةً، مهما بَدَتْ - بسبب قَلَمِيَ العاجز - باهِتَةً، وأروي لهم هاتفاً سمعته، مهما بَدَا - بسبب نَقْلِيَ الألكَنْ - ضعيفاً وخافتاً...

وأن آتيهم بجذوة لعلّهم يصطَلون...

● ● ●

هذه مجموعة من الأحاديث التي كان سماحة آية الله العظمى «الشيخ حسين الوحيد الخراساني» دام ظله يفيض بها بين حين وآخر، في مناسبات مُعيَّنة، كَذِكرى مواليد الأئمة الأطهار عليهم السلام ووَفَياتهم، والمناسبات التي تعقبها العُطَلُ الدراسيَّة، يقتطعُ لها من بحثه وقتاً، ويستعيض بها عنه أحياناً أُخرى، كانت قد انتشرت بعضُها (بالفارسية، لغتها الأصلية) منذ أمَدٍ بعيد، وسريعاً ما نفدَتْ، فتتبَّعتُها في الأشرطة المُسجَّلةِ لدروسه وقُمتُ بترجمتها ونقلها إلى العربيَّة...

ويجدر بي التنويه إلىٰ حقيقة ينبغي أن يضعها القارئُ نُصْبَ عينيه كمقدمة لمطالعة هٰذا الكتاب، وهي: إنَّ ما رَجَوْتُهُ وأردته من ترجمة هٰذه المادَّة لم يكن سَوْقَ الاستدلال والبرهان الذي يثبت المطلب وينقض المعارض، بقدر ما كان عَرْضَ مُتَبَنَّيات عَلَم حُجَّة، يمثِّل إحدىٰ قِمَم الهَرَم العلميِّ لكيان الطائفة الشيعية اليوم، وتسجيلٌ وتوثيقٌ لجملة من العقائد والأفكار التي جرَت علىٰ لسان هٰذا العَلَم، كَتَرِكَةٍ ثمينة ورثناها عن السلَف، وأمانةٍ غالية يجب أن تُنقَلَ إلىٰ الخلَف والأجيال القادمة، وهي في الحفظ عن عبث المشكِّكين، والصوْن عن دَسِّ أرباب الضلال المنحرفين...

لذا فإنَّ سَرْدَ قصَّة، أو الاستناد إلىٰ رؤيا، أو رواية ضعيفة بحسب الموازين المتعارفة لتقييم الأسانيد في مجرىٰ البحث، بل حتىٰ أنصباب البحث علىٰ مثل هٰذه، لا يعني أكثَرَ من شاهد فَرَضَهُ مَقامُ اقتطاع ربع ساعة أو عشرين دقيقة من بحث الأُصول... شَاهدٌ لموضوع وفكرة - تدخل في عِداد المفروغ منه - ترتكز وتستند علىٰ كَمٍّ هائل من الأدلَّة العقلية والنقليَّة التي لها مكانها في الكتب التخصُّصيَّة.

ومن نافلة القول إنَّ سماحة «الشيخ الوحيد الخراساني» دام ظله - وهو أحد أساطين العصر - ليس ممن يُلقي الكَلامَ علىٰ عواهنه، وإنَّ مَن مثله لا يتبنىٰ ولا ينادي إلَّا بما وَقَفَ علىٰ دليله وفرغ من برهانه، فراغاً يمكِّنه من الوقوف في مقام التحدِّي والمطارحة!... ولكنها هنا بمثابة وَمَضات، وهٰذا شأن الوَمَضات وما يقتضيه حالُها، وإلَّا لَفَقَدَتْ دورها وتخلَّف أداؤها عن الهدف المنشود، في إحياء الذكرىٰ وفتح نافذة يمكن للطالب (والقارئ) أن ينطلق منها ويستهدي بها إلىٰ هٰذا الفضاء الرحب...

عقائد وأفكار تتناهبني هواجِسُ الخشية من ضياعها وأندراسها في خِضَمِّ الموجة العاتية للمدِّ الماديِّ والفكر الوهابيِّ الذي يغزونا اليوم متدثِّراً بمسوح تنزيه الدين وتنقيته من الخرافات والبدَع والشوائب! كما كان يفعل بالأمس لدواعي الحداثة والتطوُّر ومواكبة العصر... ويمضي - بقوَّة عجيبة - ليكتسح في طريقه أهم مرتكزاتنا ومنطلقاتنا العقائدية التي تحدِّد هويتنا وترسم شخصيتنا:

فيَسْحَقُ "الغيْب" بأسم العقل (وما هي إلّا الحِسيَّة والماديَّة)، ويدوسُ منطق وأصل "التعبُّد" بأسم حركيَّة الفقه ومرونة الفكر (وما هو إلّا الجهل والخواء الذي ينتهي بهم إلىٰ الألتقاطية والتسيُّب والإباحِيَّة)، ويطمس المقامات والفضائل بأسم الحذر من الغلو والخشية من الإفراط (وما هو إلّا التسنُّن والتعاسة)! وما إلىٰ ذلك من مفردات صنَّفوها جموداً ورجوعيةً وعهداً بائداً لا بُدَّ من إنهائه، ومرحلة أستُنفِدَ مخزونها فلا بُدَّ من تجاوزها وقطعها!

فإنا لله وإنا إليه راجعون...

* * *

وممَّا ينبغي للقارئ الكريم الألتفات إليه؛ أنَّ هذا النحو من الترجمة (ترجمة الخطابات) هو الأصعَبُ دائماً، فالمتحدِّث ليس كالكاتب... وعرض المادَّة العِلميَّة في محاضرة مسموعة لَيَقترنُ غالباً بالمؤثرات والإيحاءات الصوتيَّة، من نبرة ولحن وأنفعال، بل حتىٰ بإشارات اليد وحركات الجسم وتقلُّبات الوجه... ولا يمكن بحال أن يقوم تقسيم الحديث إلىٰ جُمَلٍ وفقَرات، ولا الأستعانة بعلامات الأستفهام والتعجُّبِ، مقامها ولا أن تؤدي تمامَ دورها...

من هنا، فإنَّ ما قد تجده من جمود في صياغة العبارة، وعدم سلاسة في إنشائها، إنما يعود لهذا الأمر، وللتقيُّد الذي فرضته علىٰ نفسي من الألتزام الدقيق بالنصِّ الأصلي، وعدم الخروج عنه بإضافات، فضلاً عن إطناب وتفصيل، حتىٰ عدَدْتُها ترجمةً حرفيةً لفظية، لا ترجمة بالمعنىٰ والمضمون، فلم ألجأ إلىٰ ذلك إلّا في أقصىٰ موارد الحاجة والضرورة التي لا محيص عنها.

وقد قُمتُ ـ إلىٰ جانب الترجمة ـ بتخريج الأحاديث وإرجاعها إلىٰ مصادرها، وأُشير هنا إلىٰ أنني عمدتُ إلىٰ إدراج النصوص الأصلية للروايات، دون إعادة تعريب ما نقله سماحة «الشيخ» رحمه الله في محاضرته مُتَرجَماً بالفارسية، وسردتُها كاملة ـ أحياناً ـ غير مُكتَفٍ بالمقطع الذي ذكره «الشيخ» في محاضرته.

كما قُمتُ بتصرُّفٍ آخر أوضِّحُهُ هنا: وهو تغيير الضمائر وقلبها ـ في بعض الأحيان ـ من المتكلِّم إلى المخاطب، ومن الجمع إلى الإفراد، وبالعكس، بما يخدم انتظام النصِّ وتناسقه، دون أن يمسَّ ذلك بالمعنى بطبيعة الحال. كما قُمتُ بالتطَفُّلِ والتعليق على بعض الموارد، حين كان الفضول يبلغ مداه! وقد أدرجت هذه التعليقات في الهامش. وأُشير كذلك إلى أنني أدخلت بعض الكلمات التوضيحية في المتن وجعلتها بين قوسين كبيرين (...)، كما وضعت بين نفس القوسين بعض العبارات التي كَرَّرَت الترجمة بصياغة أُخرى، احتمَلْتُ أن تكون أفضَلَ أداءً وإبلاغاً للمعنى المنشود.

وبعد، فمن الواجب شكر الإخوة (العلماء من طُلَّاب «الشيخ»، وغيرهم) الذين استَعنتُ بهم في كشف ما التبس وأشكَلَ فهمه عَلَيَّ، وفي تتبُّع بعض النصوص والروايات، فأعانوني جزاهم الله خيراً، وأخُصُّ بالذكر فضيلة حجة الإسلام والمسلمين «السيد هاشم الهاشمي» الذي قام بمراجعة الترجمة وتصحيحها...

❁ ❁ ❁

ومما أُضيفه هنا على مقدَّمة الطبعة الأُولى...

إنَّ الإقبال، بل الحماس الذي لقِيه هذا الكتاب، كشَفَ صِحَّةَ ما راهَنَّا عليه من تَوْقِ النفوس وشوْقها إلى معارف «آل محمد» ﷺ، وأثبت تلقُّف المحاضرات والتلهُّف في كشف مطالبها ومعرفة أسرارها كم تَحِنُّ "فاضل الطينة" إلى أصلها! وكيف تفعل "طهارة المولد" فِعلها في القلوب، ويدفع "العهد والميثاق" الأرواح صوْبَ ما فُطِرَتْ عليه، ويسوقها لتهوى قبلة الجلال وتطوف في حرم الجمال، وتسعى أشواط العرفان بين "صفا" ولايتهم و"مروة" حبهم، ويُصيِّرُها عاشقة تطرب شوقاً، لا لعباً ولهواً... فهنيئاً للمؤمنين، وطوبى لهم وحسن مآب.

وأمام سرعة نفاد الطبعة من الأسواق، عمَد بعض المؤمنين ـ جزاهم الله خيراً ـ إلى إعادة طبع الكتاب ونشره (دون إعلامنا أو التنسيق معنا، وهو حقٌّ لا ندَّعيه ولم نطالب به!)، ولما كانت الطبعة لا تخلو من أخطاء وتفتقر لبعض الإضافات، وأمام إلحاح الإخوة

وإصرارهم (والملحوظات القيِّمة التي زَوَّدوني بها) رأيت ضرورة خروج الطبعة الثانية، ثم الثالثة الآن، خصوصاً مع أستفحال داء أدعياء التنوير والحداثة، من دعاة التمييع الفكري والسلوكي، وأرباب التشكيك العقائدي والتَّسيُّب الأخلاقي، الذين أتوا في أيامنا هذه على آخر ما في جعبتهم، فلم يتركوا حرماً إلّا أستباحوه ولا حِجاباً إلّا هتكوه...

وبعد، فقد تلقيْتُ هذا النجاح بارقة أمل وبشارة ظفر على أرباب "النُصب المبطَّن"، وعلامة قبول ورضىً من سادتي وأولياء نعمتي لعبدهم القِن، فكان بلسَماً داوىٰ جراحاً تضافرت عليها أيدٍ حاقدة وأُخرىٰ مُحِبَّة! لا يسعني إلّا أن أعزوها إلى صروف الدهر وتقلُّبِ الأيام وطبائع الزمن الغدور وشأن الدنيا الدنيَّة...

❁ ❁ ❁

وفي الختام أتوجَّه بنصيحة أخَويَّة متواضعة إلى القارئ الكريم، هي التدبُّرُ في رسالة هذا الكتاب بعُمق، والسعي إلى فهم مطالبه وهضمها، واللجوء في سبيل تحقق هذه الغاية إلى الله بالدعاء، وإلى «الأئمة» ﷺ بالتوسُّل، فقد سُئلَ «رسول الله» ﷺ عن شرح الصدر (عندما نزلت الآية) فقال: "نورٌ يقذفه اللهُ في قلب المؤمن فيشرح صدره"، وقال «الصادق» ﷺ (في محاورة «عنوان البصري»): "ليس العِلمُ بالتعلُّم، إنما هو نورٌ يَقَعُ في قلبِ مَن يُريدُ الله تبارك وتعالى أن يهديه..."...

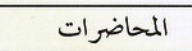
فإن كُتب له ذلك ورُزِقَهُ، فبها ونعْمَ، وهنيئاً وسعدا... وإلّا، أي إذا لم يقتنع بالمطالب ويُذعِنَ لها، فلا يستعجلنَّ بردِّها وإنكارها، وليوكلها إلى أهلها، وليعزو ما قَصُرَ عن بلوغه إلى تقصير منه في تحصيل المقدِّمات، وجَني الأرضيَّة التي توفِّر وتصنع الوعاء اللائق لتلقِّي هذه الفيوضات القُدسيَّة. حذراً من غرور وتكبُّر قد يستتبع مزيداً من الحرمان والحجب والعياذ بالله! ثم من إشكال شرعي وسقوط أخلاقي يقع عندما يتحقَّق مصداق "... ولم يقبله منه، فإنما بحكم الله أستخف وعلينا رَدَّ"... فالمحاضر دام ظله هو أحد الفقهاء الجامعين لشرائط الفتوىٰ والتقليد، وهو بذلك يتمتَّعُ بمقام نيابة «وليِّ العصر» ﷺ، فينبغي الأحتياط وتجب الدقَّة في التعامل معه.

وأسأل الله تبارك تعالى، إن كان لهذا العمل حظٌّ من الإخلاص، أو قَدَّرَ لي ـ على أيِّ حال ـ فيه أجراً، بلطفه وكرمه وجوده، أن يجعله رحمةً على روح والديَّ، كما أسأل كُلَّ من أنتفع بهذه الترجمة أن يترحَّمَ عليهما ويهديهما ما تيسَّرَ من قراءة الفاتحة والصلاة على «محمد وآله» الأطهار... وأن يوفقني لمتابعة مزيد من "مقتطفات الولاء" التي يفيض بها هذا العالم الربَّاني، حتى يكون هذا الإصدار طالع سلسلة متتابعة... إن شاء الله.

وأبتهلُ إليه تعالى أن يمُدَّ في عمر شيخنا الجليل سماحة آية الله العظمى «الشيخ حسين الوحيد الخراساني» دام ظله ويجعله من المشمولين ـ دائماً ـ بالعناية الخاصَّة لمولانا «الحجَّة بن الحسن» عليه السلام، ويوفِّقه لمزيد من خدمة مذهب «أهل البيت» والدفاع عن الطائفة المحقَّة والفرقة الناجية... آمين، ربَّ العالمين.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

* * *


المحاضرات

ملحوظة: لم يخضع ترتيب المحاضرات وترقيمها في هذا الكتاب لضوابط وأعتبارات خاصة كتاريخ الإلقاء أو أهمية الموضوع أو أية ضرورة علمية أُخرىٰ، اللهم إلّا البُعْدِ الفني لتنظيم الكتاب، الذي أقتضىٰ جمع المواضيع المتشابهة على نحو متسلسل... كما نُنوِّه إلى أن عناوين المحاضرات هي من وَضْع وأنتخاب المترجم لا المحاضر

المحاضرة الأولى

التاريخ: ٢٩/ذي الحجة/١٤١٤هـ
الموافق ٢٩/٥/١٩٩٥م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: عاشوراء الحسين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

طلبَ منّا بعض السادة - ونحن على مشارف «عاشوراء» - أن نتحدَّثَ بشيءٍ عن هذه المناسبة [1]... إذا شَمِلَكُمُ التوفيق، وعَنَتكُم ألطافُ «وليِّ العصر» أرواحنا لِتراب مَقْدَمه الفداء، فدُوِّنَتْ أسماؤكم في هذه "العشرة" (العشر الأوائل من المحرم) في سِجِلِّ «سيِّدِ الشهداء» عليه السلام [2]، فإنه لَفَوْزٌ عظيمٌ لا يُمكِنُ تصوُّر ما يفوقه! وفي الوقت نفسه، فهي وظيفةٌ ومسؤولية في غاية الأهمية، وتكليف في منتهى الخطورة والصعوبة.

والتكليف الصعب في أيام «عاشوراء» هو بيان مَن هو «سيد الشهداء» عليه السلام؟ وما هو «عاشوراء»؟ ولَعَمْري فإنها مسؤولية كبيرة وفي غاية الخطورة.

---

(١) تتعطَّل الدروس في الحوزات العلمية على مشارف المُحرَّم الحرام، وينتشر الطلبة في أرجاء البلاد لإقامة مجالس العزاء الحسيني ومنابر التبليغ والوعظ والإرشاد الديني، وقد ألقى سماحة «الشيخ» دام ظله المحاضرة بهذه المناسبة.

(٢) أي تشرَّفتم بِرُقِيِّ المنابر وكنتم من المبلغين، ومن خطباء المنبر الحسيني.

والأمر المهم هو أن نقِفَ - بنحوٍ مُبرهَن - على أنَّ «سيِّد الشهداء» ﷺ يُحلِّقُ في أُفق لا يناله وَصْفٌ ولا تعريف، وهكذا عَمَلُه، فإنَّه مما وراء الوصف والتعبير، هذا هو المهم الذي ينبغي فهمُه.

إنَّ الحضورَ (المستمعين) ليسوا ممن يصِحُّ أن نُلقيَ عليهم على نحو الخطابة، فمَن بلَغ هذه المراتب[٣] فهو من العلماء، ويكون أهلاً للتدبُّرِ بنفسه، ولكن لعِظَم الأمر، ولعجز تقريرنا عن الإحاطة به، نرى لِزاماً أن ندعوَ الحضورَ إلى التمعُّنِ والتدقيق في طائفة من كلمات «أهل البيت» ﷺ.

المسألة الهامة هي أنَّ الإمام «أبا عبدالله جعفر بن محمد الصادق» ﷺ، أمَرَ «يونس بن ظبيان» - وأنا أطرح القضيَّة بصورة مُجْمَلَة، ولكني أُلفِتُ انتباهَكُم، بما تملكون من حصيلة جهودكم العلميَّة، إلى فقه الحديث، وإلى "الدراية"[٤] التي تُصنِّف المراتب والمنازل وفقاً لها لا وفق "الرواية" - حين قال "يونس" لـ "الإمام" ﷺ إنَّ قلْبَه ليخفق عندما يتذكَّر «الحسين» ويهوي إليه، وعندما رأى «الإمامُ» ﷺ منه هذه القابلية ووَجَدَ فيه الأرضيَّة، علَّمَهُ وأمرَهُ أن يقول: "السلامُ عليك يا أبا عبدالله" يُكرِّرها ثلاثاً...

ثم قال له: "إذا أردت زيارة ذلك الحرم فأغتسل ثم ألبس ثيابك الطاهرة، ثم أمْشِ حافياً فإنك في حرم الله، وأكْثِر من التكبير والتهليل والتمجيد والتعظيم لله والصلاة على «محمد وأهل بيته» حتى تصير إلى باب «الحسين» ﷺ، ثم أمْشِ حتى تأتيه من قِبَلِ وجهه وأستقبل وَجْهَكَ بوجهه، وتجعل القبلةَ بين كتفيك (خَلْفَكَ) ثم تقول {وهنا موضع الشاهد المهم}:

---

(٣) الحضور المُعمَّق في بحوث خارج الفقه والأُصول، وهي المرتبة التي يتهيَّأُ فيها الطالب للأجتهاد وبلوغ الفقاهة.

(٤) قد تكون إشارة من سماحته - دام ظله - إلى الحديث الشريف: "إعرف منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم، فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدرايات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان"، انظر: (بحار الأنوار) (ج ١ ص ١٠٦).

" السلامُ عليكَ يا حُجَّة الله وأبنَ حُجَّتِه، ثم قل: السلامُ عليكَ يا قتيلَ الله وأبنَ قتيله، ثم: السلامُ عليكَ يا ثارَ الله وأبنَ ثاره، ثم: السلام عليك يا وِتْرَ الله الموتور في السماوات والأرض ". (٥)

دقِّقوا جيِّداً، فهنا تسليمان...

التسليمُ الأول: التسليم العام، والتسليم الثاني: التسليم الخاص.

هناك ثلاثة تسليمات خاصَّة، وتسليمٌ واحدٌ عام...

إنَّ الحكمةَ والمعرفة ولُباب العلوم مبثوثة في كلام أئمة الدين عليهم السلام، وإدراك عقل الإنسان لتلك الوَمَضات اللامعة، والإشعاعات المنبثقة من تلك الشموس الساطعة، مُفتَقِرٌ إلى المدد الإلهي، ورهينُ مَنِّهِ ـ سبحانه وتعالى ـ وعنايته، فالسلام الأول جاء بعبارة: " يا حُجَّة الله وأبنَ حُجَّتِه "، ولهذا التسليم وُجهة عامة تسري في البقية (بقية الأئمة عليهم السلام) أيضاً، ولكن من هذا الموضع وما يليه، فإن العبائر تُشير إلى مقام مُختصٍّ بـ «سيد الشهداء» عليه السلام، لا شريك له فيه حتى «والده»!

ففي هذا المقام الذي يلي المقامَ العام، يكون «سيد الشهداء» عليه السلام فيه وَحْدَهُ لا شريكَ له، إنه مقامُ:

---

(٥) روى «الشيخ الكليني» في «الكافي» (ج ٤ ص ٥٧٥ ح ٢)، و«الشيخ الصدوق» في «مَن لا يحضره الفقيه» (ج٢ ص ٣٥٨)، و«الشيخ الطوسي» في «تهذيب الأحكام» (ج٦ ص١٥٤)، و«أبن قولويه» في «كامل الزيارات» (ص ١٩٨): " ...قال عليه السلام:

" إذا أتيتَ أبا عبدالله، فأغتسل على شاطئ الفرات ثم ألبس ثيابك الطاهرة، ثم أمْشِ حافياً فإنك في حرم من حرم الله، وحرم رسوله صلى الله عليه وآله، وعليك بالتكبير والتهليل والتمجيد والتعظيم لله عزَّ وجلَّ كثيراً والصلاة على محمد وأهل بيته، حتى تصير إلى باب الحائر، ثم قُلْ: السلامُ عليكَ يا حجَّة الله وأبن حُجَّته، السلامُ عليك يا قتيل الله وأبن قتيله، السلامُ عليكَ يا ثارَ الله وأبن ثاره، السلام عليك يا وِتْرَ الله الموتور في السماوات والأرض، أشهد أنَّ دَمَكَ سكنَ في الخلد، واقشعرَّت له أظلَّةُ العرش، وبكى له جميع الخلائق، وبكَت له السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهنَّ وما بينهنَّ، ومَن يتقلَّب في الجنة والنار من خَلْقِ ربِّنا، وما يُرى وما لا يُرى... ".

" قتيلُ الله وابنُ قتيله " ... لا يوجد في عالم الخليقة من أقصاه إلى أدناه إنسانٌ خُلعَ عليه - من عالم الغيب - هذا اللَّقبُ والعنوان: " قتيلُ الله وابنُ قتيله ".

وهنا تتجلَّى لَطافةُ التعبير ودِقَّتُه (وعمقه)، فما يجعل الأمرَ مُختصّاً في الخطاب: " السلامُ عليكَ يا قتيلَ الله... " هو أنك ذو مقامين، مما لم يَحْظَ به حتى «والدك» («أميرالمؤمنين» ﷺ)، فكما أنك قتيلُ الله، فأنتَ ابنُ قتيل الله أيضاً، وكما أنك ثارُ الله، فأنتَ ابنُ ثار الله...

وعلى إثْرِ ذلك تأتي عبارة: " وِتْرُ الله الموتور في السماوات والأرض ".

ثمّ يأتي ما يُحَيِّرُ الكُمَّلَ وذوي الألباب!...

فبعد ذِكْرِ المقامات الثلاثة، تأتي عبارة «الإمام» ﷺ: " أشهدُ أنَّ دَمَكَ سَكَنَ في الخلد واقْشعَرَّتْ له أظِلَّةُ العرش " ثم تأتي العبارة الأُخرى: " وبكى له جميعُ الخلائق "...

ما ينبغي بيانه وتوضيحه هنا:

مَن هو ؟ وماذا فعل؟ وماذا جرى؟

حتى يعرف الناس أنَّ جوهرةَ الوجود الفريدة [٦] هذه إنما هي منحصرةٌ بفرد واحد، سواء من جهة الوجود، أو من جهة الأداء والعمل، فهو كُلِّيٌّ منحصرٌ في فرد.

وفي كُلٍّ من هذه (المقامات) بحوثٌ لا تسعها هذه الجلسات، وتتطلَّب في حدِّ ذاتها دروساً وتدقيقاً خاصّاً، ويشترط فيها شروط:

كمالٌ في المتحدِّث، ولا كمال!

---

(٦) الأصل الفارسي من عبارة «الشيخ» ﷺ: " گوهر طاق وجود ".

و " طاق " تأتي بمعنى السقف المحدَّب (المُقَبَّب)، وقوس النصر، فيُحْمَل المراد على زينة الوجود وجماله. وتأتي كذلك بمعنى الفرد مقابل الزوج، أو الواحد مقابل الكثير، فيكون المراد معنى الحصر والانفراد والنُدرة.

وعلى المعنى الأول ينبغي أن تكون الترجمة: " جوهرة تاج الوجود "، أو " دُرَّة جبين (غُرَّة) الوجود " ونظير ذلك من التعابير...

وأرضية واستعدادٌ في المستمعين، إن كانت ثمَّة...!

المهم أن نعرفَ أولاً ما الذي جرىٰ حتىٰ راحَ الدمُ ليَسْكُنَ في الخلد؟ هناك حيث التجرُّد... إنَّ القاعدةَ تقتضي أن تعرُجَ الروحُ إلىٰ الخلد، اللهمَّ إلّا أن يحدث انقلابٌ بحيث تسمو الروحُ فوق الخلد، ويصبح الخلد مأوىً ومقرّاً للدم! وهذا يعني أن «الحُسينَ بن علي» عليه السلام بلَغ حدّاً كان الخلدُ فيه مأوىً ومسكناً لدمه الشريف...

أمَّا روحه وأين مأواها؟ فذاك ما ينبغي أن نتحرَّاه!

"أشهدُ أنَّ دَمَكَ سكَنَ في الخلد" وعلىٰ إثْرِ هذه السُكْنى، هناك اقشعرارٌ، وأيَّ اقشعرار؟ "اقشعرَّت له أظِلَّةُ العرش"، لقد سكنت دماؤكَ الخلدَ، ولكنها بعثت القشعريرة في أظِلَّةِ العرش! إنَّ في إسناد السُكْنى إلىٰ الدَّم، وإسناد الاقشعرار إلىٰ أظِلَّةِ العرش معانٍ يضجُّ بها البحث!...

وعلىٰ إثْرِ هاتين العبارتين تأتي عبارة "بكىٰ له جميعُ الخلائق"...

أين المفكِّرون الحذَّاق، أين ذوو البصائر الحصفاء، أين أهلُ التدبُّر والتدقيق؟ ليُمعِنوا النظر في إطلاق «الإمام الصادق» عليه السلام لفظَ الجمع المحلىٰ بالألف واللام "الخلائق"، مع ذلك جعله مسبوقاً بلفظ "جميع".

وبعد "جميع الخلائق"، عمَدَ إلىٰ التفصيل بعد الإجمال، فيقول عليه السلام:

"وبكتْ السماواتُ السبع والأرضون السبع وما فيهنَّ وما بينهُنَّ، ومَن يتقلَّبُ في الجنَّة والنار من خلْقِ ربِّنا، وما يُرىٰ وما لا يُرىٰ"، والحديث الذي يدور هنا إنما يتعلَّق بالدَّم، أمَّا أين هي نفسُهُ الشريفة (لكَ أن تسأل وتعجَب!)؟

إنَّ الدم هو ما يجري في العروق، أما الروح المتعلِّقة به (وبالجسد)، فلَها شأنٌ آخر ومقامُ بحثٍ آخر!... يقول عليه السلام: عندما سكَنَت دماؤكَ هناك، فإنَّ أظِلَّة العرش اقشعرَّت، وبكىٰ له جميعُ الخلائق، وبعدَ جميع الخلائق يعقِّب «الإمام» عليه السلام فيقول: "والسماوات والأرضون، وأهلُ السماوات وأهلُ الأرضين". المهم: من أين بدَأ، وإلىٰ أين انتهىٰ التأثير والانقلاب في نقطتي الصعود والنزول؟!

وهٰذا الموضع من حديث «الإمام» ﷺ يدخل في مُعجِز بيانه، وكأنه "شقُّ القمَر" (٧) في العلم والمعرفة لِمُخاطَبيه من أهل "الفقه الأكبر". (٨)

فعندما يُعرِّف «الإمامُ الصادقُ» «الحسينَ بن علي» ﷺ بدَمِهِ لا بنَفْسِه، فيكون غَرَضُه تفهيم المخاطبين بأنَّ مَن يَقصُرُ البيانُ عن تعريف دمِهِ، كيف يمكن دَرْكُ روحه والإحاطة بها؟ وفي أيِّ مرتبة وأيِّ درجة يكون صاحبُ الدم نفسُه؟!

من قوس الصعود حتىٰ قوس النزول...

راجعوا «الكافي» - برؤية تحقيقية - وأنظروا في ما عرضتُه (عليكم هنا) وأشرْتُ إليه بصورة مُجمَلة... تجدون أنَّ علَّامة الوجود، «جعفر بن محمد» ﷺ في تفصيل البيان، يقول في كلامه: إنَّ أهلَ الجنَّة بكَوْا لهٰذا الدم، وأهل جهنَّم كذلك بكَوْا لهٰذا الدم! (٩)

إذن فكما تغيَّر "الصعود" وأنقلبت أحواله، فإنَّ "النزول" كذلك.

لقد أضطرب الوجودُ كلُّه أمامَ هٰذا الدم، من أعلىٰ قمّة الصعود، إلىٰ أدنىٰ حضيض النزول... أية ضجَّة هٰذه، وأيُّ زلزال هٰذا؟!

وما كان «الإمام الصادق» ﷺ ليكتفيَ بهٰذا القدر، فعلىٰ إثر ذلك جاء بعبارة: "ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ"، حتىٰ يعلمَ الذين قدَّر الله لهم ورزقَهم فهمها...

---

(٧) من معاجز «النبيِّ» ﷺ، انظر «البحار» (ج٣٥ ص ٢٧٦)، ينقل رواية من كتاب «إرشاد القلوب» عن «الإمام محمد الباقر» ﷺ، يذكر فيها معجزة "شقّ القمر"، وفيها فضيلة «لأميرالمؤمنين» ﷺ... وذكر «الطبرسي» في قوله تعالىٰ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾: "قال «عبدالله أبن عباس»: أجتمع المشركون إلىٰ «رسول الله» ﷺ فقالوا: إن كنتَ صادقاً فشُقَّ القمرَ فرقتين؟ فقال لهم «رسول الله» ﷺ: إن فعلتُ تؤمنون؟ قالوا: نعم. وكانت ليلة بدر، فسأل «رسول الله» ﷺ ربَّه أن يعطيه ما قالوا. فأنشقَّ القمرُ فرقتين، و«رسول الله» ﷺ ينادي: يا فلان يا فلان أشهدوا"... انظر «مجمع البيان» (ج٩ ص٢٨٢ ط دار المعرفة بيروت).

(٨) الفقه الأكبر: إصطلاح يُعبَّر به عن علوم العقائد والمعارف الإلهية.

(٩) انظر «الكافي الشريف» (ج٤ ص٥٧٥).

لقد ذكَرَ «الإمام جعفر الصادق» عليه السلام أنَّ كلَّ ما (شيء) يمكن رؤيته، بكىٰ لِدَم «سيِّد الشهداء» عليه السلام، وأنَّ كلَّ ما لا يمكن رؤيته بكىٰ أيضاً لدمه!

وبعد، فما هي القضية؟ وما الذي جرىٰ؟... هٰذا هو «الحسين» عليه السلام.

فلا تقولوا علىٰ المنابر بعد هٰذا: «حسين» (هٰكذا، بهٰذه البساطة)!

تأدَّبوا وأعرفوا بماذا تتفوَّهون، وأيُّ اسم هٰذا الذي يجري علىٰ ألسنتكم.

علىٰ الرغم من غَسْل الفم ألفَ مرَّة بالعطر وماءِ الورد، إلّا أنَّ جريان اسمك علىٰ لساني هو غاية سوء الأدب.(١٠) إذا أردتم ذكره فقولوا:

سيِّد الشهداء، إمام الأولياء، أبوعبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام...

دعوني أتعرَّض إلىٰ عبارة واحدة، عسىٰ أن أُوفَّقَ لِكَشف شيء مما تكتنف:

" أشهدُ أنَّ دمَكَ سَكَنَ في الخلد ".

لِيَكُن البحث مبَرهَناً، وليأخذ منحىً علمياً، فليس المقامُ هنا مقامَ خطابة...

إنَّ الإضافة تجعل من النكرة معرفة، كلُّ نكِرة تكتسب التعريف بإضافتها، هٰذه خصوصيَّة علميَّة للإضافة.

والآن، لننظر في إضافة لحقت مُضافاً صيَّرتهُ فوقَ حدود التعريف (ما وراء التعريف)، فإنَّ الإضافة إلىٰ ما هو فوقَ حدود التعريف يوجِدُ في المضاف الحالةَ نفسها، ويصبح هو الآخر فوقَ حدود التعريف، وهٰذا برهانٌ علميٌّ، فأرجع إلىٰ الكلمة التي ذكرتها آنفاً من أنَّ «الحسين بن عليٍّ» عليهما السلام، لا يحيطه تعريفٌ ولا يمكن وَصْفُه.

وإليك البرهان: من الثابت أنَّ الإضافة تحوِّلُ النكرة إلىٰ معرفة، من حيث إنَّ ما في المضاف إليه المعرفة ينتقل - من خلال الإضافة - إلىٰ المضاف (النكرة).

(١٠) الأصل بيت شعر فارسي تمثَّلَ فيه الأستاذ المحاضر دام ظله:

هزار مرتبه شستن دهان به عطر وگلاب

هنوز نام تو بردن كمال بى ادبى است

فإن لحقت الإضافةُ مُضافاً إليه فوقَ حدُود التعريف ونطاق الوَصف، فإنَّ الحكم يسري إلى المضاف ويصبحُ هو الآخر فوقَ حدود التعريف ونطاق الوصف.

هذه هي خصوصيَّة أصل الإضافة، وهناك إضافة من نوع آخر، هي "الإضافة الفنائية"، ولها حُكْمٌ آخر...

فإذا كانت الإضافة إضافةَ الفاني إلى المفْنِيِّ فيه، فإن أحكامَ المفْنِيِّ فيه تسري إلى الفاني، وتترتب آثارُ المفْنِيِّ فيه على الفاني، هذه هي نتيجة الإضافة الفنائية... وهنا، سننظر في إضافة «الحسين بن علي» عليه السلام إلى الله جلَّ جلاله، من أيِّ الإضافات هي؟ لِيُعلَمَ السرُّ في قوله عليه السلام: "السلامُ عليكَ يا قتيلَ الله وأبنَ قتيله".

مَن هو هذا "القتيل"؟

هناكَ جملة في دعاء «علقمة» أدعوكم لمراجعتها، جملة في منتهى العظَمة...[11]

فبعد أن يُقسِم على الله سبحانه وتعالى بالخمسة «أصحاب الكساء» عليهم السلام، يقول: "وبأسمك الذي جعلتَه عندهم وبه خصَصْتَهم دونَ العالمين".

لقد نبَعَ ذلك الدَّمُ من هذا الأصل...

إنَّ الدَّمَ الذي أُريق، خرجَ من بدَنٍ يحمل أسمَ الله الأعظم.

و(يبقى السؤال): إلى أيِّ حدٍّ، وبأيِّ مقدار؟ إنَّ لذلك الأسم ثلاثة وسبعين حرفاً، أستأثر مقام الباري عزَّ وجلَّ بحرف واحد منها، فلا شريكَ له في ذلك الحرف، وبقيَ من ذلك الأسم أثنان وسبعون حرفاً. أُعطيَ منها «عيسى» عليه السلام حرفين فقط، فكان يُحيي بهما الموتى ويُبرئُ الأكمهَ والأبرصَ، ويخلق الطيْرَ بإذن الله... كلُّ ذلك بفعل ذينك الحرفين، وحين بلغ الأمرُ النبيَّ «إبراهيم» عليه السلام صارَ العددُ ثمانية أحرف.

---

(١١) دعاء عن «الإمام الباقر» عليه السلام، الظاهر أنَّ راويه هو «صفوان بن مهران»، يُقرَأ بعد "زيارة عاشوراء"، التي رواها «علقمة بن محمد الحضرمي»، وقد أشتهر الدعاء بأسمه. ذكره «الشيخ الطوسي» في (مصباح المتهجِّد) (ص ٧٧٨ ط مؤسسة فقه الشيعة ـ لبنان).

ولم يتجاوز الإعطاءُ بعد «إبراهيم» ﷺ الثمانية أحرف قطُّ. (١٢)

ومن ثمانية أحرف لدىٰ «إبراهيم الخليل» ﷺ إلىٰ اثنين وسبعين كاملةً في قلبِ «الحسين بن علي بن أبي طالب» ﷺ!

إنه حامل لهٰكذا جوهَرة.

ثم إنَّ الدم أُريقَ من هٰكذا قلب...

هٰذه أُمورٌ ينبغي احتسابها وأخذها في الاعتبار.

يجب أن نتعرَّفَ علىٰ حدود هٰذه الشخصيَّة وعظمتها، وننظر إلىٰ الدم القرين بهٰذا الاسم، ثم كيفية إراقته... هٰذه هي الجهة المهمة.

فعندما يُراقُ دَمٌ، تترتَّبُ أُمورٌ وحسابات:

فدَمُ مَن هو؟ ومن أيِّ مستوىً من المعرفة يستمد؟ ومن أيِّ المَلَكاتِ والصفات يفيض منبعه؟ ولماذا أُريقَ؟ ثم كيف أُريق؟ وهٰكذا من المهم تحديد حجم الجراحات التي نالت البدن... إنها مما يَبْكُمُ اللِّسانُ عن قوله وبيانه، ولم يكن الهدفُ (هدفي) إلّا إزاحةَ الستار شيئاً ما عن "أشهد أنَّ دَمَكَ سَكَنَ في الخلد"...

لَعَمْري، مع كلِّ هٰذه الجراحات في هٰذا البدن...

وَقَفَ في طرف الميدان "ليستريحَ ساعةً"، كانَ علىٰ هٰذه الحال، وفي مثل هٰذا الوضع وتلك الحال، يا تُرىٰ كم بلَغ من التعب والنَّصَب؟ إنه إنسانٌ علىٰ أيِّ حال، وكان المفترض أن يتمَّ هٰذا الامتحان الإلهي في أفق البشرية ونطاق هٰذه النشأة، كانَ قد مرَّ لِتَوِّه علىٰ جنازة «أبي الفضل العباس» ﷺ، ونَظَرَ نَعْشَ ولَدِه «عليٍّ الأكبر»، وخلقَ

---

(١٢) «الكافي» (ج ١ ص ٢٣٠) باب ما أُعطي الأئمة ﷺ من اسم الله الأعظم، وفيه ثلاثة أحاديث، و«بصائر الدرجات» (ص ٢٢٨) باب أنهم أعطوا اسم الله الأعظم، وكم حرف هو، وفيه اثنا عشر حديثاً... وتشير الروايات إلىٰ أن «آدم» ﷺ كان أكثر الأنبياء حظوة من أحرف الاسم الأعظم، ويليه «نوحٌ» ثم «إبراهيم» ثم «موسىٰ» ثم «عيسىٰ» ﷺ، أي أن العدد كان تنازلياً، إلّا أنه عاد للصعود والارتفاع ليبلغ ٧٢ حرفاً عندما وصل الأمر إلىٰ «النبي الخاتم» ﷺ، وقد ورثها كلَّها الأئمة ﷺ.

(أوجَدَ) ذلك الاضطراب وأقامَ تلك الضجَّة في الميدان... "فوقَفَ يستريحُ ساعة"، تمعَّنوا جيِّداً، في مثل هذه الحال، صَكَّ الحَجَرُ جبينه! فرفعَ طرفَ ثوبه ليمسَحَ الدَّم...

ما الذي جرىٰ عندها، وماذا حدثَ عندما رفعَ ثوبه؟

هـذا مما لا يُطاق ذكره! ولكن ما يمكن أن يُقال، {دقِّقوا في هـذه النقطة} وهي: أنه عليه السلام وَضَعَ يدَه تحت الدماء المتدفِّقة من قلبه، لماذا وَضَعَ يدَه؟ ما هو الوجه في هذا الفعل (هذه الحركة)؟ نعم، لو سَقَطَ من تلك الدماء شيءٌ على الأرض ولاقاها، لما بقيت الأرض ولا أهل الأرض! هـذا هو معنىٰ: "السلامُ عليكَ يا رحمةَ الله الواسعة ويا بابَ نجاة الأمة"[١٣]، تلقَّى الدماءَ بيده، ولم يتركْها تهرقُ على الأرض...

يا «جعفرَ بن محمد»، أنتَ مَن ينبغي أن يقول أيُّ دَم كان هـذا؟...

جَمَعَ الدَّم في كفَّيْه، ونظر إليه قائلا: "بأسم الله وبالله"، ثم قال: "وفي سبيل الله"، ثم (قذف به ورماه) نثره نحو السماء، أي: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (فاطر)، فأقامَ تلك القيامة.

يقول «الإمام» عليه السلام: "فما رجع من ذلك الدم قطرة إلى الأرض". [١٤]

هذا هو الدم الذي سكَنَ في الخلد. لقد كتَبْتَ يا «أحمد بن حنبل» في (مُسندِك)، وأنتَ يا «ٱبن عبدالبر» في (ٱستيعابك)، وأنتَ يا «ٱبن حَجَر» في (إصابتك)، وأنتَ يا «ترمذي» في (سُنَنكَ)، وأنتَ يا «جلال الدين السيوطي» في (تفسيرك) و(تاريخك)، وأنت

(١٣) روىٰ «المفيد» و«السيِّد» و«الشهيد» في "زيارة البعيد" (مَن لم يحضر المشهد)، إذا أردت ذلك فمثِّل بين يديك شبه القبر وٱكتب عليه أسمه... (أسم «الإمام الحسين» عليه السلام) ثم قل: "... السلام عليك يا رحمة الله الواسعة". وعن «رسول الله» صلى الله عليه وآله إنه قال: "... أمَّا الحسين فإنه منِّي وهو ٱبني وولدي، وخير الخلق بعد أخيه، وهو إمام المسلمين ومولى المؤمنين وخليفة ربِّ العالمين، وغياث المستغيثين وكهف المستجيرين، وحجَّة الله على الخلق أجمعين، وهو سيِّد شباب أهل الجنَّة، وباب نجاة الأمَّة..." انظر (البحار) (ج ٢٨ ص ٣٩).

(١٤) روىٰ «أبومخنف» عن «جعفر بن محمد» عليه السلام، أنَّ «الباقر» عليه السلام قال: "فلم يسقط (فما رجع) من ذلك الدم قطرة إلى الأرض". انظر (البحار) (ج٤٥ ص٥٢ وص ٤٦).

أيها «البيهقي» كذلك، وأنت أيها «الخطيب البغدادي» في (تاريخك)... يا أئمة التفسير ويا أرباب الحديث، لقد كتبتم بأجمعكم أنَّ «ابن عباس» قال: "أستيقظتُ من منامي فزعاً"، فما هي الرؤيا التي نقلها «ابن عباس»، ونقلتموها أنتم بأجمعكم؟ قال «ابن عباس»: إنه رأىٰ «رسول الله» ﷺ أشعث أغبر، يحمل قارورةً في يَدِه، سأله عنها، فقال إنها دماءُ «الحسين» وأصحابه، جمعها لينقلها إلىٰ العرش.[(١٥)]

هل فهمتَ يا «أحمد بن حنبل» ماذا تعني هذه الرؤيا؟ هل علمت ماذا تعني هذه الكلمة؟ ليس دم «الحسين» عليه السلام وَحْده، بل دم «الحسين» و«أصحاب الحسين» عليهم السلام، هذه الدماء كلُّها تُنقل إلىٰ العرش، وهذا يعني (أنَّ «رسول الله» يقول:) إنني كنتُ بستانيَّ (راعي بُستان) عالم البشرية، وقد أينعت ثمار بُستاني، فجئت للجَنْي والحصاد... تفتَّحت الوُرُود، فجمَعْتُ ماء الورود، وها أنا آخذها إلىٰ حيثُ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ (القمر).

"أشهَدُ لقد طيَّبَ الله بك التراب وأوْضحَ بكَ الكتاب، السلامُ عليكَ يا قتيلَ الله وابنَ قتيله".

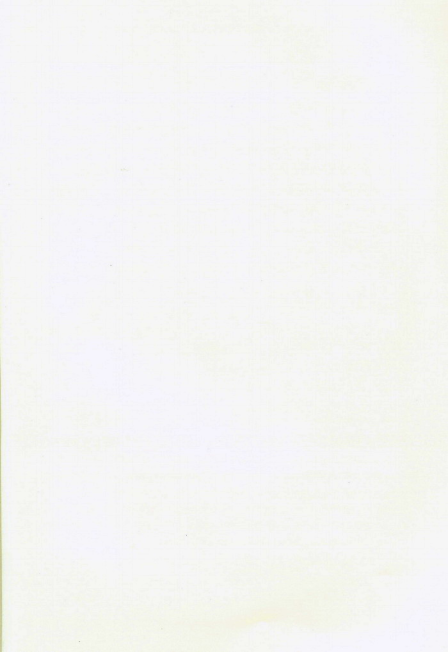
وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الطيبين الطاهرين

❁ ❁ ❁

---

(١٥) راجع (مسند أحمد) (ج١ ص٢٤٢ وص٢٨٣)، و(ذيل الأستيعاب) (ص٣٨١)، و(الإصابة) (ج١ ص٣٣٥)، و(مستدرك الحاكم) (ج٤ ص٣٩٧)، وقد أقرَّه «الذهبي» علىٰ صحته في (تلخيصه)، وفي (تاريخ بغداد) (ج١ ص١٤٢)... كما رواه أيضاً «ابن الأثير» في (أُسد الغابة) (ج٢ ص٢٢)، ونصُّ الرواية في (مُسند أحمد) هكذا:

عن «ابن عباس» قال: "رأيت «رسول الله» ﷺ في المنام بنصف النهار أشعث أغبر، معه قارورة فيها دمٌ يلتقطه، أو يتتبَّعُ فيها شيئاً، قلت: يا «رسول الله» ما هذا؟ قال ﷺ: دمُ «الحسين» وأصحابه لم أزل أتتبَّعه منذ اليوم...".



المحاضرة الثانية

التاريخ: ١٤/شعبان/١٤١٠هـ
الموافق ١٢/٩/١٩٩٠م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: معرفة الحجة ﷺ



هناك كلمة عظيمة لـ «أميرالمؤمنين» ﷺ يقول فيها: "إذا تكلّفَ ذو العلم القليل وتدخّلَ في ما لا يعلم فإنه يُتْعِبُ نفسه كما يُتْعِبُ غيره"[1]، ومع أننا نقل أمثال هذه الأحاديث إلّا أننا لا نعمل بها! فنحن لا نتعب، مع أننا نخوضُ في ما لا نعلم! ولست أدري عن حالكم: هل يرهقكم حديثي ويسبب لكم المتاعبَ ويبعث فيكم السأم أم لا؟! ولا يخفى عليكم أنَّ عدم تعبنا يعود لكوننا أنانيين! ولنُسجِّلَ هذه الحقيقة أولاً ونعترف بها... وهي أننا أنانيُّون، لذا (تجدنا) لا نرغب في إتعاب أنفسنا!

---

(١) قد يكون ـ دام ظله ـ ناظراً في ذلك إلى ما رويَ في (البحار) نقلاً عن (الخصال) بإسناده عن «أبي الحسن الأول» عن «أبيه» ﷺ أنَّه قال: قال «أميرالمؤمنين» ﷺ: "عشرة يُعَنِّتون أنفُسَهُم وغيرهم: ذو العلم القليل يتكلّف أن يُعلِّمَ الناس كثيراً، والرجل الحليم ذو العلم الكثير ليس بذي فطنة، والذي يطلب ما لا يدرك ولا ينبغي له، والكادُّ غير المتَّئد، والمتَّئد الذي ليس له مع تؤدته علم، وعالم غير مريد للصلاح، ومريد للصلاح وليس بعالم، والعالم يُحِبُّ الدنيا، والرحيم بالناس يبخل بما عنده، وطالب العلم يجادل فيه مَن هو أعلم فإذا علّمه لم يقبل منه" انظر (بحار الأنوار) (ج٢ ص٥١ ح١٥).

لكن الواقع أننا إذا دخلنا في ما لا نعلم، نكون قد أتعبنا أنفسنا، وأتعبناكم أيضاً... فليس «إمام العصر» ﷺ بالشخص الذي نعلم عنه شيئاً، بل إننا لا نعلم شيئاً بتاتاً! أمّا بالنسبة لكم فلا أدري، لعلَّ فيكم من بلَغَ مقاماً ما، وعرف عنه شيئاً ما، ولكنني الساعة لا أعرف أحداً (شخصاً) مُعيَّناً ممن يعلم شيئاً! نعم يوجد كثيرون ممَّن يعرفون عنه ﷺ بعض الأشياء، لكن المقصود معرفة ما يمكن أن يكون مُعرِّفاً له.

ولكننا نلج الموضوعَ من حيث إنه ذكْرٌ وتوسُّلٌ، والضمير هنا يعود لي شخصياً، لا للحضور والمستمعين، فلا يلتبس الأمر على أحد... وعَمَلنا هذا (أعني دخول البحث والحديث عن «إمام العصر» ﷺ) إنما هو على نحو تَبَصْبُصِ الكلب حول سيِّده!(٢) ولَعمري، فإن هذه الدعوى أيضاً - أي كون عملنا من قبيل تَبَصْبُصِ الكلب - لا بُدَّ من الاستغفار منها!... ليس الأمر كما نتوهَّم، ففي زيارة الناحية المقدَّسة: "السلامُ عليكَ"، ألتفتوا جيِّداً إلى هذه العبارة ثم أعلموا ما هي حقيقة الأمر، "السلامُ عليكَ سلامَ مَن عرفك بما عرَّفكَ به الله ونعَتَك". (٣)

ولننظر أولاً في الكلمة الأُولى ثم نصل بعد ذلك إلى الثانية، على الجميع أن يمتثلوا هناك ويقولوا: "السلامُ عليكَ"، أيُّ سلام؟

"سلامَ مَن عرفك"، وهذا يعني أنني لم أعرفك!

"سلامَ مَن عرَفَكَ" وبماذا عرَفَكَ؟ "بما عرَّفكَ به الله"، أي بالذي عرَّفكَ اللهُ به، وهذه الجملة تعني أن جميع التعريفات المتداولة له ﷺ تعريفاتٌ خاطئة.

---

(٢) تبَصْبَصَ الكلبُ: حرَّكَ ذَنَبَه طَمَعاً أو مَلَقاً. (معجم لاروس) (ص ١٥٨).

وبَصْبَصَ الجَرْوُ: فتَحَ عَيْنيْه، وقال «ابن دُريد»: إذا نظَرَ قبل أن تنفتح عَيْنيْه، والذي يرويه البصريُّون: يَصْيَصَ، بالياء. وقد تكون بَصْيَصَ من البصيص، وهو البريق، لأنه إذا فتَحَ عَيْنيْه فعلَ ذلك. وتبَصْبَصَ: تملَّقَ، وهو مجاز. ومما يُستدرك عليه: بَصْبَصَ بسيفه، إذا لوَّحَ به. والبصبصة: التملُّق وتحريك الظِّباء أذنابَها، وكذا الإبلُ إذا حُدِيَ بها. عن (تاج العروس).

(٣) انظر (بحار الأنوار) (ج١٠٢ ص١١٧).

إنما التعريف الصحيح هو تعريفُ مَن خَلَقَكَ، ولكن ما هو هذا التعريف الذي يدخل في إطار "عرِّفكَ به الله"، إنه التعريف الذي رواه «الشيخ الطوسي» قدَّس الله نفسه الزكيَّة في (مصباح المتهجِّد)[٤] في أعمال هذه الليلة (ليلة النصف من شعبان)، ولو كان هناك ذُخُرٌ لمعرفته ﷺ فإنما هو مكنونٌ في مثل هذه النصوص، ولنلاحظ ما ذكره «الشيخ» («الطوسي» ﷺ)، فقد ذكر أنَّ مما:

يُستحبُّ في هذه الليلة قراءة هذا الدعاء، {وأنا شخصياً لا أتمكن من فهم هذا الدعاء!}: "اللهم بحقِّ ليلتنا هذه ومولودها، وحُجَّتِكَ وموعودها، التي قرَنْتَ إلى فضلها فضلَكَ، فتمَّتْ كلمتُكَ صدقاً وعدلاً، لا مُبدِّلَ لكلماتك ولا مُعقِّبَ لآياتك، نورُكَ المتألِّق، وضياؤكَ المشرق، والعَلَمُ النور في طخياء الديجور، الغائبُ المستور، جلَّ مولدُهُ، وكرُمَ مَحْتِدُه، والملائكةُ شُهَّدُه، واللهُ ناصره ومؤيِّدُه، إذا آنَ ميعادُه، والملائكةُ أمدادُه، سيفُ الله الذي لا ينبو، ونورُه الذي لا يخبو، ذو الحلم الذي لا يصبو...".[٥]

ما هذا العالَمُ وما هذه الرحاب...؟!

على هذا، فنحن سنتعب! إذ لا يمكننا أن ندركَ مفهوم "نورُكَ المتألِّق، وضياؤكَ المشرِق"... ما هذه الرحاب وما هذا الأُفق؟ تعساً لنا... كم صغَّرْنا أئمة الدين؟!

تأمَّلوا: " وضياؤكَ المشرِق، والعَلَمُ النور في طخياء الديجور، الغائبُ المستور، جلَّ مولدُهُ، وكرُمَ مَحْتِدُه"، ما الأمر؟ وما الخطب؟! لقد قرنتَ يا إلهي فضلَكَ بفضل هذه الليلة، إذاً هو فضلُ الله، ذاكَ الذي هو فضلُكَ، فمَن هو ذا؟...

---

(٤) (مصباح المتهجِّد): كتاب في أعمال السَنَة، لشيخ الطائفة «الطوسي» (٣٨٥-٤٦٠هـ) قدَّس الله نفسه الزكية، ذكر فيه ما يتكرر من الأدعية وما لا يتكرر، وقدَّم فصولاً في أقسام العبادات وما يتوقف منها على شرط وما لا يتوقَّف، وذكر في آخره أحكام الزكاة والأمر بالمعروف. وهو من أجلِّ الكتب في الأعمال والأدعية وقدوتها، ومنه أقتبس كثير من كتب الباب، فهو أصلها. عن (الذريعة) للعلَّامة «الآقا بزرگ الطهراني» (ج٢١ ص١١٨).

(٥) انظر (مصباح المتهجِّد) (ص٨٤٢/ طبعة مؤسسة فقه الشيعة).

والواقع أنني عاجزٌ عن الخوض في غِمار زيارة "الناحية المقدَّسة"، وفي عبارات هذا الدعاء (دعاء ليلة النصف من شعبان)، حتىٰ ذلك القدر الذي فهمته من هذه النصوص، فإنَّ بياني ـ الآن ـ ليَقصُرَ عن العرض.

في "زيارة الناحية" التي تحوي التسليم الذي تقدَّم نقلُه، أي: "السلامُ عليكَ سلامَ مَن عرفك بما عرَّفَكَ به الله ونعَتَكَ"، هناك عبارة تقول:

"السلامُ عليكَ يا ناظِرَ شجرة طوبىٰ وسدرَة المنتهىٰ". (٦)

إن السَّادة الحضور هم من أهل العلم والفضيلة، ولكنني سأتعرَّض لِشرح هذه الفقرة حسب العادة الجارية بين (الطلاب) المحصِّلين في تناول هذه الأمور ـ أحياناً ـ بالبحث والنظر، وكما هو شأن الأجواء العلميَّة، فعذراً!

أقول: إنَّ حدود الخيال وأُفقه لا يمكن قياسه إلىٰ حدود النظر ونطاقه، فإلىٰ أيِّ مدَىً يُمكِنكُم أن تُبصِروا، ولكن إلىٰ أيِّ فضاءٍ يمكن لخيالكم أن يسبح؟ كم هو البَوْن بين النظر والخيال، ثم بين الخيال والعقل؟ بمعنىٰ: ما هي المسافة بين ما تشاهدونه بأعينكم، وما تبلغونه بخيالكم، وما تصلون إليه بعقولكم؟ كم هي الفواصل بين حدود هذه الإدراكات؟... فأيُّ حدٍّ يمكن أن يبلغَ البصر، وأيُّ حدٍّ يمكن أن يبلغَ الخيال، وبعد مرتبة الخيال، إلىٰ أيِّ حدٍّ يمكن أن تبلغ عقولكم؟...

من الواضح أنَّ غاية العقول هي درك المجرَّدات.

فإذا كانت "سِدْرةُ المنتهىٰ" في نطاق رؤية إنسان ما، حتىٰ إذا شَخَصَ ببصره رأىٰ وشاهَدَ "سِدْرةَ المنتهىٰ"! فأيُّ الحدود والآفاق سيبلغها عقله؟

هذا هو «الحجَّة بن الحسن» ﷺ، وهذا الإنسان هو «إمام الزمان» ﷺ...

"السلامُ عليكَ يا ناظِرَ شجرة طوبىٰ وسِدْرَة المنتهىٰ".

---

(٦) قال «الكفعمي» ﵀ في (مصباحه)، روىٰ «يونس بن عبدالرحمن» عن «الرضا» ﷺ أنه كان يأمر بالدعاء لـ «صاحب الأمر» ﷺ بهذا الدعاء... وقد جاء هذا التسليم في ذلك الدعاء المذكور. انظر (بحار الأنوار) (ج١٠٢ ص١١٥، ١١٧).

إنَّما يُعَرَّفُ «إمام الزمان» عليه السلام بمثل ما جاء في هذه النصوص، لا بمنسوجات خيالاتنا، وإذا كان هذا هو «إمام العصر» عليه السلام، فلا بد أن يُقَدَّرَ حقَّ قدره، ومَن لم يُقَدِّرْه بحقِّ قدره، ولم يُنزِلْهُ المقامَ الذي أنزَلَهُ الله فيه، ولم يُرَتِّبهُ في المرتبة التي رتَّبهُ الله فيها ـ ولو بخفضِه عن مقامه درجة واحدة ـ فإنه ليُختَمُ على عقله ويُكتَب له الشقاء الأبدي، ويُحرَم من جميع الكمالات ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝﴾ (المطففين)!... وهذه هي المأساة الحقيقية للإنسان.

وعلى كل حال، هذا هو مجال بَصَرِه عليه السلام، وإذا كانت الرؤية والباصرة قد بلغت هذا الحدَّ، فأين عساه أن يبلُغَ الخيال؟ هنالك يَحارُ عقلُ «جبرائيل»، الذي كان حدُّه سدرةَ المنتهى[٧]، ولم يمكنه أن يرقى فوق ذلك، أمَّا «إمام العصر» عليه السلام فإن سدرةَ المنتهى في نطاق رؤيته، وهكذا يكون «جبريل» في مرمى بصره أيضاً، وأما عقله وخياله فهو حيث لا يمكن لـ «جبرائيل» عليه السلام أن يقربه ويدنو منه، ومَن عسَاهُ أن يكون «جبرائيل» (بمقارنته مع «المولى»)؟ نعم إن للوحي ونزول «جبرائيل» به، والطقوس التي تصاحب ذلك أهمية وخطورة كبيرة، ولكن أين هذا من خطورة مقام «إمام العصر» عليه السلام المشار إليه؟! إنَّ «جبرائيل» لا يمكنه أن يدنو من ذلك المقام ولا أن يقربه ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝﴾ (النجم)، ففي ذلك المقام ما يزال «جبرائيل» في نزول... تدبَّروا في القرآن الكريم، واتلُوه بدِقَّة وعلم لتنكشفَ لكم هذه الأمور، ولو بعضَ الشيء.

(٧) في الحديث الشريف عن «رسول الله» صلى الله عليه وآله: «إن الله فضَّلني على جميع النبيين والمرسلين والفضل من بعدي لك يا «علي» ولـ «الأئمة» من بعدك، وإن الملائكة لَخُدَّامنا وخُدَّام محبِّينا... يا «علي» لولا نحن ما خلق الله «آدم» ولا «حواء» ولا الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض، فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى معرفة ربِّنا وتسبيحه وتهليله وتقديسه؟ إن الله خلق «آدم» فأودعنا صُلْبَه وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لنا وإكراماً، وكان سجودهم لله عبودية ولـ «آدم» إكراماً وطاعة لكوننا في صُلْبه، فكيف لا نكون أفضَلَ من الملائكة وقد سجدوا لـ «آدم» كلُّهم أجمعون، وإنه لما عرج بي إلى السماء أنتهيت إلى حُجُبِ النور قال «جبرائيل»: إن أنتهاء حدِّي الذي وضعني الله فيه إلى هذا المكان، فإن تجاوزته آحترقَتْ أجنحتي» انظر: «البحار» (ج ١٨ ص ٣٤٥).

إذن مَن كان هذا مجال رؤيته، فما هو مُعرِّفه؟

إنها العبارات التي تلَتْ ما تقدَّمَ في التسليم: "السلامُ عليكَ يا ناظِرَ شجرة طوبىٰ وسِدْرَة المنتهىٰ، السلامُ عليكَ يا نورَ الله الذي لا يُطفأ" إنَّه نورُ الله الذي لا يُطفأ، ولكن ما هو هذا النور الذي لا يُطفأ؟... هناك تتجلَّى وتتجمَّعُ جميعُ العلوم.

ولكُم أن تدقِّقوا في هذه الزيارة نفسها، حيث تبلغ الأُمورُ شيئاً فشيئاً مَبلَغ: "أشهَدُ أنَّكَ... وأنَّكَ خازنُ كلِّ عِلْم"، تصوَّروا هذا المعنىٰ، إنَّ مُجرَّدَ تصوُّره ليُحيِّرُ الإنسان! ثم إلىٰ قوله: "وفاتِقُ كُلِّ رتْقٍ، ومُحقِّق كُلِّ حقٍّ، ومُبْطِلُ كلِّ باطِلٍ"[٨]، هذه مقاماتٌ أربعة تقلَّدها «إمام العصر والزمان» ﷺ...

بالمقامُ الأوّل أنَّه ﷺ "عالِم"، إنَّما أيُّ عالم؟ عالِمٌ بكُلٍّ، و"كُل" من أدوات العموم، بل أصرح ألفاظ العموم، وقد تعلَّقت هنا بالعلم، وأيُّ عالَم هو عالَم العِلْم؟... هذا من حيث علمه ﷺ، أمَّا قدرته، فما هو حدُّها؟ (إنه ﷺ) "فاتِقُ كُلِّ رتْقٍ"، إذ ليس هناك رتْقٌ أصلاً، وما هو إلّا الفتق بمجرد إشارة منه ﷺ... إنه مقامٌ لا يمكن إدراكه ولا تصوُّره، والأفضل أن ننظر في ما رُوِيَ في ذلك، فقد رُوِيَ في «الكافي» بإسناده عن «أبي عبدالله» ﷺ أنَّه سأله رجل: "عن القائم ﷺ يُسَلَّمُ عليه بإمرة المؤمنين؟ قال: لا، ذاك اسمٌ سمَّى الله به أميرالمؤمنين ﷺ لم يُسَمَّ به أحدٌ قبله ولا يتسمَّى به بعده إلّا كافر [ولا استثناء!]، قلت: جُعِلْتُ فداكَ كيف يُسَلَّمُ عليه؟ قال: يقولون السلامُ عليكَ يا بقِيَّةَ الله، ثم قرأ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (هود)".[٩]

وماذا تعني "بقِيَّةَ الله"؟ فكِّروا وتمعَّنوا فهو "المنتهىٰ إليه مَواريثُ الأنبياء، والموجودُ لديه آثارُ الأصفياء"، فكُلُّ الكرامات والكمالات وكُلُّ مقام ومنصب حصلَ عليه ذو مقام، وكُلُّ وِسَام تحلَّى به صاحبه، كلُّها في قبضته... مَن هو هذا؟!

---

(٨) راجع الهامش (٦).

(٩) «الكافي الشريف» (ج١ ص٤١١ و٤١٢ ح٢).

وعندما يحين ظهوره الشريف، يتجسَّدُ معنىٰ جميع مواريث الأنبياء وآثار الأصفياء في خُلاصة ما سَلَفَ من الوجود، إنه عُصارة الخلق والوجود، إنه عُصارة الأريج الذي جَمَعَه الله سبحانه وتعالىٰ من جميع أزهار وَوُرُود العالَم، وحَصَّلَهُ في زجاجة (قارورة)، فكان «الحجَّة بن الحسن» ﷺ.

ولعَمري، ماذا عسانا أن نقول في هٰكذا بشر؟

وكيف يمكننا التحدُّثُ عن مثل هٰذا الوجود؟

وحتىٰ تعبيري المتقدِّم عن هٰذا الحديث والبحث بـ "تبَصْبُص الكلب"، لا يمكن أن يتحقَّق هنا ويصدُق! إذ إننا لم نجتزِ الأمتحان بعد، فصاحب الكلب قد يقذف كَلْبَهُ بألف حَجَر، ولٰكنك تجد الكلبَ (مع ذلك) يعودُ إليه و "يتبَصْبَصُ" عند رجليه، ونحن لم نُقذَفُ حتىٰ بحَجَرٍ واحد (من هٰذا البيت) حتىٰ يتبيَّن: هل سنعود إلىٰ هٰذا الباب من جديد ونصرُّ علىٰ لَثْم أعتابه؟! (١٠)

أما المعرفة، فلا أثرَ لها!

وأما تبصْبُصُ الكلب، فأستغفر الله من أدعائه وأنتحاله!...

---

(١٠) قد يستغرب بعضُهم هٰذه التعابير من سماحة «الشيخ»، ويحسبها إغراقاً وغلُوّاً، أو يراها أمتهاناً لمكانة الإنسان، وفيها ما يتعارض مع كرامته... وما ذلك إلّا لِغُربتهم عن تراث «أهل البيت»، وبُعدهم عن آداب التعامل مع أولياء الله، وهٰكذا لجهلهم بحقائق تلك الذوات المقدَّسة التي حقَّ للعارف أن تذهب نفسه وتتلف في الخضوع والتذلل لهم.

هٰكذا علَّمنا «أميرالمؤمنين» ﷺ وأدَّبنا وهو يخاطب «رسول الله» ﷺ: "... بل رضيت أن يكون روحي ونفسي فداءً لأخٍ لكَ، أو قريب، أو لبعض الحيوانات تمتهنها"، رُوي في ‹البحار› (ج١٩ ص٨١ ح٣٤). وقال «الشيخ الصدوق» ﵀ في ‹علل الشرايع› (ص٣٤): "لأنَّ الأُمَّة من النبيِّ والحُجَّة بمنزِلَة الأغنام من راعيها". ونقل «التنكابني» ﵀ في ‹قصص العلماء› (ص٤٠٥، ٣٩٧): قال المولىٰ «نصير الدين الطوسي» ﵀: "يا حَسْرَةً علىٰ عُمْرٍ أفنيناه ولم نبلغ في الفهم والإدراك ما يفهمه الكلب". ومكتوبٌ علىٰ قبره وكذا قبر «الحسين بن الحجَّاج» ﵀ المدفون في جوار «الجوادين» ﵉: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ (الكهف)... فتأمَّل.

نعم، كلُّ ما بقي هو ذلكَ السيِّد، وأيُّ مولىً هو؟ وذلك الكريم الجواد، وأيُّ كريم وجواد هو؟ اللهم إلّا أن يتلطَّف علينا ببركة دم جدِّه («الحسين» ﷺ)... وإلّا فلَسْنا حتىٰ في مقام كلب مَدَّ علىٰ أعتاب دارهم ذراعيه وهَزَّ أمامهم ذَنَبَه... كلّا، فنحن أقلُّ من كلْبٍ وأسوأ! (وبعد، فالعتب كلُّ العتب علينا) إنَّ كلَّ ما نالنا هو من جَنْيِ أيدينا، لا نلومك (يا «ابن الحسن») ولا نعتب عليك، وهل كان منك غير اللطف والإحسان؟ وكان منّا غير السوء والعار؟... كلّا، لا شيء سوىٰ ذلك أبداً.

ينقل المحدِّثُ «المجلسي» ﷺ قضيَّة عجيبة، اشتملت علىٰ كلمتين لـ «صاحب الأمر» ﷺ تمثِّلان عالَماً في المعرفة، فقد نقل من كتاب «السلطان المفرِّج عن أهل الإيمان»، أنَّه حكىٰ عن «مُحيي الدين الإربلي»: أنه حضَرَ عند أبيه ومعه رجلٌ، فنَعَسَ فوقعت عمامته عن رأسه، فبدَت في رأسه ضربة هائلة، فسأله عنها؟

فقال له: هي من «صِفِّين»! فقيل له: وكيف ذلك ووقعة «صِفِّين» قديمة؟

فقال: كُنتُ مسافراً إلىٰ «مصر» فصاحَبني إنسانٌ من «غَزَّة»، فلمَّا كُنَّا في بعض الطريق تذاكرنا وقعة «صِفِّين»، فقال لي الرجل: لو كُنتُ في أيام «صِفِّين» لروَّيتُ سيفي من «عليٍّ» وأصحابه، فقلت: لو كُنتُ في أيام «صِفِّين» لروَّيتُ سيفي من «معاوية» وأصحابه، وها أنا وأنت من أصحاب «عليٍّ» ﷺ و«معاوية» لـ...، فاْعتركنا عركةً عظيمةً، واْضطربنا فما أحَسَسْتُ بنفسي إلّا مرْمِيّاً لما بي...

فبينما أنا كذلك، وإذا بإنسان يوقظني بطَرَف رمحه، ففتحت عينَيَّ، فنزل إليَّ، ومَسَحَ الضربة، فتلاءمَتْ. فقال: إلبث هنا، ثم غاب قليلاً، وعاد ومعه رأس مخاصمي مقطوعاً، والدواب معه، فقال لي: هذا رأس عدوِّكَ، وأنت نصرْتَنا فنصرناك، ولينصُرَنَّ اللهُ مَن نصره. فقلت: مَن أنت؟ فقال: فلان بن فلان ـ يعني «صاحب الأمر» ﷺ ـ ثم قال لي: وإذا سُئلْتَ عن هذه الضربة فقُلْ ضُرِبْتُها في «صِفِّين». (١١)

(١١) انظر (بحار الأنوار) لـ «العلامة المجلسي» (ج٥٢ ص٧٥).

إنها كلمة في غاية الأهمية: "نصرْتَنا فنصرناك"...

وما هي العلاقة بين هذه الكلمة والآية الشريفة: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝﴾ (الحج) التي تضمَّنت لامَ التأكيد؟

لقد ذكر علماء اللغة والنحو أنَّ في هذه الآية أربعة تأكيدات...

فمن المؤكد أنَّ من ينصر الله، فإنَّ الله سينصره، ومقصوده عليه السلام من: "نصرْتَنا فنصرناك"، إنَّك لم تنصرنا نحنُ، بل نَصَرْتَ الله، فلا فرق بين نصرتنا ونصرة الله، ولسنا نحن الذين ننصرك، بل الله هو الذي ينصرك. وهذا أيضاً مما يوصل الإنسان إلى معرفة «الإمام»، والقضية هنا على نحو ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۝﴾ (الأنفال)، فليست القوَّة التي جَرَتْ على تلك اليد فالتأم الجرحُ من فوره، قوَّة بشريَّة، إنها قوَّة مُستَمَدَّة من مكان آخر، تجري وتظهر من خلال تلك اليد...

ولكن إدراك (إدراكنا لـ) هذه الحقائق ما يزال ضعيفاً!

ما هو حدُّ تفوُّقه عليه السلام على غيره؟

حتى نقف على حَدِّ التفوُّق والتميُّز، لننظر في حال «موسى بن عمران» عليه السلام الذي كان يُخرِجُ يده من جنبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝﴾ (الشعراء)، وكانت تلك اليدُ (الأُخرى، أي يد نبيِّ الله «عيسى بن مريم» على نبينا وآله وعليه السلام) تُرجِع البصر للأعمى، وكانت إذا مَسَحَتْ على رأس أحدِ أُلهِمَ ووُهِبَ عقلَ أربعين رجلاً...

لقد كان النور الذي يَسْطَعُ من يَدِ «عيسى بن مريم» عليه السلام يشفي العين الباصرة، ويهبها الرؤية... أمَّا يَدُ «الحجَّة بن الحسن العسكري» عليه السلام فإنَّ سيل العقل يتدفَّق منها، بل ينصَبُّ انصباباً [١٢]، هذا هو الفارق بين هاتين اليدين، وبهذا التفاوت الفاحش تتفوَّق يَدُ «صاحب الأمر» عليه السلام...

(١٢) روى «الصدوق» في نوادر (كمال الدين وتمام النعمة) (ج٢ ص٦٧٥ ح٣٠) عن «الباقر» عليه السلام، قال: "إذا قام قائمنا وَضَعَ يده على رؤوس العباد، فجمَعَ بها عقولهم وكمُلَت بها أحلامهم".

بل الواقع إنَّ الأمر في تفوّقه ليس على ما نتصوَّر، بل أكثر من ذلك بكثير!

من هنا، فإنه ﷺ عند ظهوره الشريف، يخرج معه ثلاثة عشر ألفاً وثلاثمئة وثلاثة عشر مَلَكاً، ممن هم موجودون الآن في الأرض. (وقد جاء في الرواية) أنَّ «الإمام» ﷺ يُسأل: هل أنَّ هؤلاء الثلاثة عشر ألف وثلاثمئة وثلاثة عشر مَلَكاً، موجودون في الوقت الحالي (الآن) على وجه الأرض؟ فيجيبهم: نعم... إنَّ ثُلَّةً من هؤلاء هم ممن صَحِبَ «نوحاً» في سفينته، وثُلَّةٌ أُخرىٰ كانت مع «إبراهيم» حين أُلقي في النار، وثُلَّةٌ كانت قد رافقت «موسىٰ» عندما دخل "الوادي المقدَّس"، وثُلَّةٌ كانت مع «عيسىٰ» حين رُفِعَ، وثُلَّةٌ منهم شهدوا مع «رسول الله» ﷺ "بدراً"...(١٣)

إنَّ عظائم أيام الوجود ومواقفه التي نَهَضَ بها الأعاظم من الرجال الذين كانوا يتمتَّعون بقُدُراتٍ ملكوتيَّة فائقة... تعودُ كُلُّها لتتمحوَر وتتجلَّى في وجود «صاحب الزمان» ﷺ، وعندما يحين الوقت لظهوره الشريف، يتجمَّعُ حوله جميعُ الأربعة آلاف مَلَك الذين هبُّوا لنُصرَة «سيِّد الشهداء» ﷺ، أُولئك الذين تجمَّعوا منذ زمن «نوح» وحتىٰ آخر يوم «عاشوراء» حيث "لا يوم كَيَوْمكَ"...(١٤)

عليهم (جميعاً) أن يمتثلوا بين يدي «الحُجَّة ابن الحسن» ﷺ، ويحوموا حول شمعة وجوده الأقدس.

إذن فمِثلُ هذا الإنسان لا بُدَّ وأن يُعرَّف بهذه التعاريف: "نورُكَ المتألِّقُ، وضياؤكَ المُشرِق، والعَلَمُ النور في طخياء الديجور"... إلىٰ آخر الدعاء.

---

(١٣) روي في (كمال الدين وتمام النعمة) للشيخ «الصدوق» (ج٢ ص٦٧١) بإسناده عن «أبان»، وفي (البحار) (ج١٩ ص٣٠٥).

(١٤) إشارة إلىٰ قول «الحسن السبط» ﷺ لأخيه «الحسين» ﷺ:

"لا يوم كيومك يا أبا عبدالله، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدعون أنهم من أُمَّة جدِّنا محمد ﷺ، وينتحلون دين الإسلام، فيجتمعون علىٰ قتلك وسفكِ دمِك، وأنتهاك حرمتك، وسبي ذراريك ونسائك، وأنتهاب ثِقلك"... انظر (البحار) (ج٤٥ ص٢١٨).

والآن، ما هي وظيفتنا الرئيسة؟ ماذا علينا أن نفعل؟

إنَّ دورنا نحن - أعني دور طبقة العلماء، وطلبة العلوم الدينية - يتلخَّصُ في أمرين، إذا مَنَّ الله علينا ووَفَّقنا، ولا يمكن أن يكون الأمر إلّا بتوفيق ولُطف منه تعالى، لا أن ندَّعيَ أنَّ لنا شأناً... وأنا أُكَرِّرُ - هنا - (وأُعيد قولي) بأنني لا أستطيع الأدّعاء بأنَّ لي مَقامَ كلْبِهِم، وعلى هذا أُقِرُّ وأُمضي، لأنها دعوىً توجب عليَّ وتلزمني الأستغفار، ولن أقع في هذا الخطأ فأدّعي (وأنتحل صفة) بأنني كلْبُ هذا البيت! (١٥)

ولكننا مُتَسوِّلُون نستجدي... ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ (الضحى).

إنَّ ما نقوله ونُخاطِبُكَ به يا «ابن العسكري» هو:

إنَّ الله تعالى قال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾... فأنا سائلٌ ويتيم، نحن أيتام بأنقطاعنا عنك، لَعَمْري مَن هو أكثر يُتْماً منّا؟

---

(١٥) مع أنَّ تعبير سماحة «الشيخ» ﷺ هنا بأنه لم يبلغ رتبة الكلب، حتى عَدَّ أدعاءه وأنتحاله وزعمه ذلك ضرباً من الغفلة والغرور الذي يستوجب الأستغفار وطلب التوبة... قد يوحي بالتواضع والتذلل، بل المبالغة والإغراق في ذلك، كما قال "أحدهم" وواجهني، بعد مطالعته الكتاب (عند أنتشار الطبعة الأولى)، أنَّ «الشيخ» ﷺ خانه التعبير، وكان عليه أن يجد ألفاظاً ويُنشأ عبارة أنسب للتعبير عن خضوعه وولائه لـ «أهل البيت» ﷺ، إذ ما كان ينبغي أن يبلغ هذه الحدود، فقد كرَّم الله بني آدم، وليس له أن يمتهن نفسه بمثل هذه الأوصاف!

لكن الحقَّ أنَّ ذلك لا يعدو أن يكون أمارة على الرتبة العلميَّة والروحيَّة والعرفان الذي بلغه سماحة «الشيخ» ﷺ. فما نحن في حقائقنا إلّا هباءٌ وأعدامٌ أمام تلك الذوات الطاهرة... وأعلم بأنه لا سبيل إلى إدراك المعارف والحقائق وبالتالي نيل السعادة في الدارين، إلّا بهذا الفهم والشعور، ولا طريق لكسبها إلّا بإنكار الذات على هذا النحو من التأدُّب والخضوع.

أمَّا مسألة كرامة الإنسان وعدم جواز أمتهان النفس بمثل هذه التعابير... فالحق أن لا كرامة فوق هذا التذلل، ولا عزَّة وشرف يناهز هذا الخضوع، ومدلول الآية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ۝﴾ (الإسراء) يسبح في أُفق بعيد عن ما توهَّمه بعض من أعترض، ويؤكِّد هذا السلوك ويحسِّنه، فالعبادة ليست أمتهاناً للإنسان، مهما بدت غريبة في شكلها وطقوسها. وقد ذكرت في حاشية الصفحة (٣٧) بعض الشواهد والأستدلالات.

وأين السائل الأشد فقراً والأكثر فاقةً منَّا؟ (١٦)

وقد قال الله سبحانه وتعالى في مُحكَم كتابه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ (الضحى)...

إنَّ وظيفتنا هي ما ذكروه: "المعروفُ ما أمرتُم به، والمنكرُ ما نهيتم عنه، والحقُّ ما رضيتموه، والباطلُ ما سخطتموه". (١٧)

---

(١٦) في الحديث الشريف عن «الإمام العسكري» ﷺ، قال: حدّثني «أبي»، عن «آبائه»، عن «رسول الله» ﷺ أنه قال: "أشدُّ من يُتم اليتيم الذي انقطع عن أبيه، يُتم يتيم انقطع عن إمامه، ولا يقدر على الوصول إليه، ولا يدري كيف حكمه في ما يبتلى به من شرائع دينه، ألا فمَن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا فهدىٰ الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا فأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم إلى نور العلم الذي حَبَوْناه به، كان معنا في الرفيق الأعلىٰ وجاء يوم القيامة وعلىٰ رأسه تاج من نور يضيءُ لأهل تلك العَرَصات". وقد ذكر الشيعة بهذه الصفة (الأيتام) في روايات أُخرىٰ، منها:

عن «الحسين بن علي» ﷺ قال: "مَن كفل لنا يتيماً قطعته عنَّا محنتنا باستتارنا، فواساهُ من علومنا التي سقطت إليه حتىٰ أرشده وهدَاه، قال الله سبحانه: أيها العبد الكريم المواسي، أنا أولىٰ منك بهذا الكرم، أجعلوا له يا ملائكتي في الجنان بعَدَدِ كلِّ حرفٍ علَّمه ألف ألف قصر".

وقال «موسىٰ بن جعفر» ﷺ: "فقيه واحد يتفقد يتيماً من أيتامنا المنقطعين عن مشاهدتنا والتعلم من علومنا، أشدُّ علىٰ إبليس من ألف عابد". إلىٰ أن قال: "ويقال للفقيه: أيها الكافل لأيتام آل محمد ـ صلى الله عليه وآله أجمعين ـ الهادي لضعفاء محبيه ومواليه، قِف حتىٰ تشفع في كل من أخذ عنك أو تعلم منك". وقال «عليٌّ الهادي» ﷺ: "لولا مَن يبقىٰ بعد غيبة قائمنا من العلماء الداعين إليه والدالين عليه، لَما بقي أحدٌ إلّا ارتد عن دين الله، أولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل. (تفسير «الإمام العسكري» ﷺ، عن (عوائد الأيام) لـ «المحقق النراقي» (ص٥٣٣ ـ ٥٣٦).

وعن مولاتنا «فاطمة الزهراء» ﷺ، قالت في معرض الثناء علىٰ علماء الشيعة: "... ثم ينادي منادي ربّنا عزَّ وجلَّ: أيها الكافلون لأيتام «آل محمد» ﷺ، الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم". انظر (بحار الأنوار) لـ «العلامة المجلسي» (ج٢ ص٢ ـ ٣ ح١ و٣).

(١٧) فقرة من "دعاء الندبة" الذي صدر من "الناحية المقدَّسة"، ذكرت في زيارته، صلوات الله عليه المرويَّة عن «محمد بن عبدالله بن جعفر الحميري»، نقلها «المجلسي» في (البحار) عن (الاحتجاج) (ج٥٣ ص١٧٢، وج٩٤ ص٣ وص٣٩، وج١٠٢ ص٨٢ و٩٤).

هكذا يجب أن نكون، أي على ذلك الحدّ من التسليم...

والعقل يجب أن يُسلِّمَ هنا ويلقي العنان.

دَعُوا هذه الأغاليط والشيطنات التي تنطلق من "إن فهمي يقتضي كذا..." و"وفقاً لعلمي فإنَّه كذا..." جانباً، وذروها بعيداً، فـ "الحق ما رضيتموه، والباطلُ ما سخطتموه"، فما تراهُ (يا «ابن العسكري») حقاً فهو الحقُّ، وما تراه باطلاً فهو الباطل.

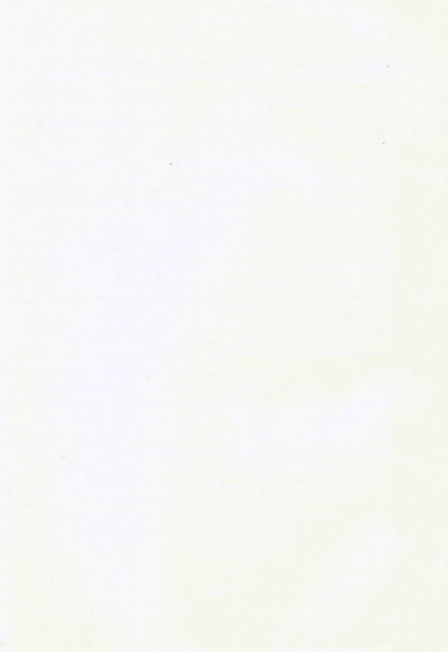
إنَّ العقيدة الحقَّة تتلخَّصُ في هاتين الكلمتين:

"الحقُّ ما رضيتموه، والباطلُ ما سخطتموه".

وأمَّا البُعد والجانب العملي والسلوكي فيجب أن نُعمِلَ فيه أيضاً: "والمعروف ما أمرتم به، والمنكر ما نهيتم عنه".

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

❁ ❁ ❁



المحاضرة الثالثة

التاريخ: ١٣/شعبان/١٤١١هـ
الموافق ٢٧/٢/١٩٩١م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: صبر الحجة عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

علينا أن نتعرَّضَ بين فترة وأُخرىٰ لبعض المباحث المتعلِّقة بأُصول الدين، لنعوِّض بذلك تقصيرنا في هذا الجانب، فنحنُ نعاني من نقْصٍ وضَعفٍ في "أُصول الدين"، والصحيح أن أقول: إننا نعاني من فَقْرٍ، بل ما يناهز ويَقرُب من الأنعدام في أُصول الدين! وهذه طامة كبرىٰ...

"اللهم عرِّفني حُجَّتكَ فإنَّكَ إن لم تعرِّفني حُجَّتكَ ضلَلْتُ عن ديني"[1]، هذه كلمة محفوفة بالأخطار! وقبل البدء لا بد من التنويه إلىٰ أن المسألة من الأهميَّة بمكان، بحيث إنها خارجة عن إطار قدرات وإمكانيات أمثالي وأمثالكم...

(١) رواه «الشيخ الطوسي» رحمه الله في (مصباح المتهجِّد) (ص ٤١١ ط بيروت) مُسنداً عن «أبي عمرو العَمري» (أحد السفراء الأربعة في عصر الغيبة الصغرىٰ). وهو صدر الدعاء الذي ذكره صاحب (مفاتيح الجنان) الشيخ «عباس القمي» رحمه الله تحت عنوان: "الدعاء في زمان الغيبة".

إنَّ الموضوع هو: "معرفة الحُجَّة"، لا معرفة العبادات والمعاملات الشرعيَّة، ولا معرفة "الصحيح والأعم"[(٢)]، لا معرفة "البراءة والأشتغال"[(٣)]، فهذه يمكننا أن نلجَها بإقدام ونبحثَها دونَ وَجَل، أمَّا في تلك الأبحاث فنحن ندخل بخوفٍ ورهبة! إذ لا أهليَّة لنا ولا كفاءة، فلا مَناصَ من أن نقول: "اللهم عرِّفني حُجَّتكَ".

إنَّ معرفةَ حُجَّته تعالى، شأنٌ أكبر من أن نبلغه نحن، وهذه الأبحاث (المتعلِّقة بالشأن العقائدي) - في حقيقة الأمر - لم تُنَقَّح ولم تخضَع للتحقيق (والبحث المستفيض) كما ينبغي. نعم، لقد بذلَ عظماؤنا كثيراً من الجهود والمساعي المشكورة، ولم يدَّخِروا شيئاً في وُسعِهم، لكن الأمر يعود إلى عظمة القضية وسُمُوِّها، لا إلى تقصير الباحثين في موضوع الإمامة، إذ لم يقصِّروا في البحث والتحقيق... ولكن جَلَّ جنابه، إنَّ عظَمَةَ مَقامه (ﷺ) تحـولُ دونَ بلوغه في قريبٍ منظور، وسَهْلٍ ميسور، هذا فضلاً عن الأفتقار للشرط الأساس لتحصيل المعرفة به ﷺ.

---

(٢) و(٣) من مباحث عِلم الأُصول ومصطلحاته. وقع النزاع بين الأُصوليين في أن أسماء العبادات كالصلاة والصوم والحج، وبل وبعض أسماء المعاملات كالبيع والإجارة والنكاح، هل هي موضوعة بوضع تخصُّصي للمعاني الجامعة للأجزاء والشرائط الشرعية، الفاقدة للموانع والقواطع كذلك، بحيث يكون أستعمالها في الناقصة الفاقدة لما يُعتَبَر فيها غلَطاً باطلاً أو مجازاً لعناية وعلاقة؟ أو هي موضوعة للأعمِّ من التامَّة الجامعة لما يُعتَبَر فيها والناقصة الفاقدة له؟ ليكون إطلاقها على الناقصة أيضاً أستعمال حقيقي، وإن كان الطلب لم يتعلَّق إلّا بالكاملة الواجدة لما يُعتَبَر فيها، فأختيار الوجه الأول قولٌ بـ "الصحيح" والقائل به يُسمَّى "صحيحيّاً"، وأختيار الوجه الثاني قولٌ بـ "الأعم"، والقائل به يسمّى أعمِّيـاً. وهكذا البراءة والأشتغال من الأُصول العمَليَّة التي مفادها أنَّ الأصل براءة ذمَّة كلِّ مكلَّف من التكليف حتىٰ يَثْبُت بالدليل، ويحكم به العقل فيسمَّى بالبراءة العقلية، والشرع فيسمَّى بالبراءة الشرعية. أمَّا الأشتغال: فعبارة عن حكم العقل بأنَّ أشتغال الذمَّة بالتكليف يقيناً يستدعي فراغها من التكليف يقيناً أيضاً، والمراد منها أنه إذا علِمَ المكلَّف بالتكليف، فإنَّ ذمَّته تبقىٰ مشغولة بذلك التكليف حتىٰ يُفرغها ويبرئها منه بأمتثاله.

للمزيد راجع: «الموسوعة الفقهيَّة الميسَّرة» لـ «الشيخ محمد علي الأنصاري» (ج٣ ص ٤٧٨ وج٦ ص٥٥٥)، و«أصطلاحات الأُصول» لـ «الشيخ علي المشكيني» (ص١٥٧).

المسألة التي ينبغي أن يلتفت إليها الجميع هي أنَّ أُصول المعارف الدينية (المعتقدات) لا يَصِحُّ أن تُؤخذ من أيِّ أحَد، وإنَّ مبدأها والمرجع فيها هما أثنان لا غير، القرآن الكريم والحديث الشريف، وإنما تنشأ الأنحرافات عندما نستقي ونأخذ عن غير هذين المصدرين. فإنَّ أصل هذه القضايا (العقائدية) يجب أن يُؤخَذ من القرآن الكريم، ويُؤخَذُ الفرع من الروايات.

والإمامة هي أهمُّ القضايا، لماذا؟ لأنها المقدِّمة الموصِلَة إلى الله سبحانه وتعالى.

هذه هي خلاصة المطلب ولُبُّ القضية، ولَسْتُم (أيها الحضور) من العوام حتى نتحدَّث بلغتهم ونخاطبهم، إنكم من الخواص الذين ينبغي لهم التقاط الرموز والألتفات إلى الإشارات... وقد قالوا ﷺ:

"بنا عُرِفَ الله، وبنا عُبِدَ الله، ولولانا ما عُبِدَ الله، لولانا ما عُرِفَ الله". (٤)

إنَّ الأرتباط العلمي والعَمَلي للعبد برَبِّه منوطٌ - على نحو الحصر - بطريق الإمامة الكبرى ويَتِمُّ بواسطتها، فالمعرفة يجب أن تكونَ من خلال هذا الطريق، والعبادة كذلك يجب أن تكون من خلال هذا الطريق، وإذا تحقَّق ذلك وتحصَّل، حينها يجب علينا أن ننظر لأستبيان الأمر؟!

---

(٤) قال «أبوعبدالله الصادق» ﷺ: "إنَّ الله واحدٌ أحَدٌ، متوَحِّدٌ بالوحدانيَّة، متفرِّدٌ بأمره، خلَقَ خلقاً ففوَّضَ إليهم أمر دينه، فنحن هُم، يا «ابن أبي يعفور»: نحن حُجَّة الله في عباده، وشهداؤه على خلقه، وأمناؤه على وَحْيه، وخُزَّانُه على علمه، ووَجْهُه الذي يؤتى منه، وعينه في بريَّته، ولسانه الناطق، وبابه الذي يدلُّ عليه، نحن العالمون بأمره، والداعون إلى سبيله، بنا عُرِفَ الله، وبنا عُبِدَ الله، نحن الأدلّاء على الله، ولولانا ما عُبِدَ الله" (بحار الأنوار) (ج ٢٦ ص ٢٦٠ ح ٣٨).

وجاءت الفقرة الأخيرة التي نقلها المحاضر، سماحة «الشيخ» ﷺ في أحاديث أُخرى منها ما رويَ عن «أبي جعفر» ﷺ: "... وجَعَلَنا عينه على عباده، ولسانه الناطق في خلقِه، ويده المبسوطة عليهم بالرأفة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابه الذي يدلُّ عليه، وخُزَّان علمه، وتراجمة وَحْيه، وأعلام دينه... وبنا أثمرَتِ الأشجارُ، وأينَعَتِ الثمارُ، وجرَتِ الأنهارُ، ونزَلَ الغَيْثُ من السماء، ونَبَتَ عُشْبُ الأرض، وبعبادتنا عُبِدَ الله، ولولانا ما عُرِفَ الله" (البحار) (ج٢٥ ص٤ ح ٧).

هناك آيةٌ في القرآن الكريم تُشكِّلُ أساسَ البحث، وسنبَحَثُها بإجمال... قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة)، تدبَّروا في هٰذه الآية، فهناك أربعة مباحث.

الأول: ﴿وَجَعَلْنَا﴾، وهٰذا يعني أنَّ الإمامةَ مجعُولةٌ من قِبَلِ الله تعالىٰ، لا مجعُولةَ "السقيفة" وصنيعتها! إنَّ هداية القرآن هداية عامَّةٌ للجميع، فإذا قصرت القلوب القاسية عن إدراكه، فذاك تقصير أصحاب تلك القلوب لا غيرهم، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾، إنَّ من شأن العلماء أن يستفيدوا من إشارات القرآن لا من عباراته، إنَّ هٰذه الآية الشريفة (جاءت) في مُطلَقِ الإمامة، لا في الإمامة المطلقة!

وصاحبُ "النصف من شعبان" ((إمام العصر ﷺ)) إمامٌ مطلق، لا مُطلَقُ الإمام، والفرق بينهما {.........}[٥]. ولا تزال الجنبة العلميَّة في هٰذه المواضيع غائصة في غاية الإبهام والغموض! لقد نزلت هٰذه الآية في شأن الإمامة، وهي تتحدَّث عن ثُلَّة مُنتَخَبَة من «بني إسرائيل»، وفي هٰذا المقام يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا﴾، وإذا كان مُطلَقُ الإمامة يفتقرُ إلىٰ الجَعْل، فكيف بالإمامة المطلقة الخاتمة؟ إنَّ الإمامةَ مقامٌ ومَنصِبٌ يفتقر من (لحظة) شروعه وبدايته إلىٰ الجَعْلِ الإلهي.

هٰذا أولاً، أما ثانياً: ﴿مِنْهُمْ﴾، ومنهم تأتي للتبعيض، وهٰذا يعني أنَّه ليس كلُّ أحدٍ يَصلَحُ لهٰذا المقام وإنَّما بعضهم، ولذا عبَّر بـ ﴿مِنْهُمْ﴾.

الثالث: ما يوضِّحُ أصل الإمامة.

الرابع: ما يوضِّحُ فرع الإمامة.

ولذا نُلاحظ عمق (وجود ودَوْر) القرآن في سلوك الكُمَّلِ من البشر، أنهم بعد إتمامهم جميع هٰذه العلوم، ينعطفون إلىٰ مطالعة القرآن الكريم والتأمُّلِ فيه، لكن (لا يخفىٰ عليكم أنَّ) التأمُّلَ والمطالعة في القرآن شيءٌ آخر غير هٰذه التلاوات!

---

(٥) عرَضَ انقطاع في الشريط المُسجَّل عند هٰذا الموضع، ولعلَّ الآتي لاحقاً يوضِّح المطلب المبتور.

ما هو أصلُ الإمامة وما هو فَرْعُها؟

إنَّ أصلَ الإمامة طُرِحَ في ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾، وأمَّا فرعُ الإمامة، فقد جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾...

هكذا يتبيَّن كم هو مُعجزٌ هذا الكتاب!

الإعجازُ إعجازٌ علميٌّ، والفصاحةُ والبلاغة تأتي في مستوى اللفظ وعلى صعيده، ولكن الإعجاز بالنسبة لأقطاب البشر هو في العمق المعنوي والمفهومي، وإنَّه كيف فَعل ما فعل في (نطاق) آية صغيرة بل في جزء من آية؟!

وهنا مَوْضِعٌ ينبغي أن يَلِجَه عالِمٌ مُحقِّقٌ، ليُبيِّنَ لنا ما هو "الصَّبْر"؟

ثم ما هي "الهداية"؟

ثم يعرِّف ما هو "الأمْر"؟

ثم يكشف ما هي "الهداية بالأمر"؟

﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾، الصبر هو حَبْسُ النفس، ومفهومه مفهومٌ مُشكِّك.(٦)

إنَّ الصَّبْرَ هو أساسُ بلوغ الإنسان مرتبةً يُصبِحُ فيها العالم بأسْرِهِ في قبضته! لو كُنَّا نفهم الروايات جيِّداً، ولو كُنَّا قد خضعنا لتربية صحيحة، لما كُنَّا على هذه الحال...

إنَّ الصَّبْرَ يبدأ من قلَّة الكلام والتحدُّث...

أنظروا في الروايات التي تحثُّ على قلَّة الكلام وعلى الصَّبْر، (وأنا أنصحُكُم في سبيل) حفظ أنفسكم، أن تقلِّلُوا من الكلام، (وأن تقتصِروا) على قدر الحاجة ومواضع الضرورة، ومن هنا يبدأ دور الصَّبْر وتأثيره...

---

(٦) المفهوم المشكِّك يقابل المتواطئ، وَفْقَ التقسيم المنطقي، وهو الكُلِّيُّ الذي يكون هناك تفاوتٌ بين أفراده في صِدْق المفهوم عليها، ويعود السبب في ذلك إلى الاشتداد أو الكثرة أو التقدُّم أو الأولوية، كالعدَدِ والوُجُود والبياض. والمقصود هنا أنَّ مفهوم الصبر مفهومٌ مُشكِّكٌ يختلف صِدْقه على مصاديقه وأفراده، لتفاوتها في الاشتداد أوالكثرة... أو غير ذلك.

إنَّ العامل الأول في بلوغ كبار المرتاضين المراتب (الدرجات والمقامات) العالية (في السير والسلوك)، سواء أكانوا من أعيان العامة أو من عظماء الخاصة [٧]، هو التزامُ الصَّمْتِ (عن الكلام) وتعهُّدُ السكوت...

لكن كيف يبدأ التأثير من هذه النقطة؟

وما هو دَوْرُ الصَّمْت وفعلُه؟

والواقع أنَّ المرحلة الأُولىٰ للصَّبْر تبدأُ بصَبْر العيْن واللِّسان، وهناك سِرٌّ في كَوْن الصَّبْر يبدأ من هاتين الجارحتين؟ لأنَّ مركز انطلاق النَّفْس وباب دخولها في الفضول والشيطنة، هو العين واللِّسان، لذا فمِن هنا يبدأ الصَّبْر...

ولكن إلىٰ أين ينتهي، وأي حَدٍّ يبلغ؟ إلىٰ حدِّ الصَّبْر علىٰ جميع المصائب، والصَّبْر عن جميع الشهوات والمشتهيات، الصَّبْر بإزاء جميع الأُمور المُنَفِّرة...

وما هذه كلُّها جميعاً إلّا (خطوة أُولىٰ) من ألف باء الصَّبْر وأَوَّلِيّاته!

ويتدرَّج الأمر ليصل إلىٰ الصَّبْرِ عن الدنيا كلِّها، فيُنزِّهُ الروح عن الدنيا كلِّها، ويحبس النَّفْسَ عن عالم المادَّة كلِّه، ومع ذلك فإنَّ (المرء) لا يكون بذلك قد تأدَّبَ (تمام الأدب)، ولا يكون قد كَمُلَ (بلغ الكمال) بعدُ! مع كلِّ ما قامَ به من الصَّبْرِ وحبْسِ النَّفْسِ والإعراض عن المال والرئاسة (الإمرة والسلطة) وجميع اللذات... فإنه لا يبلغ حقيقة الإنسانية بصِرْفِ ذلك؟!

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾...

ما هو ذاك الصَّبْرُ المشار إليه في الآية؟

الواقع أنَّه مرحلة أعلىٰ من الصَّبْر، ففيها الصَّبْر حتىٰ عن "عالم البرزخ"، وهنا يَعْسُرُ الأمر ويَصْعُب! إذ يتطلَّب حَبْسَ النفسِ عن جميع الصُّوَر الخيالية، وهذا في حدِّ ذاته لما يُحيِّر العقول! هنالك ينعدم "عالم البرزخ" ويفنىٰ في هذا الإنسان...

---

(٧) العامَّة والخاصَّة هنا بمعنىٰ السُّنَّة والشيعة.

بعد أن تفنى الدنيا في هـذا الإنسـان، فإنَّ "البرزخ" يفنى فيه أيضاً، بل فيها (في الآية) مرحلة ثالثة في الصَّبْر أيضاً، وهي الصَّبْرُ عن جميع شؤون "عالم الآخرة"، حيث تفنى وتضمحل "الآخرة" (أيضاً) في وجوده!

يَطْوي بِساطَ الروح عن عالم الدنيا، ويَطويه عن عالم البرزخ، (بل) وعن العقبى أيضاً... (لأنه) ما دام لم يُطْوَ (بساط الحبِّ والشهوة) عن الجميع، فإنه لن يُنشَر ويُبْسَط لله سبحانه وتعالى، لأن الله تعالى لا يقبل أن يُشْرَكَ به، والشِرْكُ خفيٌّ، "الشِرْكُ في الناس أخفى من دَبيبِ النَمْل"...(٨)

إنَّ هذه الكلمات لم تُطلَق لأمثالنا، إنَّ مخاطبيها هم صفوة البشر، ممن بلَغ هذه المراتب، فلا ينبغي أن تكون الآخرة شريكةً لله تعالى في سَعْيِ الإنسان، لا ينبغي أن تكون الدنيا شريكة، ولا ينبغي (كذلك) أن تكون الجنَّة شريكة، فهذه كلُّها أسبابٌ وعوامِلَ للشِرْك، وعندما ترتفع جميعها وتزول، تصبح العبودية مطلقةً لله سبحانه وتعالى. وعندما يصبح المرءُ عبداً مُطلَقاً (لله سبحانه وتعالى)، يَـتَّضِحُ عندها معنى العبارة التي جاءت في "الزيارة الجامعة":

"وذَلَّ كُلُّ شيءٍ لكُم".

كُلُّ ما يَصْدُق عليه أنه "شيءٌ"، فقد ذَلَّ لساحتكم...

«جبرائيل» شيءٌ، فهو ذليل لكم، و«ميكائيل» كذلك، العرش شيءٌ فهو ذليلٌ أمامَ ساحَتِكُم، إنه ذليلٌ قِبالَ «إمام العصر» ﷺ، الكُرسيُّ واللَّوْحُ والقَلَمُ هي أشياء، فهي خاضعة وذليلة لدى «الحُجَّة بن الحسن» ﷺ، هناك يذِلُّ كلُّ شيءٍ ويخضع... لماذا؟

---

(٨) انظر (بحار الأنوار) لـ «المجلسي» (ج٧٢ ص٢٩٨ ح٣١). ولا يخفى أنَّ مقصود «الشيخ» دام ظله من "الشرك" هنا، هو ما يقابل "عبادة الأحرار"، المشار إليها في حديث «أميرالمؤمنين» ﷺ: "إنَّ قوماً عبدوا الله تعالى رغبة فتلك عبادة التجَّار، وإنَّ قوماً عبدوا الله تعالى رهْبة فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قوماً عبدوا الله تعالى شكراً، فتلك عبادة الأحرار"... إنه توحيد الكُمَّل، الذي يرى طلَبَ الجنة والسعي لها ضرباً من ضروب الشرك! وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

لأنه (أي «إمام العصر» ﷺ) صارَ عبداً، وعندما صارَ عبداً، صارَ ربّاً، فـ "العُبوديَّة جَوْهَرةٌ كُنْهُهَا الرُّبُوبيَّة "[٩]، فمَن مَلَكَ هذه الجوهرة، وتحقَّقَتْ رُبُوبيَّته - بالله تعالى، لا بالاستقلال - بالنسبة للأشياء (الأُخرىٰ وتجاهها)... من هنا تبدأ الإمامة، ليكون الصَّبْرُ هو جذرها، وهكذا يتَّضح أنَّ الصَّبْرُ مفهومٌ مُشكِّك، من أين يبدأ وإلىٰ أين ينتهي؟ إلىٰ أن يبلغ مرتبة الصَّبْر في جنب الله "صَبَرَ نفسه في جنب الله "[١٠]، ليصبح إماماً مُطلَقاً... فعندما يبلغ تلك المنزلة يتأهَّلُ لهذا المقام.

إنَّ «إمامَ العصر» ﷺ هو في ذلك المقام...

والأفضل لنا أن نسكت (نُمسِكَ) عن ذلك، ونكتفي بذكر اسمه الشريف...

وقد ذكروا له - صلوات الله عليه - ما يتجاوز المئة وثمانين اسماً، ولا أتذكَّرُ الآن علىٰ وجه الدقَّة مقدار ما يزيد علىٰ الثمانين (بعد المئة)[١١]، لكن هناك ما يزيد علىٰ مئة وثمانين عنواناً، وفي هذه الرياض تنطوي شؤون المعرفة، ومنها:

«خليفةُ الله»، و«حُجَّة الله»، و«ربّانيُّ آيات الله»، و«دليلُ إرادة الله»، و«صاحبُ الزمان»، و«مَدارُ الدهر»، و«نورُ الله المتألِّق»، و«ضياءُ الله المشرق»، و«الكلمةُ التّامَّة»، و«الرَّحمة التي وَسِعَتْ كلَّ شيء»...

أما نحن: فكيف، وفي أيِّ مُستوىً عرَفناه؟!...

هذا هو أعظم الذنوب!

---

(٩) انظر (مصباح الشريعة) المنسوب لمولانا «الصادق» ﷺ. ونص الحديث: "العبوديَّة جوهرة كُنهُها الربوبيَّة، فما فُقِد من العبوديَّة وُجِدَ في الربوبيَّة، وما خَفيَ عن الربوبية أُصيب في العبوديَّة" (طبعة الأعلمي/ بيروت ص٧)... وكُنْهُ الشيء حقيقته.

(١٠) وَرَدَ في زيارة «أميرالمؤمنين» ﷺ: "أشهد أنَّك قد بلَّغْتَ ونصَحْتَ وصبَرْتَ في جنب الله..." انظر (البحار) (ج١٠٠ ص٣٢٥ ح٢٧).

(١١) ذكر «المحدِّثُ النوري» ﷺ في الباب الثاني من كتابه (النجم الثاقب) أنَّ عدد أسماء وألقاب «الإمام المهدي» ﷺ يبلغ مئة وأثنين وثمانين اسماً.

أن نقضيَ عُمْراً مُقْتاتين على مائدتك، ونَحْيَا بأسمك، ونحظى بالمنزلة (والاحترام) لدى الناس بأسمك، ثم إذا ما كشفنا الآن عن صحيفتنا ونظرنا فيها، لم نَرَ أثراً لمعرفة شَخْصِكَ وقَدْرِك، ولم نوَفِّكَ حقَّك، بل عمدنا إلى تنزيل مقامِكَ وبَخْسِكَ حقَّكَ، وإيذائكَ وظُلْمِك، فلا ندري كيف سيُحاسِبُنا الله غداً، وبِمَ سيُجازينا؟!

يا فاعل "ما به الوجود"،(١٢) ويا مَن أينما كان "ما منه الوجود"(١٣) كنت أنتَ أيضاً هناك، فلا يخلو مكان ـ بحكم البرهان ـ من "فاعل ما منه الوجود"، ولا يخلو مكان منك أنتَ أيضاً، لأن أفعاله (أي الله) تعالى، وإن كانت أفعاله، ولكنها بواسطتك (أنت)، فمِنهُ تعالى كُلُّ شيء، لأنَّ كُلَّ شيءٍ منه لا إله إلّا الله، ومِنكَ (أنت) كُلُّ شيءٍ لأنَّ كُلَّ شيءٍ يكون بواسطتك...

نحن مُوَحِّدون، لا نعرفُ شيئاً مِنكَ (على نحو الاستقلالية، وفي عرض قدرة ومشيئة الله)، بل نعرف أنَّ كُلَّ شيءٍ من الله تعالى، ولكن في عين الحال التي نرى أنَّ كُلَّ شيء منه هو، ونرى أنَّ أنفاسَ صدورنا منه (سبحانه)، ولكن بِكَ أنت. النظرة والرؤية (الباصرة والبصيرة) التي نتمتَّعُ بها، والخطوة (القوّة) التي نخطوها، كلُّها منه (سبحانه وتعالى) ولكنها بِكَ أنت... يا أيتها الرحمة التي وسعت كلَّ شيء.

والأفضل أن نُوكلَ التعريف (تعريف «الحُجَّة» ﷺ) لغيرنا، ونلتمس عُذْرَ التقصير، فقد كنّا اليوم (في هذه المحاضرة) بصدد كشف جهلنا وبيان قصورنا، والوقوف على مدى تلوُّثنا! فلَعلَّنا نحظى بنظرة منكَ إن قدمنا نحوَكَ بهذه الصورة (بهذا الشكل والكيفية من الإقرار والخضوع)...

---

(١٢) "ما به الوجود": يعني واسطة الفيوضات الإلهية، وهو «الإمام المعصوم»، وهو الآن «صاحب العصر والزمان» ﷺ، وفي الزيارة الجامعة الكبيرة: "بكُم فتح الله وبكُم يختم وبكُم يُنزِّلُ الغيث وبكُم يُمسِكُ السماء أن تقعَ على الأرض إلّا بإذنه..." انظر (بحار الأنوار) (ج١٠٢ ص١٢٩ ح٤). وهناك كثير من النصوص الأخرى التي تقرِّرُ هذا المعنى.

(١٣) "ما منه الوجود": المقصود هو الله سبحانه وتعالى.

ولأذكر لكم كلمةً سمعتها من أحَدِ العظماء الذين (أثق) أعتمدُ على قوله، وهي أنَّ هناك رياضة (روحيَّة) خاصَّة تمكِّن الذين يمارسونها من رؤية ومشاهدة واقعة يوم "عاشوراء"! وهذا أمرٌ تامٌّ ومُمضىً (صحيح ومؤكد) وَفْقاً للقواعد العِلميَّة، من الممكن رؤية الواقعة كاملة.

ولكن ما لا يمكن رؤيته (منها)، هو مقاطع زمنيَّة (بعض مشاهد الأحداث والوقائع التي جرَت في ذلك اليوم)، فإنَّ رؤية صوَر تلك الفترات الزمنية، أمرٌ لا يمكن تحقُّقه لأحد بتاتاً، وأمَّا ما سوى ذلك فممكن.

لأنَّ كلَّ هذه الأمور محفوظةٌ ومخزونةٌ في "الجفر" لم تتلف (لم تذهب ولم تنمَح)... كلُّها موجودةٌ، ويمكن للروح ـ بواسطة تلك الرياضة الخاصَّة ـ أن تَتَّصِلَ بها (تصِلَ إليها وتبلغها) وتَرَاها، ولكن هناك فترة زمنية مستورة ومحجوبة، إنها ثلاث ساعات، وهي الفترة التي أستغرقها نزولُ «سيِّد الشهداء» ﷺ من على (ظهر) جواده، إلى حين "قُضِيَ الأمْرُ"! حين صَعَدَ «رسولُ الله» ﷺ بِدَمِه إلى العرش، وضعه على أُسطوانة العرش، فما زالَ (العرش) يهتزُّ ويتزلزل[١٤] حتى يومنا هذا، وسيبقى كذلك حتى قيام الساعة!

هذه الساعات الثلاث غير قابلة للرؤية إطلاقاً...

ومن هنا ينبغي أن ننظُرَ إلى الصَّبْر (ونتعرَّف على حقيقته)!

إنه الصَّبْرُ الذي يستتبع الإمامَةَ المُطلَقة.

إنَّ «إمامَ الزمان» ﷺ يَشْهَدُ هذا المنظر في كُلِّ صبيحة وغروب!

هذه هي حياة «وليِّ العَصْر»! وهذا هو امتحانه.

---

(١٤) جاء في إحدى زيارات «سيِّدِ الشُّهداء» ﷺ:

"... لقد صُرِعَ بمصرعك الإسلام، وتعطَّلت الحدود والأحكام، وأظلمت الأيام، وأنكسفت الشمس وأظلَمَ القمر، وأحتُبِسَ الغيث والمطر، وأهتزَّ العرش والسماء، وأقشعرَّتِ الأرض والبطحاء، وشمل البلاء وأختلفت الأهواء، وفُجع بك الرسول، وأُزعجت البتول، وطاشت العقول..." انظر (البحار) (ج١٠١ ص٢٣٣ ح٣٨).

إنَّ قميصَ جَدِّه «سيِّدُ الشُّهداء» ﷺ مُعَلَّقٌ في صدر الدار التي يقطنها ﷺ بحيث يشهد فيها كلَّ يوْم منظر القميص! وهذا القميص سيبقى على تلك الحال حتى يرى تجدُّدَ الدماء عليه، ونبوعها منه... فيعلم أنَّ ساعةَ ظهوره قد حانت!

إنه هكـذا صَبْر، صَبْرٌ تلا (جاءَ على إثْرِ) شهود جميع الظُّلامات والفجائع، فيعتصر القلبُ ويكتوي، مع تلك العاطفة الجيَّاشة، والقلبِ المُفعَم بالرِّقَةِ والحنان... ينبغي لنا التدبُّر في هذه الأُمور لنعْلَمَ وَفْقَ أيِّ الموازين والحسابات أُعطيَت (حظَوا بـ) تلك المقامات والمناصب؟

لا شكَّ أنَّ «إمامَ الزمان» ﷺ جوَّالٌ في زيارة «أولياءِ الله»، ولا حجاب أمامه، فمَن هو "فاعل ما به الوجود" لا يكون محجوباً، فتراه على قبر «أميرالمؤمنين» ﷺ يرى ذلك المنظر، وفي «البقيع» (يشهد) ذلك المنظر، وفي «كربلاء» كذلك، وكلُّها تتَجسَّدُ أمَامَه لِيَراها، هكذا تقضي هذه الروح القُدْسيَّة حياتها، ومن جهة أُخرى نُلاحظ أنَّ «أميرالمؤمنين» ﷺ يقول: "والله لو أُعطيتُ الأقاليمَ السَّبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصيَ اللهَ في نمْلةٍ أسلبُها جِلْبَ شعيرة ما فعلته"[١٥]، وهو الذي تمنى الموت حين بلَغه أنَّ امرأةً مُعاهَدَة (يهوديَّة) انْتُزِعَ عنها حِجْلُها، فقال: "فلو أنَّ امرأً مُسلِماً ماتَ من بعد هذا أسفاً ما كان به مَلُوماً، بل كان به عندي جديراً"...[١٦]

فأيُّ صَبْرٍ يصبر «إمام الزمان»؟[١٧]

---

(١٥) الخطبة ٢٢٤ من (نهج البلاغة).

(١٦) الخطبة ٢٧ من (نهج البلاغة).

(١٧) إنَّ «سماحة الشيخ» رحمه الله هنا بصدد بيان شدَّة حساسيَّة هذه الأرواح، ومدى لطافتها ومقدار تأثُّرها، وأنه يبلغ حدّاً يتمنى فيه («الإمام» ﷺ) الموت، ويعلن "فجعته" وعدم تحمُّله، بإزاء تلك الوقائع الصغيرة - وفق إدراك وتأثُّر البشر العادين - مع أنَّها صغيرةٌ، بالقياس إلى عظم الفجائع والمآسي والمظالم التي ألمَّت ونزلت بـ«أهل البيت» ﷺ... فكيف سيكون تأثُّرهم بالوقائع العظيمة حقاً؟ وعلى ذلك فقِسْ صبرهم ﷺ!

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾...

إلى أين يبلغ به هذا الصَّبر المطلق؟

يبلغ به ويوصله إلى "الإمامة المطلقة"، فعندما يكون الصَّبْرُ صَبْراً مُطلقاً، تكون الإمامة إمامةً مُطلقة، والآن لنتساءل:

كم هو التفاوت بين مُطلق الإمامة، والإمامة المطلقة؟

إنَّ الآية التي تلوتها (على مسامعكم)، نزلت في إمامة المُنتَخَبينَ من «بني إسرائيل»، وهي "مُطلق الإمامة" وليست "الإمامة المطلقة"... ولكن الإمام المطلق، بما أنه يحمل في ذاته تلك الشرائط، وتتوفَّر فيه هذه الأرضية، فمن خلال السير التشكيكي يرتقي ويسمو ـ كما هو مقتضى نظام ارتباط العلَّة والمعلول ـ إلى أن يبلغ هكذا مقامات، ويعتريه مثل هذا التحوُّل.

والواقع أنَّ النسبةَ بين مُطلق الإمامة والإمامة المطلقة، تكون كالنسبة بين مُطلق الوجود والوجود المطلق، وكالنسبة بين مُطلق العلم والعلم المطلق، ومُطلق القدرة والقدرة المطلقة... وإذا فهمتم هذه الحقائق جيِّداً، يتَّضحُ لكم المعنى المُراد من التعبير الذي جاء في "زيارة آل ياسين": "العَلَمُ المنصوبُ والعِلْمُ المصبوب"[18]، عندها لا يمكن أن يكون لكمالات «إمام العصر» عليه السلام حدٌّ أو نهاية...

فالعِلْمُ مصبوبٌ (هنا) صبّاً، وهكذا يظهر أنه (عليه السلام) العِلْمُ المُطلقُ، لا مُطلق العِلْم، والرحمةُ المُطلقةُ لا مُطلق الرحمة، والروايات كلُّها قائمة على البرهان، وإنَّ (كما يظهر أنَّ) "التي وَسِعَت كُلَّ شيء" هي الرحمةُ المطلقة لا مُطلق الرحمة، فمُطلقُ الرحمة لا يمكنها أن تَسَعَ كُلَّ شيء. والنتيجة هي:

أنَّ «إمامَ العصْر» عليه السلام هو صاحبُ مقام الإمامة المطلَقة، أي العلم المطلَق، أي القدرة المطلقة، أي الإرادة المطلقة، أي الكلمة التامَّة، أي الرحمة الواسعة...

---

(١٨) انظر (البحار) (ج٥٣ ص١٧١ ح٥).

هناكَ حديثٌ عن «الإمام الرضا» ﷺ لا بُدَّ لي من نقْلِه، لأنني أخشىٰ أن لا أكون قد أوفيتُ البحثَ حقَّه إن أنا أنهيتُه هنا من دون أن أنقلَ هذا الحديث... فالأفضل أن أُوكلَ التعريف إليه من خلال نقل هذا الحديث.

إنَّ «أئمتنا» ﷺ كانوا ينتخبون رجالاً معينين ليُفْضُوا إليهم بأحاديث مُعيَّنة، وكانوا يدَّخرونَ خاصَّة المواضيع ويوفِّرونها لمن هو أهلٌ لها من أصحابهم (ولم تكن هذه الاختيارات مصادفات أو عشوائية)... ومن هؤلاء «الحسن بن محبوب السرَّاد» فهو أحد "الأركان الأربعة"[١٩]، هذه إحدىٰ رتَبه، وهو ممن أجمَعَتْ العصابة[٢٠] علىٰ تصحيح ما يصِحُّ عنه، لقد أفضىٰ «الإمام» ﷺ حديثه إلىٰ هكذا (مثل هذا الـ) رجل، وسنقرأ نصَّ الحديث ونترك تحقيقه لمقام آخر، يقول «الحسن بن محبوب»:

قال لي: "لا بُدَّ من فتنة صمَّاءَ صَيْلَم، يسقُطُ فيها كلُّ بطانة ووليجة"[٢١]، لا محيصَ عن هذه الفتنة، وأيُّ فتنة هي؟

---

(١٩) يُراد بهم أربعة من أعيان الطائفة من الرواة، ولم يُشِر إليهم أساساً إلّا «الشيخ الطوسي» ﷺ، لكنه ذكَر أكثر من أربعة، ويبدو منه الأطمئنان بكَوْن بعضهم منهم، والترديد في بعض آخر، ومَن ذكرهم كما يلي:

١ ـ «جندب بن جنادة» (رجال الشيخ) (رقم٤٩٦).

٢ ـ «حذيفة بن اليمان العبسي» (رجال الشيخ) (رقم٥١١)

٣ ـ «سلمان الفارسي» (رجال الشيخ) (رقم٥٨٦)

٤ ـ «المقداد بن الأسود الكندي» (رجال الشيخ) (رقم٧٩٧)

٥ ـ «الحسن بن محبوب السرَّاد» (فهرست الشيخ) (ص٤٦).

ثم إنَّ «ابن داود» ﷺ أضاف شخصاً سادساً، هو «أبوجعفر الأحول» (رجال ابن داوود) (ص٣٩٤)، ولا يُعرَف مأخذه.

(٢٠) يُراد بهم ثمانية عشر راوٍ اتَّفقت الطائفة علىٰ وثاقتهم وجلالتهم، كما ذكر ذلك «الكشّي» ﷺ في (رجاله) (رقم ٤٣١، ٧٠٥، ١٠٥٠) ومنهم «الحسن بن محبوب».

(٢١) (بحار الأنوار) لـ «العلّامة المجلسي» (ج٥١ ص١٥٢ح٢).

"صمّاءَ صَيْلَم"، إنَّ «الإمام» لا يُبالغُ في الحديث، ولا يذكر إلّا الواقع، وعندما نُراجعُ اللغة نجد أن "صمّاءَ صَيْلَم" هو تعبير عن أقسى درجات الشدَّة وغايتها، وهي فتنة سَيَسْقُطُ فيها حتى أصحابُ الأسرار وحملتها! أمَّا نحن، فليكن الله في عوننا!

"يسقُطُ فيها كلُّ بطانة"، البطانة هم أصحاب الأسرار، إنها فتنة يسقط فيها حملةُ الأسرار! و "وليجة"، ويهلك فيها الخواص! "وذلك عند فقدان الشيعة الثالثَ من وُلْدي، يبكي عليه أهلُ السماء وأهلُ الأرض، وكُلُّ حريٍّ وحرّان، وكُلُّ حزين لهفان"...

إنَّ ما أتضحَ حتى هٰذا المقطع الذي نقلناه من النَّصِّ، يتعلَّقُ بنا نحن التُّعَساء!

أمَّا ما سَيَلي (التالي) فإنه يتعلَّقُ به «هو» ﷺ، "ثم قال"، ومَن هوَ القائل هنا؟ «عليُّ بنُ موسى الرضا» ﷺ، شرطُ كلمة التوحيد[٢٢]، ومَن المُخاطَبُ؟ «الحسن السرّاد»، الفقيه المنعقد عليه الإجماع:

"بأبي وأُمّي سَمِيُّ جدّي وشبيهي، وشبيهُ موسىٰ بن عمران ﷺ، عليه جُيُوبُ النور تتوَقَّدُ بشُعاعِ ضياءِ القُدسِ".

ها هنا يَكْبُو العقل البشريُّ عن صهوة جواده!

يقول «ثامنُ الحُجَج» ﷺ: "عليه جُيُوبُ"، أي خِيطَ لـ«الحُجَّةِ بن الحسن» ﷺ وخُلِعَ عليه قَباءٌ مُتوقِّد، وأبحثوا عن "التوقُّد" في آية النور: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ (النور)، إنَّ ثوبه ﷺ مُتوقِّدٌ من شعاع ضياء القدس، فإلى أيِّ مُستوىً بَلَغَ أتِّصالُه وأرتباطه الروحي بنور أنوار الوجود، الذي هو ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتىٰ صارت تلكَ الروح نورانيَّةً ومُتَشَعْشِعَةً إلى هٰذا الحدِّ؟ بحيث ينبَعِثُ (يترشَّحُ) شُعَاعُ النُّورِ من بدَنه الشريف، ويتخلَّلُ ثيابَهُ وينفذُ في أكمامِهِ ويصبغ ملابسَه، فَيَسْطَعَ ويشُعَّ على العالم كلِّه؟!

---

(٢٢) إشارة إلى حديث "سلسلة الذهب" المعروف، انظر (بحار الأنوار) (ج٤٩ ص١٢٣ ح٤).

مثل هذا الشخص يكون " مدارُ الدَّهر " و " ناموسُ العَصْر " ...

إنَّ السبيل الوحيد إليه، والطريق للارتباط به منحَصِرٌ في كلمتين والالتزام بشرطين. إذا أردتم لأنفسكم النجاة وأن تشملكم العناية واللطف، وأن تأخذوا بيد غيركم في طريق الخلاص في هذا العالم المليء بالصعاب، فلا بُدَّ من العمل بهاتين الكلمتين والالتزام بالشرطين: الأولى هي التقوى، فهو («الإمام» عليه السلام) " كتاب الله الناطق " ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ (البقرة)، والتقوى في كلِّ شخص يجب أن تكون بِحَسَبِه وشأنه، والثانية هي: الارتباط بساحة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام...

ومما وصلتُ (أنا) إليه، وستصِلون إليه أنتم أيضاً (إن شاء الله)، أنَّ ما يَهُمُّ مولانا «إمام الزمان» عليه السلام هو أمران:

الأول: البدن المتألِّم (المتوجِّع) لأُمِّه «فاطمة الزهراء» عليها السلام، فإنَّ هذه الغُصَّة لَتَكويه وتُذيبُ فؤاده ليلاً ونهاراً! إذ غُصِبَ حقُّها جهراً في رابعة النهار، ودُفنت ليلاً وسِرّاً!... إسعوا لئلّا تُنسى ظلامة «فاطمة الزهراء» عليها السلام، هذا طريق لإلفات نظر «إمام الزمان» عليه السلام إلينا.

والثاني: إحياء (ذكرى) " واقعة عاشوراء "، وعظَمة «سيِّد الشُّهداء» عليه السلام.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

❁ ❁ ❁



المحاضرة الرابعة

التاريخ: ١٤/شعبان/١٤١٥هـ
الموافق ١٦/١/١٩٩٤م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: ميلاد الحجة عليه السلام



ورد في الدعاء بمناسبة هذه الليلة تعبير: "جَلَّ مولدُهُ"، إنها عبارة عجيبة: "جَلَّ مولدُهُ" [(١)] ومن جلالَة المولد تُعْرَفُ وتُستظْهَر جَلالة المولود.

وهناك حديثٌ في جلالَة المولد الشريف يَكشفُ عن عظمته، ومنه نصِل إلى عظمة وجلالة المولود عليه السلام...

يقول «الإمام السادس» («جعفر الصادق» عليه السلام):

"إنَّ الليلة التي يولد فيها القائم عليه السلام لا يولد فيها مولودٌ إلّا كانَ مُؤمناً، وإن وُلِدَ في أرض الشرك نقلَهُ اللهُ إلى الإيمان ببركة الإمام عليه السلام". [(٢)]

(١) جاءت في الدعاء الذي ذكره «الشيخ الطوسي» قدس سره في أعمال ليلة النصف من شعبان. انظر (مصباح المتهجِّد) (ص٨٤٢ طبع مؤسسة فقه الشيعة ـ بيروت).
(٢) انظر (بحار الأنوار) لـ «العلّامة المجلسي» (ج٥١ ص٢٨).

وهذه قضيَّةٌ تترك المرءَ في حيرة وتُورثه الذهول!

و(لاحظوا أنَّ «الإمام») قد أتمَّ حديثه في ذيل الرواية بقوله:

"وإن وُلِدَ في أرض الشرك نقلَهُ اللهُ إلى الإيمان ببركة الإمام ﷺ".

ما هي القضيَّة هنا؟

إنها فوق مستوى فهمنا، ونحنُ قاصرون عن إدراكها...

ولكن ما يمكن أن يُقال في هذا المقام هو: إنَّ تفقُّه حديث أهل العصمة يتطلَّبُ ذوقاً خاصّاً، وهو غير المتعارف المعهود، إنه ذوقٌ إفاضِيٌّ [٣] لا تحصيلي.

إنَّ «محمد بن عبدالله بن جعفر الحميري» [٤] (رجلٌ) لمعروفٌ، ومقامُهُ مشهور، وله أسئلة (مراسلات ومكاتبات مع «الحُجَّة» ﷺ) تعرَّضَ لها «النجاشي» [٥] كما تعرَّضَ لها «الشيخ» [٦]، وقد جاءت الرواية الآتي نَقْلُها في جواب إحدى تلك المسائل، والمهم هنا بالنسبة إليكم الألتفات إلى كيفية تذوُّقِ الحديث وكَشْفِ لَطائفِهِ ولَمْسِ رقائقه.

والرواية هي: أنه خرَجَ من الناحية المقدَّسة إلى «محمد بن عبدالله الحميري» - بعد الجواب عن المسائل التي سألها -: "بسم الله الرحمن الرحيم، لا لأمْرِهِ تَعْقِلون، ولا من أوليائه تقبلون" [٧]، ومن هنا كانت البداية، وهذا أوَّل البحث...

---

(٣) يفيضه الله على العبد ويمنحه إياه، وهو غير التحصيلي الكسبي، ولعلَّه ضربٌ من الإلهام، وفي الحديث عن «الصادق» ﷺ:

"إنَّا لا نعُدُّ الفقيه منهم فقيهاً حتى يكون مُحَدَّثاً، فقيل له: أوَيكون المؤمن مُحَدَّثاً؟ قال: يكون مُفَهَّماً، والمُفَهَّمُ مُحَدَّثٌ" (البحار) (ج٢ ص٨٢ ح١).

(٤) من أعيان الطائفة المُحِقَّة وأجلَّاء الرُّواة والمحدِّثين، وقد ترجم له أعاظم الطائفة، ومنهم الشيخ «النجاشي» ﷺ في (فهرسته) (ص٣٥٤ و٣٥٥، رقم ٩٤٩)، والشيخ «الطوسي» قدس سره في (فهرسته) أيضاً (ص ١٥٦، رقم ٦٣٩).

(٥) (فهرست النجاشي) (ص٣٥٤ و٣٥٥، رقم ٩٤٩).

(٦) ينصرف «الشيخ» في إطلاق الفقهاء إلى شيخ الطائفة «الطوسي» قدس سره.

(٧) انظر (بحار الأنوار) لـ «العلَّامة المجلسي» (ج١٠٢ ص٨١ ح١).

إنَّ مجيء هذه العبارة الزاخرة بالمعاني في صدر ذلك الكتاب يعني كثيراً، تُرىٰ إلىٰ أيِّ شيء تُشير هذه الجملة؟ إنَّ ما في هذا الحديث يعود إلىٰ نقطة أساسيَّة سنحاول توضيحها بقدر الميسور علىٰ نحو الإشارة...

لقد اُفتتح «الإمامُ» ﷺ الزيارة (المعروفة بزيارة "آل ياسين") بهذه الجملة:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لا لأمْرِهِ تَعْقِلون، ولا من أوليائه تقبلون"...

إنها بُستانٌ، إنها روضة، وهذه العبارة تضع في أيدينا مفتاحَها، إنها بيان (وعرض لفحوىٰ) إحدىٰ الآيات القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝﴾ (ق)[8]... بهذا الذوق ينبغي التعامل لِفهم كلمات «أهل بيت العصمة» ﷺ، فكما إنَّ الآية الشريفة تشرع الأبواب أمامَ البشر لبلوغ المقامات وتحصيل المراتب، كذلك فإنَّ «الإمامَ» ﷺ يطرح في عبارته نَفْسَ مفهوم الآية، فهي تُشير إلىٰ أمرين يُشكِّلُ كلٌّ منهما السبيلَ للوصول إلىٰ «الإمام»: فإمَّا بلوغ مرتبة تعقُّل الأوامر الإلهية، وهيهات هيهات أن يبلغ أحدٌ مقامَ "لأمره تعقِلون"، فإنه "جَلَّ جنابُه" عن أن يُدْرَكَ! (أو) وحينها يصل الدور للطريق الثانية وهي: "من أوليائه تقبلون"...

إذن فقد حَسَمَ الأمر، وفَتَحَ الطريق، وبعد ذلك قال ﷺ:

"إذا أردتم التوجُّهَ بنا إلىٰ الله تعالىٰ وإلينا"... إنها قصَّةٌ تورِثُ التقلُّبَ في الحيرة والعَجَب[9]! فهلَّا تدبَّرتُم في هذه الجملة، وعمق المقصود بها؟

---

(٨) رَبطَ «العلَّامة المجلسي» هذه الآية، بآية ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝﴾(الكهف) وقصَّة «موسىٰ» و«الخضر» ﷺ، وذكَرَها في مقام ضرورة التسليم لـ «الأئمة» ﷺ، وفَضْلِ المُسَلِّمين. انظر (بحار الأنوار) (ج٢٥ ص٣٦٤).

(٩) أستشهد المحاضر دام ظله بصدر بيت للشاعر العارف «المولوي جلال الدين الرومي» دون العجز، ليضرب مثلاً في شِدَّة الحيرة والعجب هو:

حيرت اندر حيرت آمد زين قصص * بي هشيِّ خاصكان اندر أخص

وبيت الشعر هذا ككُل، يُستَشْهَد به في مقام التعجُّب من أستغراق وفناء أرباب السلوك ←

"إذا أردتم التوجُّهَ بنا إلىٰ الله تعالىٰ وإلينا"...

فنلاحظ أنَّ العبارة ذكرت "بنا" مَرَّةً، و"إلىٰ" مرتين...

وجاءت بـ "الباء" مَرَّةً...

فقد ذكرت "بنا" أولاً ثم تلتها بـ "إلىٰ الله" فأعقبتها بـ "إلينا"... ووَجْهُ الحيرة والعَجَب أنَّ العبارة أستعملت "بنا" في التوجُّهِ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وأستعملتها أيضاً في التوجُّهِ إلىٰ الأئمة ﷺ (إلينا)، فماذا يعني هذا؟

ماذا يعني "التوجُّه بنا (بالأئمة) إلينا (إلىٰ الأئمة)"!؟

لنرىٰ إن كان الوقت يسعفنا لشرح هذه العبارة، وفهم ما قَصَدَه ذلك القدِّيس الأعلىٰ، الذي لا يمكننا القول أنَّ مقامَهُ في "اللَّوح"، ولا أنه "القلَم"، ولا "الكُرسيُّ"، ولا "العرش الأعظم"، إنه مُتفوِّقٌ علىٰ كُلِّ هذه المراحل، وسام عليها...

فما هو مقصد ذلك "الجناب الرفيع" من هذه العبارة؟ "إذا أردتم التوجُّهَ بنا إلىٰ الله تعالىٰ وإلينا فقولوا كما قالَ الله تعالىٰ: سلامٌ علىٰ «آل ياسين»"؟

لقد قالَ اللهُ تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ۝﴾ (غافر)...

ولا يمكن لهذه الكلمة أن تتخلَّفَ عن الوقوع والتَّحَقُّق، إذن فأين الأستجابة لِكُلِّ هذه الأدعية (التي يتلوها ويرفعها الناس)؟ نعم، إن السرَّ يَكْمُنُ في عدم تحقُّقِ وَوُقُوعِ "أدعوني" وقوعاً صادقاً، وإلاّ فلو كانت مُتَحقِّقة، لكانت الأستجابة قطعيَّة ولما أمكَنها أن تتخلَّف بتاتاً.

←

والعرفان، ولـ «السيِّد الخميني» ﷺ ألتفاتة لطيفة حول هذا البيت، ذكرها في كتابه القيِّم (آداب الصلاة) (ص٢٥٥)، رأيت من المناسب ترجمتها ونقلها... يقول:

إذا كانت لفظة "أخص" بالصاد، فلا محل وموجب لهذا الحدِّ والقدر من الحيرة، إذ إنَّ فناء الناقص في الكامل أمر طبيعيٌّ موافق للسُّنَّة الإلهية، ولكن الحيرة كلَّ الحيرة إذا كانت بالسين، أي "أخس"، كما نعيش نحن جميعاً هذه الغفلة والفناء، وقد أنغمست حواسنا من سمع وبصَرٍ وأنغمرت في الطبيعة، حتىٰ غدونا في غفلة عن صيحات عالم الغيب وجلبته!

أين هي "أدعوني" هذه، وكيف تتحقّق؟

إنَّ الحكمة مبثوثةٌ في الكتاب والسُّنَّة، وعلينا ٱلتقاطها...

فآية ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾، وإن كانت مذكورة في موضع واحد من القرآن الكريم، لكن هناكَ آية أُخرىٰ في القرآن توضِّحُ المقصود بها، وهي: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ۝﴾ (النمل)، فهذه الآية تشرح وتُبيِّن المقصود من "أدعوني"، وتكشف السِرَّ (في عدم الاستجابة) لجميع هذه الأدعية، وهو أنها ليست خالصةً لله سبحانه وتعالىٰ.

إنَّ الدعاء الصادق لا يكون إلّا عند خرق جميع الحُجُب بين الداعي وبين الله تبارك وتعالىٰ، وهذا ما لا يتحقَّق إلّا بالاضطرار، فالاضطرار خارقٌ للحُجُب... وعندما تُخْرَقُ الحُجُب، يكون الدعاء (قد وَقَع) له سبحانه، وعندما يكون هو المدعُوُّ، فإنَّ الاستجابة تكون قطعيَّة.

وإذا وُفِّقَ أحدٌ لتحقيق ما يعيشه الإنسان (ما ينتابه) من "حالة" حين الاضطرار، ولكن بالاختيار، فإنَّ الاستجابة تكون ضرُوريَّةً بمجرَّد الدعاء.

فهناك طريقان لتحقيق موضوع استجابة الدعاء:

إمَّا خرق الحُجُبِ بالاضطرار، أو خرقها بالاختيار، فإذا تحقَّق الموضوع كان انتفاء الحكم ـ وهو الاستجابة ـ عن الموضوع محالاً.

علينا أن نفهم القرآن الكريم، وهكذا علينا أن نتفهَّمَ أحاديثَ حَمَلة القرآن («أئمّة الهُدىٰ» ﷺ)... هكذا هي الحسابات الربَّانيَّة، و«الحُجَّة بن الحسن» ﷺ هو كلمةُ الله التّامة، وٱسْمُهُ الأعظم، والمثلُ الأعلىٰ، إنه المثل الأعلىٰ لله...

وهنا نكتتان عليكم بمعرفتهما...

الأُولىٰ: هي من الضروريَّات والمُسلَّمات، أنَّ كُلّ من تنقطع به السُبلُ ويتيهُ في صحراء قاحلة لا يهتدي فيها إلىٰ طريق، سواء أكان يهودياً أم نصرانياً، أو مُسلماً شيعيّاً أم سنيّاً، لا فرقَ بتاتاً، إذا ما ندَبَ في ذلك الحين وقال:

"يا أبا صالح المهدي أدركني "(١٠)، فإن النتيجة قطعيَّة الحصول... والسِرُّ في ذلك أنَّ الدعاء في تلك الحالة مُتَوَجِّهٌ إلى «الإمام» ﷺ حقيقةً، لأنه نابعٌ عن أضطرار واقعيٍّ يخرق الحُجُب، (أمَّا) في غير تلك الحالة، فإنَّ الندبة (تكون) غير مُتَوَجِّهة إليه ﷺ! والأمر سيَّانٌ بين الله، وبين سبيل الله، "مَن منه الوجود" و"مَن به الوجود"(١١)، والحكم في الحالين واحد، فكما إنَّ التوجُّهَ بالدعاء إلى "مَن منه الوجود" يجب أن يتحقَّق حتى تتحقَّق الأستجابة، كذلك الأمر بالنسبة إلى "مَن به الوجود"، فهو "السبيلُ الأعظم والصِّراطُ الأقوم"(١٢)، فإنَّ التوجُّهَ إليه بالدعاء يجب أن يتحقَّق، لتتحقَّقَ الأستجابة في ذلك الحين بالضرورة.

أمَّا النكتة الثانية فهي: إنَّ الأضطرار قد يكون إلى الجاه والرئاسة، وقد يكون إلى المال، وهناك المضطَرُّ إلى الآخرة، وكلُّ مُضطَرٍّ من هؤلاء إذا تَوَجَّهَ بالدُّعاء إلى الله - في حال أضطراره - فإن الأستجابة له بالنسبة لما أضطُرَّ إليه ستتحقَّق... وهكذا تظهر طبقة ثانية: فهناك من يبلغون الأضْطِرار، ولكن ليس إلى الدنيا، ولا إلى العقبى! بل مُضطرِّين إلى الله، وهؤلاء الذين يبلغون تلك المرتبة، ثم يَدْعُونَ الله، فإنَّهم سيبلغون المقام الذي بلغه «سيِّدُ الشُّهداء» ﷺ وعبَّر عنه لسان دعائه في «عرفات» إذ قال: "ماذا وَجَدَ مَن فَقَدَكَ، وما الذي فَقَدَ مَن وَجَدَكَ". (١٣)

---

(١٠) ذكر «المحدِّث النوري» ﷺ في أسماء «المهدي» ﷺ وألقابه: "الأسم الخامس عشر: ذكر في ذخيرة الألباب أنه يكنى بأبي القاسم وأبي صالح، وإنَّ هذه الكُنية معروفة له عند البدو، فإنَّهم ينادونه بها عند التوسُّلات والأستغاثات به". («النجم الثاقب» (ج١ ص١٧٢ط قم، ترجمة وتحقيق العلَّامة «السيد ياسين الموسوي»)، وذكر أيضاً في الباب السابع من الكتاب (الحكاية التاسعة والستُّون) (ج٢ ص٢٧٢) ما يدل على ذلك، وكذا في الباب التاسع (ج٢ ص٤٢٤).

(١١) انظر رقم ١٢ و١٣ من هوامش الفصل السابق.

(١٢) فقرة من "الزيارة الجامعة الكبيرة" انظر (البحار) (ج١٠٢ ص١٢٧ ح٤، عن (عيون الأخبار)).

(١٣) انظر (بحار الأنوار) (ج ٩٨ ص٢٢٦ ح٣).

إنَّ هٰؤلاء يدركون الله لا غيره، وبإدراكه يحصلون على كُلِّ شيء...

وإذا اُضطُرَّ أحدٌ فتوَجَّهَ إلى "السبيل الأعظم" أي "مَن به الوجود"، للنجاة من صحراءَ تاهَ فيها، وبلوغ المعمورة، فإنه ﷺ سَيُرشِدُه إلى الطريق ويدُلُّه على ما يجب أن يفعله حتى ينجو... إذا اُضطَرَّته تلك الحال فلَجَأ إليه وتوَسَّلَ به، فسينظر ﷺ إليه نظرةً يكون فيها دَواؤهُ وشفاؤه!

ولٰكن هٰذا (وأضرابه) يُعَدُّ بمنزلة توفير رغبات الأطفال وحوائج الصغار! أمَّا مَن بَلَغَ تلك الحالة، وكان اُضطِرارُه إلى نفس «إمام الزَّمان»، فإذا ما دعا (توَجَّهَ بالدُّعاء) لحاجته، وكانت حاجته «الإمام» نفسَه، فإنه سيَحْظَى به!

وإذا حظِيَ به، يكون مصداقاً لـ "ماذا فَقَدَ مَن وَجَدَه"!؟

عندها يكون تعامله مع المُضطر كمعاملة "الإكسير" مع ما يلتقيه!

وللإكسير[١٤] ثلاثة أطوار...

الطور الأول هو الإكسير الأعظم.

والثاني الكبريت الأحمر، وهو الناتج عن تماسّ الإكسير الأعظم بأيِّ شيء (فإنه يُحوِّلُهُ إلى كبريت أحمر)، والطور الثالث هو الذهب الخالص الذي ينتج من تماسّ الكبريت الأحمر بأيِّ شيء (فإنه يُحوِّلُهُ إلى ذهب خالص)!

---

(١٤) يُطلق "الإكسير" عند القدماء على ثلاثة معانٍ:

١ـ في الكيمياء القديمة: يعني لديهم الدواء الذي يُلقى على النُحاس فيحيله ذهباً. وقد جاء في هٰذا المضمون حديثٌ مَرويٌّ في (البحار) (ج٤١ ص٢٧٣)، وجاء في (رسائل إخوان الصفا) تعريف "الإكسير" بأنَّه: "دواءٌ شريف وجَوْهَرٌ لطيف ينقل الأشياء المعدنية من أدْوَنها إلى أعلاها وأكملِها، وقد قيل إنه ينقل الأُسرُب (الرصاص) الذي هو أقلُّ المعادن قيمةً وأخسُّها ثمناً وقدراً إلى أفضل الغايات وأتمِّ النهايات، وهو الذهب الذي هو أشرف المعادن وأكملها وأعظمها".

٢ـ في الطبِّ القديم: وهو دواءٌ قالوا إنَّه يشفي جميع الأمراض، ويطلقون عليه "الدواء العام".

٣ـ في الطبِّ والتاريخ القديم: هو مادَّة قالوا إنها تطيل حياة الإنسان إلى ما لا نهاية، ويسمُّونها "إكسير الحياة".

إنها مراحل ثلاث ومقامات ثلاثة... إذا بَلَغَ الإنسان تلك الحالة (حالة الأضطرار إلى نفس «الحُجَّة» ﷺ) فإنه يتَّصلُ بالإكسير الأعظم، وهذا الاتصال يُحيلُه ويقلبه إلى الكبريت الأحمر، ولا يتَّصِلُ الكبريتُ الأحمرُ بشيءٍ إلّا أحالَه وصَيَّرَهُ ذهباً خالصاً![١٥]... وليس في الوقت مُتَّسَعٌ لشرح هذا الأمر وبيان الطريق؟!

وعلى كُلٍّ، فهو يبدأ من هنا... ثم إنَّ في تلك الجُمَلات أسراراً وخفايا، وإذا أرادَ الإنسانُ أن يقرأَ هذه الزيارة فليكن غَرَضَهُ في ذلك التَّوَجُّهُ بواسطتهم إلى الله تعالى وإليهم، كما نقل ذلك «العلامة المجلسي» قدس سره في كتاب «المزار»[١٦] عنه ﷺ أنه قال: "إذا أردتم التَّوَجُّهَ بنا إلى الله تعالى وإلينا فقولوا"، والعبارة الأُولى التي يجب أن تُقال هي: "سلامٌ على آل ياسين"...

إنَّ للقرآن قلباً، ولقلبه قلبٌ أيضاً، وقَلْبُ القرآن هو «سورة ياسين»، وقَلْبُ «سورة ياسين» ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، إنَّ قلبَ القرآن وقَلْبَ قَلْبِهِ يتلخَّصُ في كلمتين: "سلام"، و"ياسين"...

---

(١٥) أشار «العلّامة المجلسي» في (البحار) (ج٦٧ ص١٥٩) إلى أن الكبريت الأحمر هو إكسيرٌ أيضاً، وقال: "المشهور أنَّ الكبريت الأحمر هو الجوهر الذي يطلبه أصحاب الكيمياء وهو الإكسير".

وقد يكون مراد «سماحة الشيخ» دام ظله هنا هو تشبيه المقامات المعنوية (التي تتحصَّل بالارتباط والاتصال بـ«الإمام» ﷺ) وما تتركه من آثار مادية ومعنوية، بالمواد الكيماوية التي تُحْدِثُ تغيرات في المعادن والعناصر فتحيلها وتجعلها أكثر قيمة وأشرف منزلة وأعزَّ وجوداً...

ولعلَّه أقتبس ذلك من الأحاديث الشريفة التي عبَّرت عن المؤمن وشبَّهته بالكبريت الأحمر، فقد رُوي عن «النبي» ﷺ أنه قال: "... والذي بَعَثَني بالحقِّ بشيراً ونذيراً إنَّ الثابتين على القول به («الإمام المهدي» ﷺ) في زمان غيبته لأعزُّ من الكبريت الأحمر" انظر (البحار) (ج٣٨ ص١٢٦ ح٧٦، عن (كشف اليقين))، وهكذا الحديث المروي عن «الإمام الصادق» ﷺ: "المؤمنة أعزُّ من المؤمن، والمؤمن أعزُّ من الكبريت الأحمر، فمَن رأى منكم الكبريتَ الأحمر؟" انظر (الكافي الشريف) (ج٢ ص٢٤٢ ح١)... وقد يكون الأمر على نحو الحقيقة، لا المجاز أو الكناية.

(١٦) انظر (البحار) (ج١٠٢ ص٨١ ح١).

وقد تقدَّمَ ذِكْرُ الأُولىٰ (أي "سلام") علىٰ الثانية (أي "ياسين") في السورة، وهـذا أيضاً من المواقع التي ينبغي لذوي الذوق في فهم كلمات المعصومين ﷺ الألتفات إليها، ويا للأسف إنَّ ذلك الفَمَ أحْجَمَ عن الحديث وأنقطع عن الكلام، ويا للحسرة إنَّ ذلك الباب قـد سُدَّ وأُوصِد!... قال «أميرُالمؤمنين» ﷺ إنَّ: "الله أكبر" هي أوَّلُ الأذان، و"لا إله إلا الله" هي آخره، ولماذا؟ لأنَّ "الله أكْبَر" تُفتَتَحُ بـ«الله»، و"لا إله إلا الله" تُختَتم بـ«الله»، فالمبدأ هو الله، والـمنتهىٰ هو الله، إذاً فلِترتيب الكلمات ووضعها في مواضعها حسابٌ خاص... يقول ﷺ: "إذا أردتم التَّوَجُّهَ بنا إلىٰ الله تعالىٰ وإلينا فقولوا كما قالَ الله تعـالىٰ: سـلامٌ علىٰ آل يـاسين"، إنَّ في هـذه العبـارة إعجازاً لا يـدركه إلّا أهـلُهُ، وذلك بلحاظ جَمْعِهِ بين سين "سلام"، مع سين "ياسين" في البداية والخاتمة.

ويُذكَر أنَّ لحرف السين ـ من بين جميع الحروف الأبجدية ـ خُصوصيَّة لا يتمتَّعُ بها غيره، وهي تعادُلُ "زُبُره" و"بيِّنَتِه". (١٧)

---

(١٧) الزُّبُر: الحرف الأول من "الأسم الحرفي." (والأسم الحرفي هو الكلمة التي يُتَلَفَّظ بها كلٌّ من الحروف الأبجدية: نحو ألف، باء...)، ويُسمَّىٰ ما خلا الحرف الأول من حروف "الأسم الحرفي" "البيِّنـات"، فعلىٰ سبيل المثال: أول حروف كلمة «محمد» هو الميم، وأول لفظة "الميم" أي "م" تسمَّىٰ "الزُّبُر"، ويُطلَق علىٰ حروفها التالية وهي "ي" و"م" "البيِّنات".

وفي أصطلاح "علم الجفر" يُطلق علىٰ تلفُّظ حروف الزُّبُر والبيِّنات "بسْطُ التلفُّظ" أو "البَسْط الباطني" و"البَسْط الظاهري"... وعلىٰ سبيل المثال إذا تلفَّظنا «محمد» بأسماء حروفه ـ وهي: ميم، حاء، ميم، دال ـ يكون مجموع حروفه الـمُتَحصِّلة: م ي م ح ا م ي م د ا ل.

ومما يناسب المقام: إنَّ لكُلِّ عدد كمالان، شعوريٌّ وظهوريٌّ، والكمال الشعوري للعدد هو حاصل جمع الأعداد التي تحته من الواحد إليه، مع حاصل جمع الأعداد التي تحت العـدد إلىٰ الواحد، أما الكمال الظهوري فهو الأول فقط، أي حاصل جمع الواحد إلىٰ هذا العدد. فالكمال الشعوري للتسعة مثلاً: واحد وثمانون، لأنك إذا جمعت من الواحد إلىٰ التسعة يحصل خمسة وأربعون، وإذا جمعت من الثمانية إلىٰ الواحد يحصل ستة وثلاثون والمجموع واحد وثمانون، والكمال الظهوري لها خمسة وأربعون. وقد أتفق وقوع التسعة بين كماليها في أسم «فاطمة» ﷺ، لأنَّ "ط" وقع بين "فا" و"مة" وعلىٰ الجمل الأبجدية تكون ط: ٩ و فا: ٨١ ومة: ٤٥. ذكره «آية الله الـشيخ حسن زاده الآملي» في تعليقته علىٰ كتاب «الخزائن» لـ«الملا أحمد النراقي» ﷺ.

فعلى سبيل المثال:

"الشين" زُبُرُه "ش" وبيِّنَتُه "ي ن"، ولا تَوافُقَ بين حساب "ش" [٣٠٠] ومجموع حساب "ي ن" [١٠ + ٥٠ = ٦٠] (١٨)، بينما في حرف "السين" فإنَّ زُبُرَه "س" وعدده [٦٠]، وبيِّنَته "ي ن" ومجموع عددهما [٦٠] أيضاً، وهذه ميزة وخُصوصِيَّةٌ انفرد بها حرف السين فقط!

وقد جاءت هذه السين مَرَّةً في البداية، في أوّل كلمة "سلام"، وهي من أسماء الذات القُدُسيَّة للحقِّ سبحانه وتعالى، وأُخرىٰ على نحو اسم الفعل، وهو الاسم المُقدَّس "ياسين"، إذ ﴿يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، وسين "ياسين" مأخوذة من سين "سلام"... عندها (هنا) يُعْلَمُ لماذا قال ﷺ: "إذا أردتم التَّوَجُّهَ بنا إلى الله تعالى وإلينا فقولوا كما قالَ الله تعالى: سلامٌ على آل ياسين"، وهنا "سين" أُخرىٰ مُقدَّرة!

إذن: هناك حرفا "سين" ظاهرين، وهناك "سين" أُخرىٰ (ثالثة) مُضْمَرَة...

والـ "سين" المضمَرة بيَّنَها ﷺ في: "لا لأمْرِه تَعْقِلُون ولا من أوليائه تقبلون"...

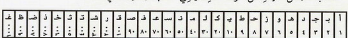
وما هي هذه السين المضمرة؟

إنها ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝﴾ (الشعراء)، إذا صارَ القَلْبُ سليماً وقال: "سلامٌ على آل ياسين"، فلا تكون ثمَّةَ حالةٌ مُرتَقَبةٌ (لا يعود للقَلَقِ محلٌّ، وتتحقَّقُ الاستجابة من فورها)...

إنَّ الطَّريقَ من قبيل السهل الممتنع!

---

(١٨) أي في حساب الأبجدية، ويعني حساب الأحرف الهجائية المجموعة في الترتيب الأبجدي (مقابل الترتيب الألفبائي) "أبجد هوَّز حُطِّي كلَمُن سعفص قرَشَت ثخذ ضظغ"، ويقال له "حساب الجُمَّل"، إذ لِكلِّ حرف معادِلٌ رقمِيٌّ حسب الجدول التالي:



أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

وإدراك المقصد وبلوغه قابِلٌ ومُتَحَصَّلٌ من الجملة الأُولى، ولا حاجة لما يليها، وإنما اللازم تحقيقه هو بلوغ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، عن طريق "لأَمْرِه تَعْقِلُون" أو "من أوليائه تقبلون"، إنَّ "وجه الله" فانٍ في الله، وكما إنه لا يمكن أن يُؤتىٰ الله بغير قَلْبٍ سليم، كذلك لا يمكن أن يُؤتىٰ سبيلُ الله بغير قَلْب سليم. إذا أصبَحَ القلْبُ سليماً، وعرف أنَّ "بنا" هي السبيل في التَّوجُّه، فإنَّ الأمر يتمُّ في جملة واحدة، ويتحقَّق من الفقرة الأُولىٰ...

ماذا يظهر من كُلِّ هذا؟

إليكم هذه القِصَّة، التي أنقلها شخصيّاً بواسطةٍ واحدةٍ عن الشخص الذي حصلت (وقعت) له القضية، وقد ٱلتقيْتُهُ مِراراً، ولكني لم أسمعها منه مباشرة...

كُنتُ قبل الهجرة إلىٰ «النجف الأشرف» أتتلْمَذُ علىٰ أُستاذ في (مدينة) «مشهد»، وكُنتُ في ذلك الوقت - كما أنا الآن! - في عداد وسلك المبتدئين، وكانَ لذلك الأُستاذ درسٌ خاصٌّ يحضره عِدَّةٌ من مشايخ ذلك العهد، وكان «الدكتور» الذي وَقَعَتْ له القضية (التي نحنُ بصددها) ممن يُشاركُ في الدرس أيضاً...

أنا لم أسمعها (القصَّة) منه مباشرةً، ولكنني سمعتها من المرحوم الحاج الشيخ «علي أكبر النهاوندي»، ومن المرحوم الحاج الشيخ «علي أكبر النوغاني» أيضاً، وهذان سمعا القضية منه مباشرة، وأنا أنقلها لكم مختصرة:

قال ذاك «الدكتور»: كُنتُ طبيباً جرّاحاً إبّان فتنة الهجوم الروسي علىٰ «إيران»[١٩]، وقد جاءني يوماً شخصٌ مصابٌ بعيار ناري، وقال لي من فوره:

إنني مصابٌ بطلقة، وعليك أن تُجري لي عمليةً جراحيَّة (لإخراج الرصاصة).

فقلت (بيَّنتُ وشرحت) له: إنَّ العملية الجِراحيَّة ليست بهذه السهولة. قبل أيِّ شيء يجب أن تُخدَّر.

---

(١٩) خلال الحرب العالمية الثانية.

فقال: لا تنتظر شيئاً (لا يُعيقنَّكَ شيءٌ)، هيِّء أدوات الجراحة!

فأمتثَلْتُ له كأنني إنسانٌ مُسَيَّر (مسلوبُ الإرادة) مغلوبٌ على أمره!

فنام (فأستلقى وتمدَّدَ على السرير) وأخذ يُرَدِّدُ:

"بسم الله النور"، "بسم الله النور"...

ثم قال عِدَّة كلمات أُخرى بصوتٍ منخفض، وإذا بي أمامَ جُثَّةٍ هامدة مُمَدَّدة!

فعلمت أنَّه أقدَمَ على "الخلع"، وتجريد روحه من بَدَنِه، فباشَرْتُ العملية الجراحيَّة حتى أتممتها. {وكان «الدكتور» من أهل الفنِّ والمعنى والفهم (والأطلاع على مسألة خلع الروح وتجريدها عن البدن)}.[٢٠]

وبعد أن أنهيتُ خياطة (رتق) الجرح (عمل الغُرَز)، رأيته يَنْبُسُ بنفس تلك الكلمات (التي خدَّرَ بها نَفْسَه)... حتى أستوى جالساً!

فعَلِمْتُ أنني عثَرْتُ على جوهرة (وَقَعْتُ على كنز)...

فتحادثت معه (قضيت معه وَطَراً)، حتى عَلِمتُ مَن يكون، {وما أُريد الأستشهاد به هو ما سيأتي الآن} عَلِمتُ أنَّ له أرتباطاً به (بـ«الحُجَّة» ﷺ).

سألتُه: هل تَشرَّفتَ برؤيته؟

قال: هيهات، هيهات، أين نَحْنُ منه!

قلت: إذن، ما هو موقعك (منصبك)؟

قال: إنني مأمُورٌ (مُكلَّفٌ) بالوجود (الحضور) هنا.

قلت له: ألا ينظر («المولى» ﷺ) إلى هؤلاء الناس؟ الجيش «الروسي» و«الآذري»، وكُلُّ هذه المصائب التي لا طاقَة للناس بها!

ما إن قُلْتُ ذلك حتى قال: بسيطة (هيِّن، غير مهم)! ليرحلوا...

قال هذه الكلمة فقط "ليرحلوا"، ثم مضى.

---

(٢٠) ما جاء بين القوسين { } هو من تعليق سماحة «الشيخ» دام ظله على القصة.

وفي عصر ذلك اليوم وصلت برقيَّةٌ من قيادة «الروس» تأمر الجيوش بالعودة، ولم يَتَوانَ العسكَرُ عن شيء، وأقفَلَ راجعاً في نَفْسِ تلك الليلة!

في غدِي وجدت ضالَّتي، وعرفت أنَّ الأمر قد تمَّ وقُضِيَ بكلمة واحدة صدَرَت منه، بمجرَّد أن قال: "ليرحلوا".

هـٰذه هي الإرادة القاهرة النافذة، لقد أحْدَثَ هـٰذا التحوُّلَ الكبير بكلمة واحدة...

وكُنْتُ قد سألته عن رؤيته «المولىٰ»؟ فأجابني: هيهات.

وقال: إنه يتَّصِلُ بسبعة أشخاص، وهـٰؤلاء السبعة هم الذين يشاهدونه (يلتقون به)... فأين، وفي أيِّ مقام، وأية منزلة هو؟

لقد مَسَّ أُولئك السبعة "الإكسير الأعظم" فصاروا بأنفسهم "كبريتاً أحمر"، وهـٰذا (المصاب الذي أجرىٰ له «الدكتور» الجراحة) لما مَسَّه ذاك "الكبريت الأحمر"، صارَ تِبْراً صافياً، وإنسانية خالصةً (نقيَّة، لا يشوبها شيء)...

(أنتهىٰ نقل القصة).

وا أسفاهُ إذ لم نعرفك (يا مولاي)!

ولم نوفيك حقَّك من الحرمة، أين أنتَ يا من أنتَ الآن في كلِّ مكان؟

وهنا [٢١] هو أحد هـٰذه الأمكنة، إنَّ الحضورَ (هنا) أُناسٌ إن لم يحْظَوا بشيءٍ (علىٰ صعيد الأستحقاق والأهليَّة)، فقد وضعوا علىٰ رؤوسهم علامة (شعار) خدمك [٢٢]، ونزلوا بفناء عتبة قبر «عمَّتِك»...

---

(٢١) أي حيث تلقىٰ المحاضرة، في «المسجد الأعظم» في مدينة «قُم» المقدَّسة.

(٢٢) إشارة إلىٰ "العمامة"، وهي أبرز مميزات زيِّ طلاب العلوم الدينية، الذين يُصطَلَح علىٰ نعتهم بـ "جنود" و"خُدَّام" «صاحب الزمان» ﷺ. و«عَمَّتهُ» هي «فاطمة المعصومة» ﷺ، بنت «الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم» ﷺ، التي تَتَشَرَّف الحوزة العلميَّة في «قُم» بمجاورة مرقدها الشريف... والمقصود أنَّ الحضور ممن ينتسبون إليكم بنَحْوٍ ما، فأَوْلِهم وأعْطِف عليهم بنظرة.

فهلَّا نظَرْتَ إليهم؟!

أنقضى الوقت...

" بنا إلى الله تعالى وإلينا "،

اللهم صلِّ وسلِّم على وَلِيِّكَ وخليفتكَ وحُجَّتِكَ وكلمتِكَ التَّامَّة في أرضك.

بَقِيَ هنا شيءٌ آخر، هو التأمُّلُ في مَفاد:

" وكلمتكَ التَّامَّة في أرضك ".

إقرؤوا القرآن الكريم، وانظروا إلى أين بلَغ «عيسى بن مريم» ﷺ؟

لقد بلَغَ " مقام الإذن "...

وما هو " مقام الإذن "؟

إنه إحياء الموتى بإذنه، وإبراءُ الأكْمَه والأبرص بإذنه، وخلْقُ الطير بإذنه (بإذن الله سبحانه وتعالى)، لقد بلَغَ هذا المقام، فصارَ " كلمة "، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (آل عمران)...

(أما) وما وراء (ما يتجاوز، ما فوق) ذلك فليس بمقام لـ «عيسى» ﷺ (لا من رتبته ولا من درَجاتِه).

إذ تصبح " الكلمة " بعد ذلك " تامَّةً "!

إقرؤوا الزيارة التي ذكرناها، ستصِلُون إلى الدعاء الذي يُقْرأُ بعد الزيارة وفيه: " وكلمتك التامَّة في أرضك ". [٢٣]

إنَّ " الكلمة التامَّة " هو «الحُجَّة بن الحسن العسكري» ﷺ، لا «عيسى بن مريم» (على نبيِّنا وآله و) ﷺ.

وبأيِّ شيءٍ تمامُ (تتمُّ) الكلمة؟

(٢٣) انظر «الأحتجاج» لـ «الطبرسي» (ج٢ ص٩٤).

إقرؤوا القرآن أيضاً ستجدون في موضع آخر آية أُخرىٰ تُوَضِّحُ ما تتمُّ به الكلمة، ثم عودوا للتأمل هنا، إذ وُلِدَ «صاحبُ العصر والزمان» ﷺ في هٰذه الليلة، فرفع رأسه إلىٰ السماء قائلاً: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ (الأنعام)، ومن هٰذه الآية الكريمة يظهر أنَّ "تمام الكلمة" يكون بأمرين:

الأول: "منتهىٰ الصدق"، وهو الحدُّ النهائي للحكمة النظرية.

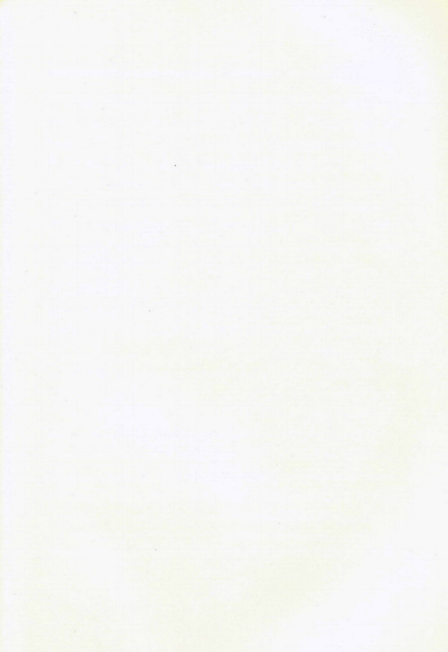
والثاني: "منتهىٰ العدل"، وهو الحدُّ النهائي للحكمة العَمَليَّة، وعندما يبلغ الإنسانُ أقصىٰ حدود الصدق - حيث تنكشف في ذلك القلب المُقدَّس جميع حقائق الوجود - ويبلغ (من الجهة الأُخرىٰ) أقصىٰ حدود العدل...

عندها يصبح "الكلمة التامَّة" هو مَولودُ هٰذه الليلة...

جَلَّ مولده...

وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الطيبين الطاهرين

❁ ❁ ❁



المحاضرة الخامسة

التاريخ: ١٤/شعبان/١٤١٦هـ
الموافق ١٩٩٥/١/٦م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: فضل الحجة عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

القضيَّةُ الأساسيَّةُ هي قضية هذه الليلة (ليلة النصف من شعبان)...

لعلَّ الضائقة والأزمة الماليَّةَ (المعيشيَّة) التي تُعاني منها هذه الطَّبقةُ (طَلَبة العلوم الدينية)، تبعث على الوسوَسَة والترديد (في التزام هذه المهنة وعدم الانصراف عنها إلى الكَسْبِ والأعمال الدنيوية التي تُدِرُّ عائداً مالياً جيِّداً) في بعض النفوس، وقد يفعَلُ ضيقُ ذاتِ اليد وعُسْرُ المعيشةِ فعلَتَهُ - بشكلٍ أو آخر - في هذه النفوس، ويبعَثُ فيها اليأسَ (السلبيَّة) والخُمُول...

ولكن على هؤلاء أن يعرفوا كَم لَطَفَ اللهُ بهم (إذ وفَّقَهُم للدخول في هذا السلك، أي تحصيل العلوم الدينية والعمل الروحاني)، وأنهم (الآن) محلٌّ لأعظم الألطاف الإلهية. واللطفُ الإلهيُّ (الهبة الإلهيَّة العظمى) هو التوفيق للنهوض بدَوْر إحياء النفوس ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۝﴾ (المائدة).

فقد حَمَلَ رجُلٌ إلى «الإمام المجتبى» عليه السلام هديَّةً، فقال له عليه السلام:

أيها أحبُّ إليك؟ أن أرُدَّ عليك بَدَلها عشرين ضعفاً، عشرين ألفَ درهم، أو أفتح لك باباً من العلم تقهر فلان الناصبي في قريتك، تنقذ بها ضُعفاء أهل قريتك؟ إن أحسَنْتَ الأختيار جمَعْتُ لك الأمرين، وإن أسأتَ الأختيار خيَّرتُكَ لتأخُذَ أيُّها شِئتَ.

فقال: يا «أبنَ رسول الله»، فثوابي في قهري ذلك الناصب وأستنقاذي لأولئك الضُعفاءُ من يدِه قَدْرُهُ عشرونَ ألفَ درهم؟

قال: بل أكثر من الدنيا عشرين ألفَ ألفَ مَرَّة.

{ألتفتوا إلى أُسلوب الإمام، إنَّ كُلَّ رواية هي كنزٌ من العلم، لقد حدَّدَ النسبةَ بين إنقاذ الضعفاء وإفحام ذلك الناصبي من جهة، وبين مُعادِلِه المادِّي من جهة أُخرىٰ فقال: إنَّ تعلُّمَ كلمة تحجُّ بها الناصبي تعادِل ما يزيد علىٰ عشرينَ ألفَ ألفَ ضعف للدنيا، وليست الدُنيا الكُرة الأرضيَّةَ فحَسْب، بل إنَّ نطاق الدنيا يشمل كُلَّ الحياة المادِّية... إنَّ تعلُّمَ كلمةٍ واحدة وأستعمالها في إحياء (هداية) نَفْسٍ واحدة، يفوق الدنيا عشرين ألفَ ألفَ مَرَّة!}.

فقال: يا «أبنَ رسول الله»، فكيف أختار الأدْوَنَ، بل أختارُ الأفضل: الكلمةَ التي أقهَرُ بها عدوَّ الله، وأذوده عن أولياء الله.

فقال «الحسن بن علي» عليه السلام: قد أحسنتَ الأختيار.

وعلَّمَهُ الكلمة وأعطاهُ عشرينَ ألفَ درهم، فذهب فأفحَمَ الرجل، فأتصل خبره به، فقال له إذ حَضَرَهُ: يا عبدالله، ما ربِحَ أحدٌ مثلَ ربحك، ولا أكتَسَبَ أحدٌ من الأودّاءِ ما أكتَسَبت، أكتَسَبْتَ مودَّةَ الله أوّلاً، ومَوَدَّةَ «محمَّدٍ» و«عليٍّ» ثانياً، ومَوَدَّةَ الطيِّبين من آلهما ثالثاً، ومَوَدَّةَ ملائكة الله رابعاً، ومَوَدَّةَ إخوانك المؤمنين خامساً، فأكتَسَبْتَ بعدَدِ كُلِّ مؤمن وكافر ما هو أفضل من الدنيا ألفَ مَرَّة، فهنيئاً لك هنيئاً". [١]

---

(١) انظر (بحار الأنوار) (ج٢ ص٨ ح ١٦، نقله عن (الأحتجاج) و(التفسير) المنسوب لـ «الإمام العسكري» عليه السلام).

هٰذه هي قيمَةُ إحياء النفس، والمهم أن نعرف بأيِّ شيءٍ (بِمَ) يكون إحياء النفوس؟ فنُحْيي أنفُسَنا، ونُحيي الآخرين أيضاً...

وهٰذه إطلالة شهر رمضان تُقبِلُ علينا[٢]، وبفعل الصيام وتأثيره في كبح جماح القوىٰ الشَهَوِيَّة تُصبِحُ نفوس (روحيَّات) الناس مُهيَّأةً ومُستعِدَّةً للاستفاضة (لتلقي الفيض)، والوظيفة الأساسِيَّةُ الملقاة علىٰ عواتقكم، أنتم أيتها الطبقة العالمة، والنُخبة الفاضلة، هي اقتناص هٰذه الفرصة والاستفادة من هٰذه الحالة في إحياء النفوس.

إنَّ إحياء النفوس وتحقيق ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، في زماننا هٰذا يكون (بالعمل) بتلك الرواية ـ مُسلَّمةَ الصُدور ـ عن «رسول الله» ﷺ: "مَن ماتَ ولم يَعرِف إمامَ زمانِهِ ماتَ ميتةً جاهليَّةً"[٣]، إنَّ معرفتَه وتعريفه، وإيجاد العلاقة بين أيتام «آل محمد» وبين «أبيهم» المهجور، والمُغيَّب المحجوب عن الأنظار... هو الذي يحقِّق إحياءَ النفوس في يومنا هٰذا.

إنَّ الارتباطَ بالله سبحانه وتعالىٰ مُتعذِّرٌ ومُحالٌ، إلّا إذا تحقَّق الارتباطُ به (بـ «الإمام» ﷺ)، إذ يجب أن يتحقَّق الارتباطُ بـ "مَن به الوجود" حتى يتحقَّق الارتباطُ بـ "مَن منه الوجود"[٤]. هٰذه هي حقيقةُ الأمر...

إنَّ النُكتةَ الأساسيَّة في معرفته هي: مَن هوَ؟ وعلىٰ ماذا تكتنِفُ ذاتُه؟

وعندما يبلغ البحثُ هٰذا الموضِعَ فإنَّ سُرُجَ العقول تخبو وتنطفئ!

إنَّ المقام من الأهمية (الخطر) والعَظَمة بحيث كان تعبيرُ «الإمام الثامن» («الإمام الرضا») ﷺ ـ في ذلك المقام ـ :

---

(٢) تُعطِّلُ الحوزة العلمية دروسها في شهر رمضان المبارك، وينتشر الطلبة للتبليغ...

(٣) رَوتْهُ العامَّة والخاصَّة متواتراً، انظر «الإمامة والتبصرة» لـ «والد الشيخ الصدوق» ﷺ (ص٨٢ ح ٦٩ و٧٠ و٧١).

(٤) انظر صفحة ٤٢، رقم (١٢) و(١٣) من هوامش الفصل الثالث.

"بأبي وأُمّي سَمِيُّ جَدِّي، وشبيهي، وشبيهُ «موسىٰ بن عمران»، عليه جُيُوبُ النور، تتوَقَّدُ بشعاع ضياء القدس". (٥)

إنَّ تعبير «الإمام الثامن» ﷺ عن مولود هٰذه الليلة (النصف من شعبان) لِما يوجبُ (يورثُ) الدهشةَ والذهول!

ما هي جُيُوبُ النور التي خُلِعَت عليه، و(كانت) تتوَقَّدُ بشعاع ضياء القدس؟

كان التعبيرُ في الحديث المروي عن «رسول الله» ﷺ (بهٰذه الصيغة):

"عليه جلابيبُ النور". (٦)

ولٰكن تعبيرَ «الإمام الثامن» («علي بن موسىٰ الرضا» ﷺ) كان: "عليه جيوبُ النور"، ثُمَّ جاءت جملة: "تتوقَّدُ بشُعاعِ ضياء القدس"، في ذيل تلك العبارة.

لا تزالُ معارفُ (وعلوم) «أهل البيت» ﷺ، والجواهرُ المكنونة في معرفةِ الله سبحانه وتعالىٰ، ومعرفةِ وسائط الفيض الإلهي (الأئمة الحجج)... مخفيَّةٌ علينا، وكم هو صَعْبٌ وعَسِيرٌ نيل تلك الجواهر، إنها شيءٌ آخر، غير العلوم والفنون الفِكريَّة التي تتحصَّلُ بالتَّفكُّرِ والتدبُّر والتَّعمُّق.

إنَّ معرفةَ الوليِّ الأعظم والسرِّ الأكبر، منوطةٌ بأن يَقْتَحِمَ العُلَماءُ، وعندما أقول "عُلَماءُ" فلا أقصد الطبقةَ الدنيا منهم، بل أُولٰئك الذين قَضَوْا سنينَ متمادية في معالجة القضايا الفكرية، يَقْتَحِمُوا مِضمارَ التعابير التي جاءت في الأدعية والزيارات، وأن يوظِّفُوا أقصىٰ قُدُراتهم (طاقاتهم) العلمِيَّة لشرح وتوضيح تلك الكلمات. وبالطَّبع لو كان ذلك مقترناً بقلبٍ عامرٍ بالتقوىٰ، فالمأمول أن تُفتح (يؤدي إلىٰ فتح) نافذة علىٰ المعرفة!...

إنها جيوبٌ وجلابيب...

وليست واحدةً أو اثنتين، إنها بقدر ومقدار يعجز البشر عن إدراكه!

---

(٥) انظر «بحار الأنوار» لـ «العلّامة المجلسي» (ج٥١ ص١٥٢ح٢، نقله عن «عيون أخبار الرضا»).

(٦) انظر المصدر السابق (ج٣٦ ص١٥٢ ح٢٠٠).

كثيراً ما تقرأون هٰذه الفقرة من "دعاء الندبة" ... ولكن سنين متمادية من الفكر لا توفيها حقَّها: "بنفسي أنتَ من عقيد عِزٍّ لا يُسامىٰ". (٧)

ماذا تعني "عقيد عِزٍّ"؟ (٨)

وأيُّ غصن تفرَّعَ عن ذاكَ العقيد؟

وأين بلَغ من الرفعة والسُّمُوِّ حتىٰ صارَ "لا يُسامىٰ"؟ (٩)

إنها صيغة مبنيَّةٌ للمجهول، أي أنه بَلَغَ من العُلُوِّ حدّاً بحيث لا يمكن لأيِّ مَفْخرة أو منقَبة أو شرفٍ أو فضيلة أن تبلُغَه!... هٰذا هو مقام «وليّ العصر» ﷺ.

والواقع أنَّ هٰذه الجوهرة تنفرد بجملة من المزايا والخصوصيَّات، وتشارك غيرها (من المعصومين) في جملة أُخرىٰ:

يكفي أن أذكُرَ آيةً قرآنيةً واحدةً، لتكُونَ مُنطَلَقاً لتفكيركم وتدبُّركم، ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر)، أشرقت الأرضُ بنور ربِّ الأرض، تُرىٰ، متىٰ تُشرِقُ الأرض بنور ربِّ الأرض؟ إنَّ الأرضَ الآن مُشْرِقة في النهار بإشراق الشمس، وبنور القمر في الليل، ولكن سيأتي يومٌ تُشرِقُ فيه الأرضُ بنور الله...

هٰذا ما جاءَ في ذيل الآية الشريفة...

فقد روىٰ «المُفضَّلُ بن عمر» أنَّه سمِعَ «أبا عبدالله» ﷺ يقول في: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، قال: ربُّ الأرض إمامُ الأرض.

قلت: فإذا خرج، يكونُ ماذا؟

---

(٧) انظر (بحار الأنوار) لـ «العلّامة المجلسي» (ج١٠٢ ص١٠٨).

(٨) عقيد عِزٍّ، فَخر، مجد: حليف ملازم لا ينفك، قال في «المنجد» (ص ٥١٩): يُقال [فلان عقيد الكرم أو اللؤم] أي كريم أو لئيم طبعاً.

(٩) السُّمُوُّ: الارتفاع والعُلُو. وفلان لا يُسامىٰ، لا يجارىٰ في عُلُوِّه وسمُوِّه. والقَرْمُ السَوامي: الفحول الرافعةُ رؤوسها (عن (الصحاح) لـ «الجوهري»). وقال في (المنجد) (ص ٣٢٥): سامىٰ مُساماةً الرجل: فاخَرَه وباراه، يقال: فلانٌ لا يُسامىٰ، أي لا يُفاخَر ولا يُبارىٰ.

قال: إذن يستغني الناسُ عن ضوء الشمس ونور القمر، ويجتزئون بنور الإمام. [١٠]

تُرىٰ ما هي تلكَ الحقيقة؟

وما هو ذاكَ السِرُّ الخفيُّ الذي متىٰ ما أنتقل من عالم الغيب إلىٰ عالم الشهود قامت أشِعَّتُهُ الجسمانية مقامَ ضوء الشمس والقمر؟ كما إنَّ إشعاعاته وفيوضاته النفسانية تُخرج جميع معادن الإنسانية من مرحلة الأستعداد (بالقُوَّة) إلىٰ مرحلة الفعليَّة، فإنَّ "الناسَ معادنُ كمعادنِ الذَّهبِ والفضَّة"؟ [١١]

إنَّ معرفةً هكذا موجود ليست في وُسْعِنا ولا يمكن لإدراكاتنا أن تنالها!

لقد كان لـ «رسول الله» ﷺ درعان، كانت إحداهُما من علامات الإمامة العامة (أي لكُلِّ إمام من «الأئمة» ﷺ)، إذ كانت من علامة كُلِّ إمام أن يرتدي درعَ «الرسول» ﷺ، فإن أستوت علىٰ جسمه ووافق حَجْمُها (مقاسها) بدَنَه، فهو «إمامٌ»، فكُلُّ مَنْ تكون علىٰ مقاسه تماماً فهو إمامٌ بلا شك! [١٢]

---

(١٠) في (بحار الأنوار) (ج٧ ص ٣٢٦ ح ١، عن (تفسير علي بن إبراهيم)).

(١١) انظر (بحار الأنوار) (ج٦١ ص٦٥ ح٥١).

(١٢) راجع (البحار) (ج٦١ ص ٩٨ ح٣٧)، فقد جاء في رواية «الباقر» ﷺ:

"...كان ﷺ يلبس من القلانس "اليَمَنِيَّة" و"البيضاء" و"المُضَرَّبة" ذات الأُذنين في الحرب، وكانت له عنزة يتَّكئ عليها ويخرجها في العيدين فيخطب بها، وكان له قضيب يقال له "الممشوق"، وكان له فسطاط يُسَمَّى "ألكن"، وكانت له قَصعةٌ تُسمَّى "المنبعة"، وكان لـه قُعْبٌ يُسمَّى "الريُّ"، وكان له فرَسان يقال لأحدهما "المرتجز" وللآخر "السكب"، وكان له بغلتان يقال لإحداهما "دُلْدُل" وللأُخرىٰ "الشهباء"، وكانت له ناقتان يقال لإحداهما "العضباء" وللأُخرىٰ "الجدعاء"، وكان له سيفان يقال لأحدهما "ذوالفقار" وللآخر "العَوْن"، وكان له سيفان آخران يقال لأحدهما "المخذم" وللآخر "الرسوم"، وكان له حمار يُسمَّى "يعفور"، وكانت له عمامة تُسمَّى "السحاب"، وكان له درع تُسمَّى "ذات الفضول" لها ثلاث حلقات فِضَّة: حلقة بين يديها، وحلقتان خلفها، وكانت له راية تُسمَّى "العقاب"، وكان له بعير يُحْمَلُ عليه يُقال له "الديباج"، وكان له لواء يُسمَّى "المعلوم"، وكان له مِغْفَر يُقال له "الأسعد"، فسلَّمَ ذلك كلَّه إلىٰ «عليٍّ» ﷺ عند موته...".

←

والنُكتة هنا هي أنَّ الدرعَ الأُخرىٰ لـ «النبيّ» صلى الله عليه وآله، مُختصَّة بـ «المهديّ» عليه السلام، وقد قال عنها «الإمامُ الصادقُ» عليه السلام: "ولقد لبِسَ أبي درعَ رسول الله صلى الله عليه وآله فخطَّتْ علىٰ الأرض خَطَطَاً، ولَبِسْتُها أنا فكانت وكانت، وقائمنا مَن إذا لَبِسَها مَلأها إن شاء الله"[١٣]، إنَّ تلك الدرع إنَّما تستوي علىٰ شخص واحد لا ثانيَ له، إنها لا تستوي علىٰ بَدَنِ أحدٍ، حتىٰ «أميرالمؤمنين» عليه السلام، وهو أفضَلُ الأوَّلين والآخرين بعد «خاتم النبيين»!

إنها لا تستوي إلّا علىٰ بدن «الحُجَّة بن الحسن» عليه السلام... كيف ذلك؟ ولماذا؟

إنَّ السرَّ في ذلك يعود إلىٰ أنَّ هناك مَدارَيْن في كلِّ دائرة الوُجود...

المدار الأول هو مَدارُ النُبوَّة العامَّة، والثاني هو مدار الولاية العامَّة، وهناك نقطة الختام في دائرة النُبوَّة العامَّة والرسالة، وهو الشخص الشاخص لـ «النبيِّ الأعظم» صلى الله عليه وآله، وكذلك هناك نقطة الختام في مدار الولاية الكُليَّة والإمامة المطلقة، وهو «الحُجَّة بن الحسن العسكري» عليه السلام.

---

(١٣) نقله «العلامة المجلسي» في «البحار» (ج٢٦ ص٢٠٢ ح ١، عن «الإرشاد» و«الاحتجاج»).

←

رُوِيَ عن «الإمام الرضا» عليه السلام أنه قال: "للإمام علامات: يكونُ أعلم الناس، وأحكم الناس، وأتقىٰ الناس... يولد مختوناً، ويكون مُطَهَّراً، ويَرىٰ من خَلْفِه كما يَرىٰ من بين يديه، ولا يكون له ظِلٌّ، وإذا وَقَعَ إلىٰ الأرض من بطن أُمِّه، وَقَعَ علىٰ راحتيه رافعاً صوته بالشهادتين، ولا يحتلم، وتنام عينه ولا ينام قلبه، ويكون مُحَدَّثاً، ويستوي عليه درع «رسول الله» صلى الله عليه وآله، ولا يُرىٰ له بولٌ ولا غائط..." انظر «البحار» (ج٢٥ ص١١٦ ح١، نقلَه عن «معاني الأخبار»، و«الخصال»، و«عيون الأخبار»)، وراجع «البحار» (ج٢٦ ص٢٠٣ ح١).

وعن «الصادق» عليه السلام قال: "كأني بـ «القائم» عليه السلام علىٰ ظهر «النجف»، لابِساً دِرْعَ «رسول الله» صلى الله عليه وآله، فيتقلَّصُ عليه ثم ينتفضُ بها فتستدير عليه! ثم يُغَشِّي الدرع بثوب إستبرق، ثم يركَبُ فرساً له أبلق، بين عينيه شمراخٌ ينتفضُ به، لا يبقىٰ أهل بلدٍ إلّا أتاهم نورُ ذلك الشمراخ حتىٰ يكون آية له. ثم ينشر رايةَ «رسول الله» صلى الله عليه وآله، إذا نشَرَها أضاءَ لها ما بين المشرق والمغرب". «البحار» (ج٥٢ ص٣٩١). والشِمراخ ضَرْبٌ مما تُزيَّنُ به ناصية الفرَس، وأصله العَثْقُ عليه بُسْر أو عِنب.

لقد ثبت بالبرهان أنَّ درعَ «خاتم النبُوَّة» لا تستوي على أيِّ جسم آخر سواه، وهي مُختصَّةٌ به لا غير!

وهنا أُشير إلى نُكتة خطيرة أُخرى، وهي أنَّ نقطة ختام النُبوَّة تتحلَّى بخُصوصيَّة مُعيَّنة، وهي التي ذُكِرَتْ (أُشيرَ إليها) في الزيارة التي تُقرأ عندَ مولانا «أميرالمؤمنين» ﷺ، وجاء فيها:

"... السلامُ على رسولِ الله، أمين الله على وَحْيِهِ وعزائِم أمره، الخاتم لما سَبَقَ والفاتِح لما اسْتُقْبِلَ، والمُهيْمِنِ على ذلك كُلِّه ورحمةُ الله وبركاته، السلامُ على صاحب السكينة، السلامُ على المدفون بالمدينة، السلامُ على المنصورِ المُؤيَّد، السلامُ على أبي القاسم محمد... ". (١٤)

ويظهر من هذه الفقرة أنَّ خُصوصيَّة «النبيِّ» الخاتم هي أنه ﷺ خاتِمٌ بالنسبة لما سبَق (أي للماضي)، وفاتحٌ بالنسبة لما اُستُقبِل (أي لما سيأتي)... ولكن إذا بلَغ الأمر إلى خاتم الحُجَج، فإنَّ المقامَ يكون (يصبح) مقامَ غَلْقٍ وإقفالٍ وسدِّ الأبواب!

"المنتهي إليه مواريثُ الأنبياء، ولديه موجودٌ آثار الأصفياء"... (١٥)

يجب أن تنتهي جميعُ الألطاف الإلهيَّة الخاصَّة التي اُنتشَرَتْ في عالم الوجود، فهناكَ فيضٌ ولُطفٌ (إلهيٌّ) بلَغَ «نُوحاً»، وحِصَّةٌ وصَلَتْ لـ «إبراهيم»، وهكذا «موسى» و«عيسى» ﷺ... يجب أن تنتهي جميعها (تلتقي) وتَتَمَرْكَزُ في نقطة (تبلغ ذروة) لا يمكن تجاوزها... وهذا هو «إمامُ الزمان»، هذا هو «وليُّ العصر»، هذا هو الذي تحارُ العقول كلَّما وصلت إليه (ودَنَتْ منه)!

---

(١٤) زيارة رواها «الشيخ المفيد» و«السيِّد» و«الشهيد» وغيرهم رضوان الله عليهم، عن «صفوان»، قال سألت «الصادق» ﷺ فقلت: كيف تزور «أميرالمؤمنين» ﷺ؟ فقال: ... والحديث طويل نقل منه موضع الشاهد. انظر (البحار) (ج١٠٠ ص٢٨١ و٢٨٤ ح١٨).

(١٥) جاءت العبارة في زيارة لـ «الحجة» ﷺ. عن (مصباح الزائر) (ص ٢٢٨)، وفي (بحار الأنوار) (ج١٠٢ ص١٠١).

" اللهم عَرِّفني نفسَكَ، فإنَّكَ إن لم تُعرِّفني نفسَكَ لم أعرفْ رسولَكَ (نبيَّكَ)، اللهم عَرِّفني رسولَكَ، فإنَّكَ إن لم تُعرِّفني رسولَكَ لم أعرفْ حُجَّتَكَ، اللهم عَرِّفني حُجَّتَكَ، فإنَّكَ إن لم تُعرِّفني حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عن ديني ". (١٦)

إنَّ هذا التعبير (بحَدِّ ذاته) دليلٌ على عمق الأمر وصعوبته، إذ لو كان الأمرُ بسيطاً وسهلاً (هيِّناً) لما كان البيان على هذا النحو، فيجب أن نتضَرَّعَ إلى الله سبحانه وتعالى (لكي نعرفَ حُجَّتَه)، ولا سبيل إلّا هذا...

إنَّ المقامَ هنا من الرِّفعةِ والعُلُوِّ، والجناب من العظمة والسُّمُوِّ بحيث لا يمكن بلوغه إلّا بإذنٍ رُبوبيٍّ خاص!

إنَّ الشيءَ الوحيدَ الذي يمكنكم فعلُه هو (حيلتكم الوحيدة هي) أن تلتمسُوا (لأنفسكم) عذراً وذريعةً (توصلكم إليه، وتجعلكم متعلِّقين به)، ولا سبيلَ إلى ذلك إلّا بمداومة ذكره ليلاً ونهاراً، فتفتتحون يوْمَكُم حين تُصبِحونَ، بِذِكْرِهِ، وتختمونه، حين تُمسونَ بذِكْرِهِ، أينما كنتم، في أيِّ مجلس تحضرون، أو أيِّ محفل تشهدون، عليكم بِذِكْرِهِ... عسى ولعلَّ أن ينعَطِفَ ويُوليِنا منه نظرةً (فنحظى!)...

فإن فَعَلَ، فنظرةٌ منه ﷺ لتقلب عالَماً!

إيه (يا «أبن الحسن»)، مَن أنت؟ وماذا تُراكَ تكون؟ وماذا تحوي؟

يا دينَ الله المأثور، ماذا تضُمُّ بين جوانِحكَ، وماذا خَفِيَ فيكَ أيُّها الكِتابُ المستور، سلامُ الله وبركاته وتحيَّاته وصلواته على مولاي «صاحب الزمان»، صاحب الضياء والنور، والدين المأثور، واللواء المشهور، والكتاب المنشور، وصاحب الدهور والعصور، وخَلَفِ الحَسَنِ، الإمام المؤتمن... ". (١٧)

---

(١٦) انظر كذلك: (البحار) (ج٥٣ ص١٨٧ ح ١٨). ذكره الشيخ «عباس القمي» في (مفاتيح الجنان) بعنوان: " الدعاء في زمن الغيبة "، نقلاً عن «السيد أبن طاووس» في (جمال الأسبوع)...

(١٧) قال «السيد أبن طاووس» ﷺ: إذا فرغت من زيارة «العسكريين» ﷺ فأمضِ إلى السرداب المُقدَّس وقِفْ على بابه وقُلْ: ... الحديث. ذكر في (البحار) (ج١٠٢ ص٨٤ ح ٢).

إنَّكَ لأنتَ الدين المأثور، وأنتَ الكتابُ المسطور، وأنتَ الرقُّ المنشور [١٨]، وأنتَ نورُ شجر الطور، وأنت نورٌ على نورٍ [١٩]، وإنك لأنتَ حاملُ السرِّ المستور الذي أستَتَرَ وخفيَ على الجميع، فكان في قلبك!... فمَن يكون هذا؟

عليكم بتلاوة هذه الأدعية وقراءتها، لتتعرَّفوا على سعة دائرة حكومته، لقد جاء في دعائه وزيارته: "السلامُ عليك يا حُجَّةَ الله التي لا تخفى، السلامُ عليك يا حُجَّةَ الله على مَن في الأرض والسماء" [٢٠]، إنه حُجَّةٌ على الأرض ومَن في الأرض، وحُجَّةٌ على مَن في السماء، إن سلطانه يمتدُّ في الملك والملكوت، في الأرض والسماوات... هذه هي السِعَةُ العَرْضِيَّةُ لحكومته، وأمَّا السِعَةُ الطوليَّة (فتظهر من هذا النص):

"أشهد أنَّكَ الحُجَّةُ على مَنْ مضى ومَنْ بقي" . [٢١]

إنَّ الوقت لا يُسعِفُني ولا يَسَعُ أن أُبيِّن كيف يكونُ «الإمام المهدي» ﷺ حُجَّةَ على «نوح»، وعلى «إبراهيم»... حُجَّةٌ على مَنْ مضى وحُجَّةٌ على مَنْ بقي.

كانت تلك سَعَةُ سلطانه وحكومته العَرْضِيَّة، وهذه هي السِعةُ الطُوليَّة لِحُجِّيته ﷺ... إنه وَجْهُ الله، ولكن أيُّ وجهٍ لله؟

يقول الدعاء (دعاء الندبة): "أينَ وَجْهُ الله الذي يتوجَّهُ إليه الأولياء" . [٢٢] إنه الوَجْهُ الذي يتوَجَّهُ به الأولياءُ إلى الله! إنَّها كلمة تبْعَثُ على الدهشة والذهول، فإنَّ مفادَها أنه ﷺ الوَجْهُ الذي يتوَسَّلُ به جميعُ الأولياء إذا أرادوا التوَجُّهَ إلى الله!

---

(١٨) جاء في زيارة لـ «الحجة» ﷺ: "السلامُ على صاحب الدين المأثور، والكتاب المسطور...". انظر (البحار) (ج١٠٢ ص١٠١)، كما جاء في زيارة لـ «أمير المؤمنين» ﷺ: "أشهد أنك الطور، والكتاب المسطور، والرقّ المنشور، وبحر العلم المسجور...". (البحار) (ج١٠٠ ص٣٠٤ ح٢٢).

(١٩) انظر (بحار الأنوار) (ج٣٩ ص٣٤٩ ح٢٠).

(٢٠) المصدر السابق (ج١٠٢ ص١١٧ ح٢).

(٢١) المصدر السابق (ج١٠٢ ص ٩٩).

(٢٢) المصدر السابق (ج١٠٢ ص١٠٧).

ومَن هم الأولياء (وأي شأن لهم)؟ (حتىٰ نعرف مَن هم أولياء الله ونفهم الرواية) لا بُدَّ أن يُضَمَّ الحديثُ إلىٰ القرآن: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾ (يونس)، إذا بَلَغَ العِبادُ هٰذه الرُّتبةَ، (وصاروا يتمتَّعونَ بهٰذه الصفات)، عندها يصبحون أهلاً لأن يتوسَّلوا إلىٰ الله بواسطته (بواسطة «الحُجَّة» ﷺ، ويكونون مُستَحقّينَ لهٰذا الشرف)!

روحي وأرواحُ العالمين لك الفداء... إيه أيتها الجوهرةُ المحفوفةُ بالأسرار، كم جهلناكَ وكم بخسناكَ حقَّك؟! كم أغفلنا ذكركَ وانشغلنا بغيْرِكَ، كم سرَّحنا أفكارنا بعيداً عنك؟ أتُراكَ تعطف علينا اليوم بنظرة من تلك التي مَنَنْتَ بها علىٰ ذاك الرجل صاحب الحمَّام (العمومي)، فتمْسَحَ قلوبَنا بذاك الإكسير؟! فنحنُ في هٰذا الحمىٰ...!

ذاك الرجل الحمَّاميُّ (صاحب حمَّام عمومي) في «الحِلَّة»[٢٣]، الذي ما كان يطيقُ سماعَ أو تذكُّرَ مصيبة «الزَّهراء» ﷺ وضلعها المكسور! وما كان يملك لسانه عن ذكر مثالب قاتلي «فاطمة» ﷺ والطعن فيهم، كُلَّما تذكَّرَ دفن ذلك الجسد، الذي لم يكن حين وُرِيَ الثرىٰ إلّا هيكلاً من جلد وعظم[٢٤] (من الضعف والقهر)...[٢٥]

---

(٢٣) «الحِلَّة»: مدينة علىٰ «نهر الحِلَّة» (المتفرِّع من «الفرات») في «العراق»، مركز «محافظة بابل».

(٢٤) كان نشيج الحضور وموجات بكائهم تهزُّ أركان «المسجد الأعظم» وتقطع علىٰ «الشيخ» ﷫ حديثه، وهٰذا أمرٌ تكرَّر في عدَّة مَواضعَ من المحاضرات السابقة، فاتني أن أُشير إليه...

(٢٥) ذكر «المحدِّث البحراني» في «عوالم فاطمة» (ج١١ ص٢٥٦): روىٰ «ورقة بن عبدالله الأزدي» عن «فضَّة» أَمَة «فاطمة بنت رسول الله» ﷺ:

إعلَم أنه لما قُبِضَ «رسول الله» ﷺ... فتبادرت النسوان، وخرَجَت الولائد والولدان، وضَجَّ الناس بالبكاء والنحيب، وجاء الناس من كُلِّ مكان، وأُطفئت المصابيح لكَيْلا تتبيَّنَ صَفَحاتِ النساء، وخُيِّلَ إلىٰ النسوان أنَّ «رسول الله» ﷺ قد قامَ من قبره! وصارت الناس في دهشة وحيرة لما قد رهقهم، وهي ﷺ تنادي وتندب أباها: وا أبتاه، وا صفيَّاه، وا مُحمَّداه، وا أبا القاسماه، وا ربيع الأرامل واليتامىٰ، مَن للقِبلَةِ والمُصلَّىٰ، ومَن لابنتك الوالهة الثكلىٰ.

←

هٰذه هي الحالة (الخصوصيَّة) التي يتمتَّعُ بها هٰذا الرجل، وإذا أكتسبناها وحصلنا عليها، فمن الممكن أن نحظىٰ (نحنُ أيضاً) بنظرة منه (من «الحُجَّة» ﷺ).

بلَغَ خبَرُهُ الحاكم، فأمرَ به وأُلقيَ القبض عليه، وأخذوا في ضربه وتعذيبه حتىٰ قالوا: كفاه!... تثرَّمتْ أسنانُهُ، وقطعوا لسانَه، وجَدَعوا أنفه بإحداث ثقب فيه ثم ربطوا فيه مَرَساً (حبلاً) وأخذوا يجولون به الأسواق! ثم أعادوه إلىٰ داره وألقوه هناك... وذهبوا!

لـمّا عادوا إليه في صباح اليوم التالي وَجَدُوه قائماً يصلّي (مشغولاً بأداء الصلاة)! وبَدا كأنَّه شَخْصٌ آخر! فقد نبتَتْ أسنانُه، وعوفيت أسقامُه، وزالت جراحاته! أنقَلَبَ القبيحُ (بفعل الجراحات والتعذيب) إلىٰ صورة حَسَنةٍ، وهيئة جميلة، وشمائل مليحة، وكأنما أنقَلَبَ ذلك الشيخ المُسنُّ إلىٰ فتىً في ريعان الشباب!

ما الأمر؟ كيف نبتَتِ الأسنانُ بعد أن قُلِعَت، وكيف صَحَّ البدَنُ وسَلِمَ الجسمُ وأعتدَلَ القوامُ وعادت الشيخوخةُ شباباً؟ كيف تحوَّلَ الجِلْدُ المتفسِّخُ والوَجهُ المتقشِّرُ، إلىٰ مليح جميل؟! أيُّ كيمياء هٰذه؟ فخاصِّيَّة الإكسير القلبُ والتحويل، ولٰكنه تحوُّلٌ وأنقلابٌ محدودٌ، فأيُّ إكسير هٰذا الذي لا حدَّ لتأثيره ولا حدودَ لفِعْلِه؟

←

ثم أقبلت حتىٰ دَنَت من قبر «أبيها»، فلمَّا نظرت إلىٰ الحجرة وَقَعَ طرفها علىٰ المئذنة فقصُرت خُطاها، ودام نحيبها وبكاها، إلىٰ أن أُغميَ عليها.

فتبادرت النسوان إليها، فنَضَحْنَ الماء عليها وعلىٰ صدرها وجبينها حتىٰ أفاقت، فلمَّا أفاقت من غشيتها قامت وهي تقول: رُفِعَتْ قوّتي، وخانني جلَدي، وشمت بي عدوّي، والكَمَدُ قاتلي... يا أبتاه أمسينا بعدك من المستضعفين، يا أبتاه أصبحت الناس عنَّا مُعرضين، ولقد كُنَّا بك مُعظَّمين في الناس غير مستضعفين، فأيُّ دمعة لفراقك لا تنهمل، وأيُّ حزن بعدك عليك لا يتَّصل، وأيُّ جَفن بعدك بالنوم يكتحِل... فكيف للجبال لا تمور، وللبحار بعدَك لا تغور، والأرض كيف لم تتزلزل، رُميتُ يا أبتاه بالخطب الجليل، ولم تكن الرزيَّة بالقليل....

وبدل المواساة والعزاء، وتسكين خاطر هٰذه الثكلىٰ المصابة، عمدوا إلىٰ زيادة محنها ومصائبها: فغصبوها إرثها، ومنعوها من البكاء، وأحرقوا دارها، وكسروا ضلعها، وأسقطوا جنينها... ألا لعنة الله علىٰ القوم الظالمين، من حين أجرموا إلىٰ قيام يوم الدين.

سألوه عمّا حدَثَ له، فقال:

عندما ألقوني هنا، شاهدتُ الموت (بأُمّ عيني)، وكُنتُ من الضعف بحيث عجَزَ لساني (حتى) عن النطق، فنَدَبْتُهُ (أي «الحُجّة بن الحسن» ﷺ) بقلبي وهتفتُ في ضميري: يا «صاحب الزمان»! وما أن حدَثَ ذلك حتى رأيته جالساً إلى جواري! فنظر إليّ نظرَةً، ووضع يده على جسمي، وقال لي: انهض، وأذهب في تحصيل قوت عيالك!

لم تكن ثمّة حاجة لِيَمْسَحَ على جميع أعضاء (ذلك) الجسم المثقل بالجراحات والآلام، (فقد) وَضَعَ يَدَهُ على بدن الرجل (لَمَسَ جسمه لمساً) وقال له: انهض.

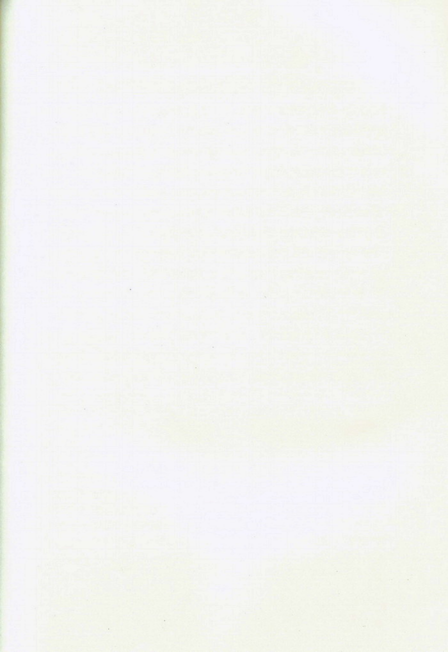
هذا ما حصل...

إذا خَطَوْتَ في سبيله خطوة، فنِلْتَ من كيمياء وجوده وأصابَكَ منه شيءٌ، فسَيُحدِثُ انقلاباً في عالم مُلكِكَ ومَلكوتك!

نعم، إنّها يَدُ الله... صلّى الله عليك، صلّى الله عليك، صلّى الله عليك عَدَدَ ما في علم الله، صلاةً دائمةً بدوام مُلكِ الله تعالى.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

❁ ❁ ❁



المحاضرة السادسة

التاريخ: ١٢/رجب/١٤١١هـ
الموافق ١٩٩١/١/٢٨م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: ظلامة عليٍّ عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك رواية، وهي رواية صحيحة، وهذه الصحيحة هي من تِلكُمُ التي ينبغي لأهل الفقاهة، بل المتعمِّقينَ منهم، التمعُّنَ والتدقيق فيها...

لقد صحَّحَ «الذهبي، أبوعبدالله شمس الدين»، إمامُ النقد والحديث والرجال، هذه الرواية. وهي تمتاز بأنها تنتهي في إسنادها إلى مَن يصفه «الذهبي» - وهو العامد إلى إسقاط أغلب الروايات التي تنصُّ على فضائل «أميرالمؤمنين» عليه السلام - قائلاً: "وكانَ رأساً في العلم والزهد والجهاد وصدق اللهجة والإخلاص". [١]

لعلَّ هذا الحديث يبلغ بعض أهل الفكر من العامَّة، كما بَلَغَهُم القَوْلُ السابق، وعليهم أن يُسرِّحوا النظَرَ بتعمُّقٍ ورؤيةٍ متفهِّمة في ما نقول، لا بالمستوى الابتدائي (الأوَّلي والسطحي) للفقاهة، بل بمستواها وسطحها العالي (المُعمَّق).

(١) انظر (تذكرة الحُفَّاظ) (ج١ ص١٧).

إنَّ ما يجب أن تلتفت إليه هذه الطبقة (أي ذوُو الفكر الثاقب)، هو هذه الجهة: بلوغهم الغاية في حمل وتحميل السُنَّة سَنَداً ومَتْناً... والشاهد على هذا الأمر هو إيغال محققيهم في قَلْبِ المتون، من قبيل فعلهم بحديث مرفوعة «أنيسة» الذي جاء في أذان «ابن أُمِّ مكتوم» و«بلال»[٢]، سواء من حيث الرواية أو من حيث الرأي الفقهي.

وهكذا قيام هذه الطبقة بقلْب الأسانيد! ومثال ذلك ما قام به «حمَّاد» في مئة مورد من قلب الأسانيد على متون، والمتون على أسانيد[٣]، وفي عرضها على «البخاري»، وقد نُفِّذَ الأمرُ في هذه الموارد في غاية الإتقان!...

(لكن) وهذا مما لم يَخْفَ على المحقِّقين من علماء الخاصَّة (الشيعة) وذوي التخصُّصِ في الحديث، الضليعين في معرفة موارد القَلْبِ والرَفعِ والتدليس وأضرابها من الأقسام الستَّة والعشرين للسُنَّة. [٤]

---

(٢) إشارة إلى ما ذكره «الشيخ الصدوق» ﷺ: "كان لـ «رسول الله» ﷺ مؤذنان، أحدهما «بلال» والآخر «ابن أُمِّ مكتوم». وكان «ابن أُمِّ مكتوم» أعمى، وكان يؤذِّنُ قبل الصبح، وكان «بلال» يؤذِّنُ بعد الصبح. فقال «النبيُّ» ﷺ: إنَّ «ابن أُمِّ مكتوم» يؤذِّنُ بالليل، فإذا سمعتم أذانه فكُلُوا وأشْرَبوا حتى تسمعوا أذان «بلال».

فغيَّرت العامَّةُ هذا الحديث عن جهته، وقالوا إنَّه ﷺ قال: إنَّ «بلالاً» يؤذِّن بليل، فإذا سمعتم أذانه فكُلُوا وأشْرَبوا حتى تسمعوا أذان «ابن أُمِّ مكتوم»"! انظر: (من لا يحضره الفقيه) (ج١ ص١٩٤ ح ٩٠٥).

و«ابن أُمِّ مكتوم» هذا هو "الأعمى" الذي أنزل الله سبحانه وتعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝﴾ في «عثمان بن عفَّان» عندما عَبَس في وجهه وأعرَض عنه، وقابلَه وتعامَلَ مَعهُ بتلك الطريقة التي أستوجبت التقريع والزجر القرآني.

(٣) نسبة الحديث إلى غير رُواته، وإسناد الروايات إلى غير رجالها!

(٤) هناك ثلاثون نوعاً تشمل الأُصول:

الصحيح والحسن والموثَّقُ والضعيف، وجملة المشترك ثمانية عشر نوعاً، ومنها ما يختصُّ بالضعيف وهو ثمانية، فجملة الأنواع والفروع ستة وعشرون، ومع الأُصول يكون المجموع ثلاثون... ذكرها «الشهيد الثاني» في كتابه (الرعاية في علم الدراية) (ص٩٥).

أمَّا ما فاتهم، وما يجب أن يُذعِنوا أنهُم مُتخلِّفونَ فيه، فهو فِقهُ الحديث، والنسبة بين فِقْهِ الحديث والعلوم التي أشرنا إليها هي كالنسبة بين القشور واللُّباب... فماذا أنتجوا فيه وأين بلَغوا (وَصَلوا)؟

ماذا فعلتم بالحديث الذي صحَّحَ سنده أشدُّ نُقَّادِكم («الذهبي»)؟ وهو قولُ «رسول الله» صلى الله عليه وآله: "مَن أطاعني فقد أطاعَ الله، ومَن عصاني فقد عَصَى الله، ومَن أطاعَ عَلِيّاً فقد أطاعني، ومَن عَصَى عَلِيّاً فقد عصاني"؟ (٥)

وبماذا خرجتم (ما هي حصيلتكم) من هذا الحديث؟

إنَّ هذا الحديث مَرْوِيٌّ عن شَخْصٍ («أبي ذر الغفاري» رضي الله عنه الذي) نَقَلَ «الذهبيُّ» في (تذكرة الحفَّاظ) عن «رسول الله» صلى الله عليه وآله أنه قالَ في حقِّه:

"ما أظَلَّتِ الخضراءُ ولا أقَلَّتِ الغبراءُ أصدَقَ لهجة من أبي ذَر". (٦)

كيف أمْكَنَكُم المرور على مثل هذا الحديث، المروي بهكذا سند (بهذا السند الصحيح)، مُرورَ الكرام، دونَ تمعُّنٍ وتدبُّر؟ ونحن لا يمكننا الدخول ـ على هذه العُجالة ـ في فقه هذا الحديث، ولكننا سنعمل بقاعدة "الميسور"... (٧)

ففي هذا الحديث أصلٌ وفرع، هناك شجرة وثمرة، هناك عِلَّة ومعلول...

أمَّا البحث في المعلول وما يترتَّبُ عليه: أوَّل ما يُستفادُ من عبارة: "مَن أطاعني فقد أطاعَ الله، ومَن عصاني فقد عَصَى الله، ومَن أطاعَ عَلِيّاً فقد أطاعني، ومَن عَصَى عَلِيّاً فقد عصاني"، وما ينتج عنها هو عِصْمَةُ «عليِّ بن أبي طالب» عليه السلام، فكَيفَ غفلتم عن هذا الأمر وحَصَرْتُمُ العِصمَةَ في «رسول الله» صلى الله عليه وآله، مع أنَّ الحديث نَصٌّ في عِصْمَةِ «عليٍّ» عليه السلام؟

(٥) انظر (المستدرك) لـ «الحاكم النيسابوري» (ج٣ ص١٢١، ١٢٨) عن «أبي ذر الغفاري» رضي الله عنه، وقد صحَّحَهُ «الذهبي» في (تلخيصه).

(٦) انظر (تذكرة الحفاظ) (ج١ ص١٨).

(٧) لا يترك الميسور بالمعسور...

وبرهان ذلك هو أنَّ مَن أطاعَهُ فقد أطاعَني (أي أطاعَ «الرسول») وطاعَتي طاعةُ الله، ومن عصاهُ فقد عَصاني (أي عصىٰ «الرسول») وعَصياني عصيانُ الله، فإن كانت إرادةُ «عليٍّ» عليه السلام تتَخَلَّفُ عن إرادة الله، وكان ما يكْرَهُهُ «عليٌّ» عليه السلام يتَخَلَّفُ عَمَّا يكرهه الله، فإنَّ عبارة: "مَن أطاعَ عَلِيّاً فقد أطَاعَ الله " (عبارة) خاطئة (لا تستقيم)! وهٰكذا "مَن عصىٰ عَلِيّاً فقد عصىٰ الله " أمرٌ باطِلٌ لا يَصِحُّ!

و إذا كان هٰذا الشِقُّ من القضيَّة صحيحاً وحقّاً، فإن إنكارَ عِصْمَةِ «عليِّ بن أبي طالب عليه السلام ظُلْمٌ وباطل.

ونعودُ للعِلَّة: إلىٰ جذر هٰذه الرواية...

والحديثُ صادِرٌ ممن هو أعلَمُ مَن في الوجود بعد الله (أي «النبي» صلى الله عليه وآله)، ولم يأتِ هٰذا الحديث لِكَي يُضبطَ ويُدَوَّنَ في الكُتبِ فحَسْب، فـ "طَلَبُ العِلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مُسلم، فأطلبوا العِلْمَ من مَظانِّه، وأقتبسوه من أهله". (٨)

لقد بدأ «النبيُّ» صلى الله عليه وآله هنا ودَخَلَ (في الحديث الأصلي الذي يدور عليه البحث) من طريق عقلي، وأنتهىٰ صلى الله عليه وآله بالقضية إلىٰ الإرشاد العقلي...

وهٰذا ـ لَعَمْري ـ هو شأنُ مَن له هٰذا المقام العِلميُّ الشامخ.

لقد بدأ من عنوان شخصه الشريف "أطاعَني"، وكان مَجْرىٰ الكلام يربط البداية بـالله لا بـ «عليٍّ» عليه السلام، وفي هٰذا نكتـة عميقـة نعـرض عنهـا لـضيق الـوقت، أي أنَّ «النبيَّ» صلى الله عليه وآله يقول: كلُّ مَن دخلَ في دائرة ونطاق "مَن أطاعَني"، فعليه أن يطيع الله، ولا أستثناء. من هنا يبدأ الأمر، وهٰكذا يمضي ليصِلَ إلىٰ: كلُّ من دخل في هٰذا النطاق عليه أن يدْخُلَ في دائرة إطاعتي أنا.

كيف أغمَضتُم هٰذه النكات ولم تفكِّروا فيها؟!

إنَّ مسؤولية العالِم ليست كمسؤولية الجاهل...

---

(٨) انظر (بحار الأنوار) لـ «العلامة المجلسي» (ج ١ ص ١٧١ ح ٢٤).

لقد قَصَدَ ﷺ أن يقول: يجب، من منطلق عقليٍّ ونقليٍّ مُبَرْهَن، على كُلِّ مَن يُطلَقُ ويَصدُقُ عليه "مَنْ" - ولا يخرج من هذا العنوان ذو عقل - أن يدخُلَ في دائرة طاعة الله، وبطبيعة الحال فالدليل العقليُّ على هذا الوجوب يثبت (قائم) على نحو الأستقلال، أما النقليُّ فعلى نحو الإرشاد...

وهكذا، ومن المنطلق نفسه، فإنَّ كُلَّ مَن كان في تلك الدائرة (دائرة طاعة الله سبحانه وتعالى) عليه أن يدخل في دائرة طاعتي، لأنني ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ (النجم)، وبما إني كذلك (وما زال الكلام مُقدَّرٌ لـ «رسول الله ﷺ»)، فلا بُدَّ لِمَن كانَ واقعاً في نطاق تلك الدائرة، أن يكون في (نِطاق) هذه (الدائرة) أيضاً.

وعلى إثْرِ هاتين العبارتين، قال ﷺ: "مَن أطاعَ عَلِيّاً فقد أطَاعَني"...

إذن فتلك الـ "مَنْ" مُتطابقةٌ مع هذه الـ "مَنْ" التي ترسمها دائرةُ إطاعَةِ «عليٍّ» وعصيانه. والمهم في هذا المقام أنَّ «النبيَّ» ﷺ أعلَنَ - من خلال هذا العرض - أنَّ «علياً» هو وَجْهُ الله، وهذه نكتة يجب أن يدركها فقهاء التسنن.

ونحنُ عندما نقول إنَّ «علياً» ﷺ هو وَجْهُ الله إنما نتكئ ونستند في ذلك إلى دليل وبرهان، وهذا البرهان ليس مُتَّخَذاً من حديث شيعيٍّ، بل من رواية غير قابلة للإنكار والردِّ عند أيٍّ من أهل الفن والتَّخَصُّصِ (من الفريقين).

أمَّا توضيح المطلب: ما هو مبدأ الأمر والنهي، وما هو منتهاهما وغايتهما؟

إنَّ الطاعةَ والمعصيةَ هما المنتهى والغاية (بمعنى الحدِّ النهائي)، والمبدأ هو الإرادة، أما الكراهة فهي الحدُّ المتوَسِّطُ بين الأمر والنهي... إنَّ الطاعة والمعصية معلولة للأمر والنهي، والأمر والنهي معلول الإرادة والكراهة، ولا يمكن أن تكون الطاعةُ طاعةَ الله، إلّا إذا كان الأمرُ أمرَه، وهكذا المعصية يستحيل أن تكون معصيةً لله، إلّا إذا كان النهيُ نهيَ الله، ومن المستحيل أن يكون الأمرُ أمرَ الله، والنهيُ نهيَهُ إلّا إذا كانت الإرادة إرادةَ الله، والكراهةُ كراهتَهُ سبحانه وتعالى...

هـذا ما أرادَ الحديثُ الشريفُ بيانَهُ والإفصاح عنه، أرادَ أن يقول:

إنَّ إرادةَ «عليٍّ» ﷺ هي إرادةُ الله، وكراهته هي كـراهـة الله! ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝﴾ (ق).

تأمَّلـوا جيِّداً في مراحل حديث «النبيِّ» ﷺ: "مَن أطاعني فقد أطاعَ الله، ومَن عصاني فقد عَصَى الله"... إنَّه حديثٌ تقشعِرُّ منه جُلودُ الذين يفهمونه، ويولِّد في النفس أضطراباً يَبْكُمُ مَعَهُ لسان المرء وينعقد! فليس أمر إغماض (مثل) هـذا الحقِّ بهـذه السهولة حتى يمكن للمرء أن يتجاوزه ويمضي!

إنَّ للحديث قسمين وفي كُلِّ قِسْم وَرَدَتْ عبارتان...

في القسم الأوَّل، نلاحظ أنَّ "الفاء" و"قد" جاءتا في كِلتا العبارتين، أي قول «النبيِّ» ﷺ: "مَن أطاعني فقد أطاعَ الله" و"مَن عَصاني فقد عصى الله"، وكما جاءت "الفاء" في هـذا القسم (بعبارتيه) للتفريع، و"قد" للتحقيق، و"مَن" للتعميم، كذلك جاءت في القسم الثاني (بعبارتيه): "ومَن أطاعَ عَلياً فقد أطاعَني، و"مَن عَصَى عَلياً فقد عَصاني".

وهنـا نخلُص ـ وفق برهـان أرتبـاط البدن بـالـروح وفنـاء الإرادة في إرادة الله، وفناء الغضب في غضب الله ـ إلى نتيجة، (مفادها) وهي: إذا ما تغيَّر وَجْهُ «عليٍّ» ﷺ غضباً، إذا أحْمَرَّ مُحيَّاهُ (الشريف) غضباً، فليس ثَمَّ وَجْهُ «عليٍّ»، بل هو مرآة غضب الله سبحانه وتعالى، ولو تفتَّر ثَغْرُ «عليٍّ» ﷺ عن أبتسامة، فما الباسم ـ هنا ـ ثَغْرُ «عليٍّ»، إنما مرآة رضا الربِّ سبحانه وتعالى!

وكيف ذلك ولماذا؟

لأنَّ هـذه الإرادة فانية في تلك الإرادة، والكراهـة فانية في تلك الكراهـة، وما هـذه الإرادة والكراهـة إلّا مَظْهَـرٌ وأنْعِكَاسٌ لتلك الإرادة والكراهـة، إنَّ أنعِكاسَ تـأثيرات الروح التي تتجلّى على البدن، هي ـ بالضرورة ـ أنعِكاسٌ لتلك الإرادة والكراهة، من هنا يصبحُ «عليٌّ» ﷺ ـ بالضرورة ـ هو وَجْهُ الله الأحسن.

لا ينبغي عَرْضُ ما جاء في تفاسيرنا وأحاديثنا (نحن الشيعة)، من أنَّ «عليّاً» ﷺ هو يَدُ الله، وهو وَجْهُ الله، على حفنة من البُلْهِ الجهلة!... إنها جواهر العلم والحكمة، وكُلُّها مُستَنِدَةٌ (قائمة) على أُسُسٍ عَقليَّة ومنابعَ نقليَّة، إنَّ السُذَّجَ والبُسطاء، أو بعضَ العوام من الخواص، الذين يَتَصَوَّرون هذه الأمور غُلُوّاً، لم يَشَمُّوا رائحة العلم والحكمة، ولم يفقهوا الكتابَ والسُنَّة، وما عَلِموا أنَّ الإنسان يمكنه أن ينالَ مَرْتبةً ويبلغ مقاماً يُصبِحُ فيه مَظهراً للسرِّ الـمُسْتَسِرِّ، للاسم الأعظم، لغيب الغيوب.

وذاك الظُهورُ هو الذي يؤثِّرُ ويتجلّى في روحه أيضاً، ليبلغ - حينها - من القُدْرة مقامَ "يَدِ الله"، ويتحقَّقُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال)، فيقول ﷺ: "والله ما قَلَعتُ بابَ خَيْبَر ورميتُ به خلفَ ظهري أربعينَ ذراعاً بقُوَّةٍ جَسَديَّة، ولا حركة غِذائيَّة، لكنّي أُيِّدْتُ بقوَّة مَلَكوتيَّة ونَفْسٍ بنور ربِّها مُضيئة". [(٩)]

إنَّ هكذا بشر، هكذا إنسان، هكذا موجودٌ يُحلِّقُ فوق أطوار العَقلِ والفِكْر، الذي جاءت في حقِّه هذه الرواية التي ذكرناها اليوم، ولم نتمكَّن من بيان حقيقة ما تريد أن تقوله... مثل هذا الإنسان أنزَلَهُ الدَّهرُ حتى صارَ مُؤَخَّراً وصارَ غيْرُهُ مُقدَّماً.

أوَهل يمكن إغماض هذا الظلم وتجاهله؟

مَن الذي تأخَّرَ، ومَن الذي تقدَّم؟!

إن كُنتَ فقيهاً من (أهل) السنَّة، هلَّا فكَّرتَ في هذا الحديث؟

وهل فكرت في ما قالَهُ «أبنُ حَجَر» في شرْحِهِ لـ «صحيح البخاري»[(١٠)]، حيث نقَلَ روايةً وقال (عنها) إنَّ جميعَ أئمة الحديث قد ذكَروها، وهي ما جاء في ما أمر به «عمر بن الخطاب» من رَجْمِ المجنونة الحبلى، تلك المرأة المجنونة التي حملت من سِفاح، فَسَاقُوها لتنفيذ الحكم، فاعترَضَ «أميرُالمؤمنين» ﷺ طريقَهُم وأمرَهُم بالتوقُّف.

---

(٩) عن «الصادق»، عن «آبائه» ﷺ، أنَّ «أميرالمؤمنين» ﷺ قال في رسالته إلى «سهل بن حنيف» ﷺ: "والله ما قلعتُ بابَ خيبر..." الحديث. انظر (البحار) لـ «العلّامة المجلسي» (ج٢١ ص٢٦).

(١٠) راجع (فتح الباري) (ج١٢ ص١٠١)، حيث ذكَرَ هناك مُعظَم المصادر الروائية لهذه القضية.

فأرْجَعوها وقالوا لـ «عمر» إنَّ عَلياً عَطَّلَ إجراء الحدِّ (تنفيذ العقوبة)!

فلمَّا حَضَرَ «عليٌّ» ﷺ سألَهُ «عمر» عن سبب ما أقْدَمَ عليه؟

ولَعَمْري، فإنَّ هذه القضيَّةَ تكفي لإتمام الحُجَّة!

فأخَذَ «أميرُالمؤمنين» ﷺ في محاسبة «عمر» وقال له: أما عَلِمْتَ ما جاء في الحديث أنَّ القلَمَ رُفِعَ عن المجنون؟!

إنَّ هذا الرجل (الخليفة الثاني «عمر بن الخطّاب») الذي خلط في الحكم بين العاقل والمجنون، ولم يستطع ولم يتمكَّن من تشخيص وتمييز حُكْم العاقل وفرقه عن حُكْم المجنون، مما كادَ - لولا عناية «عليٌّ» ﷺ ورقابته - أن ينتهيَ إلى ذنبٍ كانَ سَيُلَطِّخُ الدينَ الإسلاميَّ بعارٍ لن يُمْحى، ذلك بِقَتْلِ امرأة مجنونة بتهمة الزنا، على الرغم من أنَّها كانت تحمل في أحشائها طفلاً (بريئاً)... أصبح حاكماً على من يُعلِّمه!

ونحن نُعَظِّمُ الخطْبَ في أمرٍ (مثل) هذه الجريمة لأننا ننطلق من منطلق ديني وقرآني، وليس بمقاييس سَفَّاحي العصر (من حُكّام الجَوْر) الذين لا يُعيرُونَ للنفس الإنسانية وَزْناً ولا يَعْبأونَ بالقتل...

(إنَّ القضية ثابتة، ووقوعها من المُسلَّمات) وإنكارُ هذا الحديث الذي، نَقَلْتُهُ (لكم وهو على هذا الحدِّ من التوثيق والإسناد وفْقَ قواعد القوم وأُسُسِهم) هو بمثابة نَسْفِ فِقْهِ العامَّة (السنَّة) ونَقْضِ عُراه كلِّها!

إنَّ ما يُزري بالدين ويُشكِّلُ هتكاً وآستباحةً له، هو تقديم المفضول على الفاضل، وتقدُّمُ مثل هذا الشخص وتقلُّده زمامَ الأمور! تقدُّمُهُ على مَن طاعتُهُ طاعةٌ لله، ومَعصيتُه معصيةٌ لله، وعلمُه عِلْمُ الله، ورأيه هو حُكْمُ الله...

(إنني أتساءل) في حقِّ مَن جاءت: "أقضاكُمْ عليٌّ"؟

تُرىٰ مَن الذي رَوَىٰ: "عَليٌّ مع القرآن، والقرآنُ مع عَليّ". (١١)

---

(١١) «المعجم الصغير» لـ «الطبراني» (ج١ ص٥٥)، و«المناقب» لـ «الخوارزمي الحنفي» (ص١١٠).

و "أنا مدينة الحِكْمَةِ وعَليٌّ بابها". (١٢)
و "أنا مَدينةُ العِلْمِ وعَليٌّ بابها". (١٣)
و "أقضاكُم وعَليٌّ". (١٤)
نحنُ (رويناها) أمْ أنتُم؟

---

(١٢) انظر: (فتح الملك العليِّ بصحَّةِ حديث باب مدينة العلم عليٍّ) لـ «المغربي» (ص٥٩، ٤٢، ٤٢).

(١٣) انظر: (تاريخ دمشق) لـ «أبن عساكر» (ج٢ ص٤٦٤)، و«المستدرك» لـ «الحاكم النيسابوري» (ج٣ ص١٢٦، ١٢٧).

(١٤) انظر: «الأستيعاب على هامش الإصابة» (ج٣ ص٣٨)، و(فتح الباري) (ج٨ ص١٣٦). ومما يناسب المقام ما رواه «القاضي النعمان المغربي» في (دعائم الإسلام) (ج١ ص٩٢): عن «أبي عبدالله جعفر الصادق» ﷺ أنه قال يوماً لـ «أبن أبي ليلى»:

أتقضي بين الناس يا «عبدالرحمن»؟ فقال: نعم، يا «أبن رسول الله».

قال: تنزع مالاً من يدي هذا فتعطيه هذا، وتنزع أمرأة من يدي هذا فتعطيها هذا، وتحدُّ هذا وتحبس هذا؟ قال: نعم. قال: بماذا تفعل ذلك كلّه؟

قال: بكتاب الله. قال: كلُّ شيء تفعله تجدهُ في كتاب الله؟ قال: لا.

قال: فما لم تجدهُ في كتاب الله، فمن أين تأخذه؟ قال: فآخذه عن «رسول الله».

قال: وكل شيء تجده في كتاب الله وعن «رسول الله»؟ قال: ما لم أجده في كتاب الله ولا سنة «رسول الله» أخذته عن أصحاب «رسول الله».

قال: عن أيِّهم تأخذ؟ قال: عن «أبي بكر» و«عمر» و«عثمان» و«علي» و«طلحة» و«الزبير»، وعدَّ أصحاب «رسول الله» ﷺ.

قال: فكلُّ شيء تأخذه عنهم تجدهم قد أجتمعوا عليه؟ قال: لا.

قال: فإذا أختلفوا فبقَوْل مَن تأخذ منهم؟ قال: بقَوْل مَن رأيت أن آخذ منهم أخذت.

قال: ولا تبالي أن تخالف الباقين؟ قال: لا. قال: فهل تخالف «عليّاً» فيما بلغك أنه قضى به؟

قال: ربَّما خالفته إلى غيره منهم. فسكت «أبو عبدالله» ﷺ ساعة ينكت في الأرض، ثم رفع رأسه إليه، فقال: يا «عبدالرحمن»، فما تقول يوم القيمة إن أخذ «رسول الله» ﷺ بيدك وأوقفك بين يدي الله! فقال: أي ربِّ، إنَّ هذا بلغه عنِّي قولٌ فخالفه. قال: وأين خالفت قوله يا «أبن رسول الله»؟ قال: ألم يبلغك قوله ﷺ لأصحابه: أقضاكم «علي»؟ قال: نعم. قال: فإذا خالفت قوله (إي قول عليٍّ)، ألم تخالف «رسول الله»؟ فأصفرَّ وجه «أبن أبي ليلى» حتى عاد كالأُترُجَّة ولم يُحِرْ جواباً.

إنَّ مَنْ نـزَلَتْ فيه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ۝﴾ (الرعد) (أي «أميرالمؤمنين عليٌّ بن أبي طالب» ﷺ)[١٥]، والذي عنده "عِلْمُ الكتاب"، (الكتاب) الذي هو تبيانٌ لكُلِّ شيءٍ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ (النحل)... صارَ مُؤَخَّراً!

بينما صارَ ذاكَ الذي أخطأ الحكم في قضية المجنونة الحبلىٰ، وأَمَرَ برجمها، ولم يعلم أنَّ القلَمَ مرفوعٌ عنها، (صارَ) مُقدَّماً...

مثل هـٰذا الشخص يُصبِحُ مُقدَّماً؟!

وهـٰكذا «أبوبكر بن أبي قحافة»، الذي (يصرِّح ويعلن أنه) لا يعرفُ الحُكْمَ في إرث الجدَّة، (وهـٰذا) مما أورده «الحافظ الذهبي» في "تذكرة الحُفَّاظ" كَمَنْقَبةٍ وفَضِيلةٍ لـ «أبي بكر»! غافلاً أنه جاء بفضيحة لم تُبقِ للسنَّة والجماعةِ باقية!

إذ عندما تقلَّدَ (الرجل) إمامَةَ المسلمين، واعتلىٰ مِسنَدَ إمارة الدين، وَقَعَتْ قضيَّة أُثير فيها السؤال حول: هل تَرِثُ الجدَّةُ أم لا؟

فقال: لا أعلم من القرآن، ولا أعرف من سُنَّة «رسول الله» ﷺ شيئاً.[١٦]

ثم قال (سائلاً مَنْ ٱلتَفَّ به وحَفَّ!): هل فيكم مَنْ يَعْلَم؟

---

(١٥) راجع: (تفسير العيَّاشي) (ج٢ ص٢٢٠ ح٧٦، ٧٧ و ص٢٢١ ح ٧٨ و٧٩) و(تفسير القمي) (ج١ ص٣٦٧)، و(الكافي الشريف) (ج١ ص٢٢٩ ح٦)... في نزول الآية في «أميرالمؤمنين» ﷺ.

(١٦) هـٰذا نصُّ ما نقله «الذهبي»:

"... وكان أوَّل من أحتاط في الأخبار [أي «أبي بكر»، من هنا كانت إشارة «سماحة الشيخ» دام ظله أنَّ القوم نقلوا القضيَّة في معرض منقبة!) فَرَوىٰ «ابنُ شهاب» عن «قبيصة بن ذويب»: إنَّ الجدَّة جاءت إلىٰ «أبي بكر» تلتمس أن توَرَّث، فقال: ما أجدُ لكِ في كتاب الله شيئاً، وما علمت أنَّ «رسول الله» (ﷺ) ذكَرَ لكِ شيئاً. ثم سأل الناس فقام «المغيرة» فقال: حضرتُ «رسول الله» (ﷺ) يعطيها السُّدُسَ، فقال له: هل معكَ أحد؟ فشهد «محمد بن مسلمة» بمثل ذلك، فأنفذه لها «أبوبكر»".

انظر: (تذكرة الحفَّاظ) (ج١ ص٢).

فقامَ إليه «المغيرة بن شعبة»، رأسُ المَكْر (١٧)، المتجاهر الذي عَزَلَهُ «عُثمان بن عفّان» (١٨) وقال: حضرْتُ «رسولَ الله» يعطيها السُدُس... فأفتى «أبوبكر بن أبي قحافة» آستناداً لنقل «المغيرة بن شُعبة»! فأنظر كيف صارَ الذي يستجدي العلم من «المغيرة بن شعبة» الخليفةَ الأوَّل لـ «رسولُ الله» ﷺ! وصارَ مَن هو أسمىٰ من أن أصِفَهُ وأُعرِّفَه، الخليفة الرابع!

هل هٰذا من العقل أو الكتاب أو السُنَّة في شيء؟

(ألَم تقرؤوا قوله تعالىٰ:) ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝﴾ (يونس). (١٩)

(كيف تُساوون بين مَن يعلم ومَن لا يعلم والكتاب يقول:) ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝﴾ (الزمر)؟

أوَلا تنتظرون يوماً للحساب؟ (وهٰذا الكتاب يتوعَّد بالمساءلة:) ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝﴾ (الصافات)؟

ألَم يتبيَّن لكم هل أنَّ «أبا بكر» و«عمر» دخلا الدائرة التي رسم «رَسُولُ الله» ﷺ نطاقها عندما قال: "مَن أطاعَ عَليّاً..." أم خرجا منها؟

---

(١٧) يُراجَعُ حول مكْرِ «المغيرة بن شعبة» ودهائه: ‹الغدير› (ج٢ ص ٧٢ ـ الهامش)، حيث سرد «العلّامة الأميني» ﷺ جملة نصوص من المصادر السنيَّة علىٰ هذا المعنىٰ. أما بخصوص فسقه فقد عدَّدَ بعض الموارد من مصادر السنَّة فراجع ‹الغدير› (ج٦ ص١٣٧ـ١٤٣)... وكان «المغيرة بن شعبة» معروفاً بِسَبِّه «أميرالمؤمنين» ﷺ ونيله منه، كما ذكر ذلك «أحمد بن حنبل» في ‹المسند› (ج٤ ص٣٦٩ و ج١ ص١٨٨)، وكان أيضاً من جملة المتخلِّفين عن بيعة «أميرالمؤمنين» ﷺ بعد موت «عثمان». انظر ‹تاريخ الطبري› (ج٣ ص٤٥٢ ط القاهرة).

(١٨) انظر ما ذكره «العلّامة الأميني» في ‹الغدير› (ج٧ ص٣٢٥) من قصَّة عزل «المغيرة» علىٰ يد «عثمان»، نقلاً عن ‹تاريخ أبي الفداء›...

(١٩) راح «سماحة الشيخ» دام ظله يستشهد بآيات قرآنية في وقفة جمعت العِظَة والتقريع!

إذا كانا خارجين فقد خرجا عن دائرة "طاعة الله"! أمَّا إن كانا داخل دائرة الطاعة، فكيف صارا آمرين، و«عليٌّ» ﷺ مأموراً؟! إذن إمَّا أن يكون أصلُ الخلافة ساقطاً، أو أنَّ "الصِحاحَ" غير صحيحة، أو أنَّ المذهب باطل...(وإلَّا، كيف يمكن الجمع بين هذه وتلك وذاك)؟!

إنها أُمورٌ لا يمكن تجاهلها! ولكنَّ أمثالنا لا يُثمِّنُونها!

بمعنىٰ أنَّ عَزْلَ وإقصاءَ مثل ذلك الإنسان، وفي المقابل جلوس رجل بهذا المستوىٰ من العلم علىٰ كرسيِّ الوحي لا يسبب لنا اللوعة والأذىٰ! ولكنه يفعَلُ فِعْلَتَهُ في مَن قالت لـ «أسماء بنت عميس»: "يا أسماء لقد ذهب لحمي"!

ما الذي جرىٰ حتىٰ ذابَ لحم بدنها ﷺ؟

لقد ذابَ لأنها أدركَتْ ما جرىٰ وأحاطَت بما وَقَعَ!

لقد عَرفَت ـ بما تحمل من علم ـ أنَّ الهدَفَ من خَلْقِ العالَمِ قد أُضيع! لَقَد وَقَفَت، بما كانَت تتمتَّعُ به من حِسٍّ ربَّانيٍّ، علىٰ ضياع الهدف والثمرة التي من أجلها بُعِثَ جميعُ الأنبياء... إذ كانت الثمرة ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران)، لقد ضاعَ كُلُّ هذا، وراحَ أدراجَ الرياح!

لِـمْثلِ «عَليٍّ» ﷺ، لا يكونُ كَسْرُ الضلعِ أمراً قاتلاً، ولا يبعَثُ غَصْبُ "فَدَكٍ" الغُصَّةَ فيه والشَجَى...

إنَّ ما يَبْعَثُ اللوعة والأسىٰ في «عَليٍّ» ﷺ هو ما رآه من جلوس "رجل" يعترف أنَّ جميع الناس أفقه منه، حتىٰ المخدَّرات في الحجال...[٢٠]

---

(٢٠) انظر (شرح نهج البلاغة) لـ «أبن أبي الحديد المعتزلي» (ج١ ص٦١). الحديث: "كلُّ الناس أفقه من عمر حتىٰ المخدَّرات في الحجال"، ذلك لما منع المغالاة في الصداق. راجع (إحقاق الحق) (ج٨ ص١٨٢ ـ ١٩٣ وج١٧ ص٤٤٢ ـ ٤٤٤) . و(سنن البيهقي) (ج٧ ص٢٣٣)، و(مجمع الزوائد) (ج٤ ص٢٨٣)، و(الطرائف) (ص٤٧١)، و(الصراط المستقيم) (ج٢ ص٣٠٥).

جلوسه على منبر مَنْ أنزل الله فيه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ (النساء)، (أي «الرسول الأعظم» ﷺ)...(٢١)

إنَّ هذه المصيبة هي القاتِلَةُ لـ «عَليٍّ» ﷺ، وهذه المصيبة هي التي أذابت (مهجة) «الزَّهراء» ﷺ (وأنحَلَتْ جسمَها)، حتى عبَّر «أميرُ المؤمنينَ» ﷺ واصِفاً حالَتها وهو يلي تجهيزها: إنها كانت كالخيال!

أي لم يبقَ منها إلّا كهيئة الشَّبَح! (وما ذلك إلّا لذَوَبانها من أجل تلكَ المصيبةِ وعلى إثرها)...(٢٢)

---

(٢١) وقد ذكر «سماحة الشيخ» ﷺ في المقدمة العقائدية التي جعلها ديباجة رسالته العملية (منهاج الصالحين) (ج١ ص٢٦٨): "وغير خفي على أهل النظر أنَّ عظَمَة علم «النبيِّ» وحكمته ﷺ فوق أن تدركها العقول، فإنه الإنسان الكامل على الإطلاق، ومقتضى البرهان صيرورة ما في نوع الإنسان من الاستعداد للكمال العلميِّ والعَمَليِّ فعلياً في الفرد الكامل الذي لا أكمل منه، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ (النساء)، فما عدَّه العليُّ العظيم الذي لا حدَّ لعظمته عظيماً، يكون أعظم من أن تصِلَ إلى مبلغ عظمته الأفهام.

(٢٢) عن «أبي عبدالله الصادق» ﷺ قال: أوّل نَعْشٍ أُحدِثَ في الإسلام نَعْشُ «فاطمة» ﷺ، إنها اشتكت شكوتها التي قبضت فيها وقالت لـ «أسماء»:

إني نحلت وذهب لحمي، ألا تجعلي لي شيئاً يسترني؟

قالت «أسماء»: إني كُنت بأرض «الحبشة» رأيتهم يصنعونَ شيئاً، أفلا أصنع لك؟...

فدَعَتْ بسريرٍ فأكبَّتهُ لوجهه، ثم دَعَتْ بجرائد... ثم جلَّلَتهُ ثوباً، فقالت: هكذا رأيتهم يصنعون.

فقالت «فاطمة الزهراء» ﷺ: إصنعي لي مثله، أستريني سترك الله من النار. انظر (تهذيب الأحكام) لـ «الشيخ الطوسي» (ج١ ص٤٦٩، باب تلقين المحتضرين ح١٨٥). وعنه في (عوالم سيدة النساء) لـ «المحدِّث البحراني» (ص٥٢٣). وفي (الحدائق الناظرة) لـ «المحقِّق البحراني» (ج٤ ص٨٨):

وحديث أسماء مرويٌّ أيضاً من طرق العامة بروايات عديدة، إلّا أن «الصدوق» رواه في (العلل) عن «عمرو بن أبي المقدام» و«زياد بن عبيدالله» قالا: أتى رجل «أبا عبدالله» ﷺ فقال يرحمك الله تعالى هل تشيَّعُ الجنازة بنار، ويُمشى معها بمجمرة أو قنديل أو غير ذلك مما يضاء به؟

←

بعد هذا (من هنا) فَلْيَتعرَّفَ الحُضُورُ في هذا المجلس، وهم من طبقة الفقهاء أو المتفقهين الذين هم في سبيل الفقاهة، وظيفتهم (دَورَهم، ويقفوا على خطير مسؤوليتهم)...

فلو كُنتُم من عُلماءِ التسنُّن، فإنَّ وظيفتكم في الدفاع عن مَظلوميَّةِ «عَليٍّ» ﷺ ستكون بهذا القدر، في ضوء ثبوت هذه الرواية وصحَّتها عندكم؟

فكيف وأنتم من عُلماءِ الشيعة؟

إنَّ وظيفتكم الأساسية تتلخَّصُ في أمرين:

الأول: غَرْسُ بَذْرة مَحبَّة «عَليٍّ» ﷺ في القلوب...

والثاني: أن نعمل، في الوقت ذاته وبنفس المقدار، ودون قيد أُنمُلةٍ من فارقٍ أو تفاوت مع الأمر الأوَّل (غَرْسُ الولايةِ والمحبَّة)، نعمل على زَرْعِ بَذْرة بُغْضِ أعدائه في قلوب هذه الأُمة.

←

قال: فتغيَّر لَوْنُ «أبي عبدالله» ﷺ من ذلك!

ثم ساق الحديث ـ وهو طويل ـ فيما جرى بين «فاطمة» وبين الظالمين... إلى أن قال:

فلما نعي إلى «فاطمة» نفسها أرسلت إلى «أم أيمن» ـ وكانت أوثق نسائها عندها وفي نفسها ـ فقالت يا «أم أيمن» أنَّ نفسي نعيت إليَّ فادعي لي «علياً». فدعته لها فلما دخل عليها قالت له: يا ابن العم، أُريد أن أُوصيك بأشياء فاحفظها عليَّ. فقال لها قولي ما أحببت. قالت: تزوَّج «أمامَة» تكون لولدي بعدي مثلي، وأعمل نعشي (كما) رأيت الملائكة قد صورته لي. فقال لها: أريني كيف صوَّرته؟ فأرته ذلك كما وصف لها وكما أمرت به.

ثم قالت: فإذا أنا قضيت نحبي فأخرجني من ساعتك، أيّ ساعة كانت من ليل أو نهار، ولا يحضرن من أعداء الله تعالى وأعداء رسوله للصلاة عليَّ. قال: «عليٌّ» ﷺ: أفعل.

فلما قضت نحبها ﷺ وهم في جوف الليل، أخذ «عليٌّ» في جهازها من ساعته كما أوصته. فلما فرغ من جهازها أخرج «عليٌّ» ﷺ الجنازة وأشعل النار في جريد النخل ومشى مع الجنازة بالنار حتى صلى عليها ودفنها ليلاً... الحديث. ويمكن حمل الخبر الأول على التقية لاشتهار حديث «أسماء» بين العامة، أو أنَّ الملائكة صوَّرت لها ذلك وفق ما ذكرته «أسماء».

وٱعلَموا أنَّ الأُمةَ جمعاء ستُبتلى بلَعْنة ونقمَةٍ شاملة، لا يُعْلَمُ ما وراؤها، إذا ما ظَهَرَ بين "التولِّي" و"التبري" تفاوُتٌ ما، أو برز شيءٌ من فارق، ولو بمِثقَالِ ذرَّةٍ...

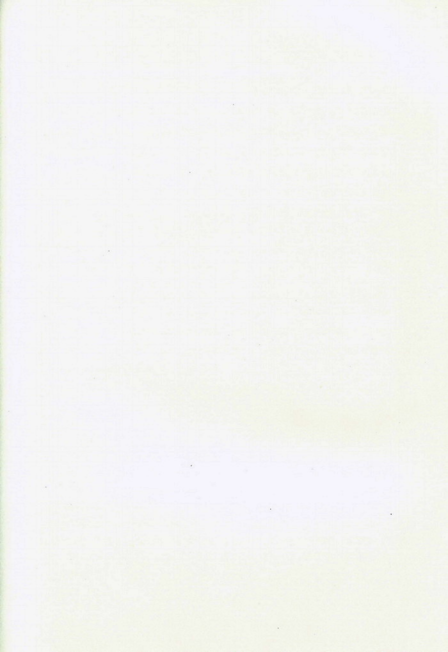
فإنَّ ثمَرَةَ جميع الجهود التي بُذِلَتْ مُنذُ الصدرِ الأوَّل حتىٰ يومنا هٰذا، تتلخَّص في إحقاق هٰذا الحقِّ، وإبطال ذاك الباطل...[٢٢]

وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الطيبين الطاهرين

(٢٢) مما ينبغي توضيحه وبيانه هنا أنَّ ما تفضَّلَ به «سماحة الشيخ» في هٰذه المحاضرة، وفي غيرها مما قد تجده في هٰذا الكتاب، من الحَثِّ علىٰ الوَلاء المقترن والملازم لأصل "التبرّي"، وبيان مثالب ومطاعن أعداء «أهل البيت»، كما تُبيِّن فضائلهم ومناقبهم، وعدَّها من المعتقدات التي يجب أن نورثها أبناءنا وننقلها للأجيال القادمة من أُمّتنا... إنما يدور في نطاق الفكر وعلىٰ صعيد المعتقد الذي يجب أن تنطوي عليه النفس فتذعنَ وتستقِرَّ، ويَعْمُر به القلب فيُسَلِّم ويَسْكُن، دون الفعل والسلوك وٱتخاذ المواقف التي قد تثير الفرقة بين المسلمين.

وقد كُنتُ حاضراً يوماً في مجلسه الخاص (في دارته المتواضعة) وهو يستمع إلىٰ شخص ينقل له قضايا حساسة من التشاحن المذهبي، كانت تختلق الفتن في بعض أطراف «إيران» (في قُرىٰ «زاهدان» من «بلوجستان») ويطالبه بموقف يسمح للشيعة بالردِّ ويُطلق أيديهم في المواجهة، مستشرفاً من التوجُّهات الولائية التي عُرِفَ بها «الشيخ»، وآملاً فيها...

فما كان من «سماحة الشيخ» ﷺ إلّا أن أجاب: "إنَّ نفس الأدلَّة التي تثبت الولاء لـ «أهل البيت»، وتلزمنا بوجوب البراءة من أعدائهم ومخالفيهم، نفسها توجب حرمة دَمَ السني وعرضه وماله، وأنا أُفتي بهٰذا. ولو تعرَّض سنيٌّ للاعتداء، وَجَبَ عليَّ الدفاع عنه كما أُدافع عن نفسي وأردُّ عن بيتي ومالي". وقد أشار «سماحته»، أو أمسَكَ بيده طرف السجادة التي كانت تفترش الغرفة (وكانَت باليةً، أو رخيصة زهيدة، أقرب إلىٰ البساط أو الحصير منها إلىٰ السجادة!)، وقال: "لو كان هٰذا الفرش لِسُنيٍّ وجاء مَنْ ينتهبه، لَوَجَبَ عَلَيَّ ردّه والدفاع عن مال السنيِّ ما ٱستطعت".



المحاضرة السابعة

التاريخ: ٩/ذي القعدة/١٤١٣هـ
الموافق ٢/٥/١٩٩٤م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: مقام الرِّضا ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُصادفُ يومَ غد، ميلاد «الإمام عليّ بن موسىٰ الرضا» أرواحُنا فداه، وهو يومٌ عظيمٌ، ونحن عموماً، وإن كُنّا نُجيدُ ونُتْقِنُ مسائل الفقه والأُصول، لكننا في هٰذه المسألة (ميلاد «الرضا») التي هي أهَمُّ المسائل... قاصِرُونَ ومقصِّرُون.

لقد قضينا أعمارَنا ونحن نُرَدِّدُ: «إمام»، فهل عَلِمنا أيَّ كلمة هٰذه؟ وهل أدركنا معناها؟ وهل عرفنا ما تشتمل عليه؟ وأنها موضوع لأيِّ سؤال؟ هل جرىٰ التحقيق (والبحث) في هٰذه المسألة أم لا؟

ومع ضيق الوقت، وعدم توفُّرِ (أفتقاد) الحالة (النفسيَّة) المطلوبة، فإني سأتناول ما يمكنني حول هٰذه المسألة، بعد الفراغ من الأعتراف (التسليم) بالقُصور والتقصير الذي يَحِفُّ هٰذا العرض، فهي ليست مسألة أُصوليَّة أو فقهيَّة لأكونَ قد أحَطْتُ بها، وهضمتُها تماماً... إنني في المرحلة الأبتدائية من هٰذا العِلْم، ولا أعرف في هٰذا العالم مَن تجاوَزها إلىٰ المرحلة المتوسطة! فكيف بالمرحلة النهائية؟

إنها مسألة في غاية الخطورة، لقد سَبَقَ ذلك الأسمَ المُقدَّسَ لفظَةُ «الإمام»، «الإمامُ عليُّ بن موسىٰ الرضا» عليه السلام، أمَّا ما تلاها، فهو مَنْ قال «خاتَمُ الأنبياء» عند ذكر أسْمِهِ: "قُلْ صلىٰ الله عليه، قُلْ صلىٰ الله عليه، قُلْ صلىٰ الله عليه". (١)

تُرىٰ ما هي الخصوصيَّة التي يتمتَّع بها «الإمامُ عليُّ بن موسىٰ الرضا» عليه السلام، التي جعلت «النبي» صلى الله عليه وآله يصلِّي عليه ثلاثاً عند سماع أسمه؟

إنَّ هٰذا بحَدِّ ذاته (يتطلَّب) بَحْثاً مُستقلاً.

أما البحث حول كلمة «الإمام»: إنَّ كلمة «إمام» مُشتقٌّ ينطوي علىٰ ذات مُبْهَمة من جميع الجهات، ومتعيَّنة من جهة مبدأ الإمامة، وهٰذه الكلمة تكونُ موضوعاً لسؤالين: سؤال بما هي، وآخر بمَن هو... فنحنُ نستخرج من هٰذا اللفظ (الإمام) مفهومَ الإمامة، وهو موضوع هٰذا السؤال: ما هي الإمامة؟ ويلي ذلك الجواب عن هٰذا السؤال.

والأمر الآخر يتعلَّق بمَن تلبَّس بهٰذا المبدأ (مبدأ الإمامة)؟ مَن تُراهُ يتمكَّن من ادِّعاء التلبُّس بهٰذا المبدأ؟ فيطرح السؤال الثاني نفسه: مَن هوَ الإمام؟

أما السؤال الأول، أي: ما هي الإمامة؟ فهو من العظَمة بحيث لو طُرِح علىٰ ذي عقل مُستنيرٍ واعٍ، مُحقِّق ومُدقِّق في القضايا، لأعْتَرَتْهُ الرَّعْشةُ والرجفة!

إنَّ جوابَ هٰذا السؤال مما لا يمكن العثور عليه، ولا يمكن أستيعابه، إلَّا في خطاب الباري تعالىٰ لـ «إبراهيم الخليل» عليه السلام، هناك تجد جوابَ هٰذا السؤال إذ يقول عزَّ من قائل: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝﴾ (البقرة). إنَّ الجوابَ يكمُنُ في كلمة "عهدي" التي جاءت في الآية، ومَن أستطاعَ أن يفهَمَ معنىٰ "العهد" (الإلهي)، فإنه سيتمكَّن من فَهْمَ: ما هيَ الإمامة؟ ولكن مَن عَسَاهُ أن يدَّعيَ فَهْمَ "عهد الله"؟

وهنا يجبُ علينا أن نُذعِنَ ونَقِفَ علىٰ قصورنا، وكذلك علىٰ تقصيرنا.

---

(١) انظر (بحار الأنوار) (ج٤٩ ص٣٢٩ ح٥).

إنَّ فَهْـمَ هـٰذه المسائل لن تجـدهُ لا في «الكفـايـة»، ولا في «نهـايـة الـدرايـة»، ولا في «الأسفار» ولا في «الشفاء»[٢]... إنَّك لن تفْهَمَ هذه المسائل، ولن تجِدْ لها جواباً إلّا في مدرسة روايات وأحاديث أئمة الدين أنفسهم، ونحن منعزلون (بعيدون) عن تلك المدرسة!... كان هـٰذا شيئاً ما حولَ ماهيَّة كلمة «الإمام».

أما السؤال عن: مَنْ هُوَ «الإمام»؟

مَنْ هُوَ الذي تلبَّس بهـٰذا المبدأ؟

إنَّ مَنْ حَمَلَ لقَبَ "عالِم آلِ محمَّد" من بين جميع «الأئمة» ﷺ هُوَ شَخْصٌ واحدٌ، والمهم أنَّ هـٰذا اللقب خُلِعَ عليه من قِبَلِ «مبادي الوحي» (الأئمة) أنفُسُهُم، الذين هم جميعاً علماء، علماءٌ بجميع أسرار الوجود.

(«النبيُّ») الخاتم وأوصياؤه الشهداء على الخلق، هـٰؤلاء الذين هم على هـٰذه الحال والمقام من الولاية التكوينية، والولاية التشريعيَّة، والجمع بين "التكوين" و "التدوين" (اللـذَيْن تشير إليهما الآيـة:) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل)، (والآية:) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (الرعد)... أنتَخَبُوا من بينهم واحداً وأطلَقُوا عليه هـٰذا اللقب!

لقد بَشَّرَ «الإمامان» «السادس» و«السابع» («الصادق» و«الكاظم» ﷺ) بولادة مولود يكون «عالِمَ آلِ محمَّد»، وهو «عليُّ بن موسى الرضا» ﷺ.[٣]

---

(٢) كُتُبٌ تخصُّصيَّة تُشكِّل بعض مناهج الدراسة ومادَّة البحث في الحوزات العلمية: «الكفاية» لـ «الآخوند الخراساني»، في علم أُصول الفقه. «نهاية الدراية» لـ «الشيخ محمد حسين الأصفهاني» (تعليقة على «الكفاية»). «الأسفار» لـ «الملا صدرا الشيرازي»، في الفلسفة والحكمة المتعالية. وهكذا «الشفاء» لـ «ابن سينا».

(٣) عن «محمد بن إسحاق» أنَّ «موسى بن جعفر» ﷺ كان يقول لِبَنيه: "هـٰذا أخوكم «علي بن موسى» عالم آل محمد، فاسألوه عن دينكم واحفظوا ما يقول لكم، فإني سمعت أبي «جعفر بن محمد» ﷺ غيرَ مَرَّة يقول لي: إنَّ عالم آل محمد لفي صُلبِكَ، وليتني أدركته فإنَّه سَمِيُّ «أميرالمؤمنين»..." انظر «البحار» (ج ٤٩ ص ١٠٠، نقله عن «إعلام الورى» لـ «الطبرسي»).

إنَّ مَنْ يتمكَّنُ من الوقوف للجواب عَنْ: "مَنْ هو" هم هٰؤلاء («الأئمة» أنفسهم)، ومن بين هٰؤلاء ينبري هٰذا («الإمام الرضا» ﷺ) الذي يتمتَّعُ بهٰذه الخصوصيَّات ويتميَّز بتلك الصفات...

لقد عَدَّ «الإمامُ» ﷺ نَيِّفاً وخمسين عُنواناً وصِفَةً للإمامة، هٰذه هي مدرسة الإمامة وسبيل معرفة «الإمام»، وأنتم جميعاً مُكلَّفونَ بالرجوع إلى هٰذه المبادئ، التي هي مبادئ عِلْم طاهرٍ (نقيٍّ، خالٍ من الشوائب)، وبقُوَّة الإيمان وصفاء الضمير، وبالتضَرُّعِ إلى الله تعالى، نرجو أن تبْرُقَ وَمْضَةٌ من تلك المعارف في قلوبكم...

عندما يَهُمُّ «الإمام عليُّ بن موسى الرضا» ﷺ بالجوابِ عن السؤال الثاني "مَنْ هُوَ الإمامُ"، يذكر - إن أسعفَتني الذاكرة - نَيِّفاً وخمسين مقاماً، أحدها: "الإمامُ واحِدُ دَهْرِه، لا يُدَانيه أحدٌ"[(٤)]، وقد استخدم «الإمامُ» في هٰذا الحديث كلمةَ "الدهر"، لا كلمة "الزمان"، فلم يقُلْ: "الإمامُ واحِدُ زمانه"، بل قال: "الإمامُ واحِدُ دَهْرِه".

فما هو السِرُّ في ذلك؟

---

(٤) روىٰ «الصدوق» في (أماليه) وفي (إكمال الدين) (ص٦٧٧ الباب ٥٨ ح٣١)، وفي (معاني الأخبار) (ص٩٧ باب معنى الإمام ح٢)، وفي (عيون أخبار الرضا) (الباب ٢٠ ج١ ص١٧٢ ح١)، عن «عبدالعزيز بن مسلم» عن «الإمام الرضا» ﷺ:

"... الإمامُ يُحلِّلُ حَلالَ الله ويُحرِّمُ حرامَ الله، ويُقيمُ حدودَ الله، ويذُبُّ عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحُجَّةِ البالغة.

الإمامُ كالشمس الطالعة للعالم (وفي (التحف): الإمامُ كالشمس الطالعة المجللة بنورها للعالم) وهي في الأُفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار.

الإمامُ البدرُ المنير، والسراجُ الزاهر، والنورُ الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدُّجىٰ والبيد القِفار ولُجَجِ البحار...

الإمامُ السحابُ الماطِرُ، والغيْثُ الهاطِلُ، والشمس المضيئة، والسماءُ الظليلة، والأرضُ البسيطة، والعين الغزيرة، والغدير والروضة.

الإمامُ الأمين الرفيق (وزاد في نسخة: الوالد الرؤوف)، والأخ الشفيق، ومَفْزَعُ العباد في الداهية.

←

←

الإمامُ أمينُ الله في أرضه، وحُجّتُهُ على عباده، وخليفته في بلاده، الداعي إلى الله، والذابُّ عن حرم الله. الإمامُ المُطَهَّرُ من الذنوب، المبرّأُ من العيوب، مخصوصٌ بالعِلْم، مَوسومٌ بالحلم، نظامُ الدين، وعزُّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوارُ الكافرين.

الإمامُ واحدُ دَهره، لا يُدانيه أحَدٌ، ولا يُعادِلُهُ عالِم، ولا يُوجَدُ منه بَدَلٌ، ولا له مَثَلٌ ونظير، مخصوصٌ بالفَضْلِ كُلِّه من غيْرِ طَلَبٍ له ولا اكتساب، بل اختصاصٌ من المتفضِّلِ الوَهّاب.

فمَن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام ويمكنه اختياره؟

هيهات هيهات ضَلَّتِ العقولُ، وتاهَتِ الحُلومُ، وحارتِ الألبابُ، وحَسِرَتِ العيون، وتصاغرت العظماء، وتحيّرَتِ الحُكَماء، وتقاصرتِ الحُلَماء، وحَصِرَتِ الخُطَباء، وجَهِلَتِ الألبّاء، وكَلَّتِ الشُعراء، وعجزَتِ الأُدَباء، وعَيِيَتِ البُلَغاء، عن وَصْفِ شأنٍ من شأنه، أو فضيلة من فضائله، فأقرّت بالعَجْزِ والتقصير.

وكيف يُوصَفُ أو يُنْعَتُ بكُنْهِهِ، أو يُفهَمُ شيءٌ من أمرِه، أو يوجَدُ مَن يقُومُ مَقامَه ويغني غِناه؟ لا، وكَيفَ، وأنّى، وهو بحَيثُ النجم من أيْدي المُتَناولين ووَصْفِ الواصفين؟

فأينَ الاختيارُ من هذا، وأينَ العُقولُ عن هذا، وأينَ يوجَدُ مِثْلُ هذا؟

ظَنّوا أنَّ ذلِكَ يوجدُ في غيْرِ «آل الرسول» صلى الله عليهم، كَذَبَتْهُم واللهِ أنفُسُهُم، ومَنَّتْهُم بالباطل، فارتقوا مُرْتَقىً صَعْباً دَحْضاً تزِلُّ عنه إلى الحضيض أقدامُهُم، رامُوا إقامَةَ الإمامةِ بعقول حائرَةٍ بائرة ناقِصَة، وآراءٍ مُضِلَّة، فلَم يزدادوا منه إلّا بُعْداً، قاتَلَهُمُ الله أنى يُؤفكُون، لقد رامُوا صَعْباً، وقالوا إفكاً، وضلّوا ضلالاً بعيداً، ووَقَعوا في الحيرة إذ تركُوا الإمامَ عن بصيرة! وزيَّنَ لهُم الشيطانُ أعمالَهُم وضلّوا فصدَّهُم عن السبيل وكانوا مُسْتَبصِرين.

رَغِبوا عن اختيار الله واختيارِ رَسولِه إلى اختيارهم، والقرآن يناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝﴾ (القصص)...

كيفَ لهم باختيار الإمام؟ والإمامُ عالِمٌ لا يجهلُ، وداعٍ لا يَنْكُلُ (في «الأمالي» و«الاحتجاج» و«العيون» و«الكافي»: راعٍ لا يَنْكُلُ)، مَعدِنُ القُدسِ والطهارة، والنُسْكِ والزهادة، والعِلْم والعبادة، مخصوصٌ بدَعْوَة «رسول الله» ﷺ، وهوَ نسلُ المُطَهَّرة البتول... نامي العِلْم، كامل الحِلْم، مُضطَلِعٌ بالإمامة، عالِمٌ بالسياسة، مفروضُ الطاعة، قائمٌ بأمر الله، ناصِحٌ لعِبادِ الله...»

انظر: «بحار الأنوار» (ج٢٥ ص١٢٠-١٢٨)، والحديث طويل ذكرنا منه بعض المقاطع... وقد رُوي في «الأمالي» عن «ابن المتوكل» عن «الكليني»، وفي «الاحتجاج» (ص٤٣٤) عن «القاسم بن مسلم» عن أخيه، وفي «تحف العقول» (ص٣٢٣) وكذا في «الكافي» عن «عبدالعزيز بن مسلم».

لقد ذكر ﷺ "الإمامُ واحِدُ دَهْرِه" أولاً، ثم أعْقَبها بعد ذلك بـ: "لا يُدَانيه أحَدٌ"، فجاء بـ "أحد" في موضع، وبـ "واحد" في موضع آخر، وكان قبل ذلك قد شبَّهَ «الإمامَ» بـ "الشمسِ المُتجلِّية في الأُفق"، في أُفُقٍ "لا تنالُهُ الأيدي والأبصار"، هكذا وَرَدَ النصُّ في رواية «الكافي»[٥]، ولكنه ـ على الظاهر ـ لم يأتِ بتعبير "الشمسِ المُتجلِّلة" في رواية «العيون» («عيون أخبار الرضا»)، وعلى أية حال، فإنَّ الرواية ذكَرَتْ هذه الصفات من تجلُّل الشمس بالأنوار، وكونها في أُفقٍ لا تناله الأيدي والأبصار... كمقدِّمة لبيان عبارة أنَّ الإمامَ واحِدُ دَهْرِه.

إنَّ "الدَهْر" في اصطلاح الفلاسفة هو وعاء المجرَّدات، وقد رَسَمَ المحقِّقُ «الميرداماد»[٦] نظريَّته في الحدوث الدهري (للعالم) وَفْقَ هذا المبنى، في مقابل "الزمان" الذي هو وِعَاءُ المادِّيات. هذا هو الفارقُ والمائزُ بين الدَّهْرِ والزَّمان من الناحية الأصطلاحيَّة (الفلسفية)، أمَّا من الناحية اللغوية، فقد أخْضَعَ اللُّغَويُّون المسألة لبحث عميق، فخَلَصَ بعضُهُم إلى أنَّ الدهر مُسَاوِقٌ[٧] للزمان، وذهَبَ آخرون من أعلام اللغة إلى أفتراق الدهر والزمان.[٨]

---

(٥) انظر «الكافي الشريف» (ج١ ص٢٠١ ح١).

(٦) هو السيد الأجل «محمد باقر الأسترابادي»، و"الداماد" هو الصهر، وسُمِّيَ بها لكون والده صهر «المحقق الثاني» («الكَرَكي»)، فأنتقل اللقب إليه، عالِمٌ حكيم، مُتبحِّرٌ نقَّاد. من مؤلفاته: «القَبَسات»، «الرواشح السماوية»، «الصراط المستقيم»، «الحبل المتين»، «شارع النجاة»، وله حواشٍ على «الكافي»، و«الفقيه»، و«الصحيفة السجادية»، وغير ذلك... وله ديوان بالعربية وآخر بالفارسية.

حكي أنه لم يأوِ بالليالي إلى فراشه للأستراحة مُدَّة أربعين سنة، ولم تَفُتْهُ نوافله منذ تكليفه!

رافق السلطان «شاه صفي» لزيارة العتبات المقدَّسة، فمات ـ قدس سره ـ هناك ودفن في «النجف الأشرف» سنة ١٠٤١ هـ. انظر: «الكُنى والألقاب» للشيخ «عباس القمي» (ج٢ ص٢٢٦). أما المبحث المذكور في المتن، فتجده في كتابه «القَبَسات» (ص٤، وص١٠٤، راجع القَبَسَيْن الثالث والثامن)...

(٧) تساوَقَ يتساوَقُ تساوُقًا، الشيئان: تسايرا.

(٨) راجع «لسان العرب» (ج٤ ص٢٩٣)، من قوله: وقال شمر: الزمان والدهر واحد...الخ.

وعلى أيِّ حال، فإنَّ مُحصِّلَةَ البحثِ هي أنَّ الدهر أعمُّ من الزمان، وما يمكننا أن نقوله ـ على نحو الترجمة اللفظية ـ في تلك العبارة المقدَّسة التي صدرت من ذلك الفَمِ وجَرَتْ على ذلك اللسان الطاهر، هو أنَّ الإمامَ وحيدُ عَصْرِهِ لا يُدانيه أحدٌ.

"واحِدُ دَهْرِه"، إنَّنا لا نُورِدُ هذه المطالب ولا نقول بها على نحو تعبُّديٍّ مَحْضٍ، بل هي خاضعة في جميع جزئيَّاتها للبرهان، بل لِـبُرهَانٍ لا نقاشَ فيه، ولا يمكن نَقْضُه ولا رَدُّه، ولكن مُقدِّمات البرهان من العُمْقِ والدِقَّة (بحيث يصعب فهمه ويَعْسُرُ إدراكه)، ومن الطبيعي أنه كُلَّما سَمَا المطلب وزادَ خَطَرُهُ، صَعُبَ بلوغه ونَيْلُهُ، وتطلَّبَ (لإثباته وبرهانه) مُقدِّماتٍ أكثر دِقَّةً وعمقاً...

عندما نفكِّرُ في مسألة أنَّ الإنسان هو عُصَارةُ الخلق، وكما عَبَّر «الإمامُ» (المعصوم، «أميرالمؤمنين» أو «الصادق» ﷺ) : "الصورةُ الإنسانيَّةُ هي أكْبَرُ حُجَجِ الله على خلقه... وهي الهيكل الذي بَنَاهُ بِحِكْمَته"[٩]، وعبَّر الكتاب (القرآن الكريم): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين).

وقد جاء ذكر كلمة "الخلق" (الخليقة) في موضعين من القرآن الكريم، طُرِحَتْ في (الموضع) الأول كغاية ونهاية للأمر، و(في الموضع) الثاني في مَن تنتهي إليه الغاية...

---

(٩) ورد في (كتاب شرح الأسماء الحسنى) "شرح دعاء الجوشن الكبير" لـ «الملّا هادي السبزواري»: عن «الإمام الصادق» ﷺ كما في (الصافي)، وعن «أميرالمؤمنين عليٍّ» ﷺ، على ما قال «ابن أبي جمهور» ﵀: "الصورة الإنسانية هي أكْبَرُ حُجَجِ الله على خَلْقِه، وهي الكتابُ الذي كتبه بيده، وهي الهيكلُ الذي بَنَاهُ بِحِكْمَتِه، وهي مجموعُ صُوَرِ العالمين، وهي المُخْتَصَرُ من اللوح المحفوظ، وهي الشاهدة على كلِّ غائب، وهي الحُجَّة على كُلِّ جاحد، وهي الطريقُ المستقيم إلى كُلِّ خير، وهي الجِسرُ الممدود بين الجَنَّة والنار" (صفحة ٦٧ ط جامعة طهران).

و«ابن أبي جمهور»، هو «محمد بن زين الدين الإحسائي» من علماء القرن التاسع، أورد الحديث بتمامه في كتابه (المجلي) (ص١٦٩ و ص٢٥٩).

وانظر أيضاً المبحث نفسه في (جامع الأسرار) لـ «السيد حيدر الآملي» (ص٣٨٣).

عَلَيكُم بالتدبُّرِ في القرآن الكريم، لتَرَوْا أنَّ الباري تعالىٰ عندما كان في مَعْرَضِ بيان خَلْقِ الإنسان، وشرح أطوار الخليقة، كانَ البحثُ والعَرْضُ - ما دام لم يبلغ طَوْرَ الإنسان بعدُ - علىٰ نحو يختلف عنه حين يبلغ المقام بيان خَلْقِ الإنسان، فيقول سبحانه وتعالىٰ (عندها): ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (المؤمنون)...

دَقِّقوا جيِّداً في هٰذا، ثم عُودوا من جديد إلىٰ التدبُّر في القرآن، وقارنوا بين الآيات وأخرجوا بالحصيلة، ستجِدُون أنَّ المقصد النهائي هو ما ذكَرَتْهُ الآية الشريفة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان)، وستجدون "تباركَ" تلك (في الآية السابقة)، موجودة هنا (في هٰذه الآية) أيضاً!

ثم أنعَطِفوا بعد هٰذا إلىٰ "سورة الرحمٰن"، إنَّها سُورةُ الآلاء، وهٰذا هو مطلعها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾، تجد أن الغاية (وهي): "عَلَّمَ القرآنَ" قد تقدَّمَتْ، وتأخَّرَ "الإنسان" الذي تباركَ هناك (في الآيتين السابقتين).

لقد جُمِعَتْ كلمة "تبارك" في سورة الرحمٰن مرَّتين: في "عَلَّمَ القرآن" و"خَلَقَ الإنسان"، أنَّ علىٰ هٰذا الإنسان أن يبلُغَ الغاية والثمرة، وأن تتفجَّرَ الطاقات والإمكانيات الكامنةُ فيه، والتي كان بسببها أن ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (البقرة).

ثم ألحَقَ وأعْقَبَ الأستعراضَ (في الخَلْق) بإجابتهم (إجابة الملائكة) بـأنَّ فيه (في «آدم») سِرُّ الخلافة...

يجب أن يتفجَّرَ هٰذا السِرُّ المكنون، وأن يبرز هٰذا الأمرُ المُدَّخَرُ في الإنسان؟ وكيف يكون ذلك؟

يجب أن يتَفَتَّقَ هٰذا الجَذْرُ والأساس عن جوهرتين وأصلَيْن، وينبعث (يتفرَّعُ) منهما غُصنان، ويجب أن يثمر هٰذان الغصنان...

الأصل الأول هو "العقل"، والثاني "الإرادة"...

هناك رواية عن «الإمام جعفر بن محمد الصادق» عليه السلام في (الكافي) تقول: "دِعامَةُ الإنسان العقل".[١٠]

تمعَّنوا في هذه الرواية أيضاً، وينشعب العقل إلىٰ قسمين:

الأول نظريٌّ والآخر عَمَليٌّ، ويجب أن يَبلُغَ العقلُ في الجانب النظري إلىٰ كماله المطلق، وما هو الكمالُ المطلق للعقل من الجانب النظري؟ إنه الاستغراق[١١] في معرفة تحوي (تشمل) جميعَ معارف الوجود، وهي معْرفةُ الله.

أما الجانب العَمَلي فإنَّ جهة العقل العمَليّ يجب أن تنتهي إلىٰ فَناءِ الإرادة في ذات الحق القُدُّوس سبحانه وتعالىٰ.

عندما يَتحقَّقُ هذا الفناء للجهتين النظريَّةِ والعَمَليَّة، في تلك المعرفة وهذه الإرادة، أي فَنِيَتِ الرؤيَةُ (الرأي) في معرفة الله سبحانه، والإرادةُ في مَرْضاة الله...

عندها يصبح الإنسان الذي حقَّق ذلك "واحِدَ دَهْرِه"...

"الإمامُ واحِدُ دَهْرِه"... لَقَبٌ لا يَستحقُّهُ إلّا مَنْ كانَ بالفِعْلِ أوْحَدَ الدَّهر، ويكون صاحب مقام "العهد"، (بحيث) يكون العَهْدُ الإلهيُّ القائمُ بين «إبراهيم» عليه السلام وبين الله سبحانه وتعالىٰ مُستَقِرّاً عنده.

وهنا يطَّرِدُ البحْثُ وتتوسَّعُ آفاقُه، فإلىٰ أين ينتهي الكلام في "الإمامُ واحِدُ دَهْرِه"؟ وهل يَتَحَقَّقُ الغَرَضُ ويَتِمُّ الهدَفُ من الخَلْقِ إذا لم يوجَد هكذا إنسان؟

---

(١٠) انظر «الكافي الشريف» (ج١ ص٢٥ ح٢٣).

(١١) أستغراق: مصدر أسْتَغْرَقَ، وتطلق علىٰ عِدَّة معان:

١ـ لُغويّاً: اَسْتَغْرَقَ في الشيء: جَاوَزَ فيه الحَدَّ وبالَغَ. وتأتي بمعنىٰ: أستوعبه.

٢ـ نَفْسِيّاً: تركيز وصرف الأنتباه في شيءٍ ما، بحيث لا ينشغِلُ الفَرْدُ بما عَدَاه.

٣ـ فلسفياً: الحدُّ العام الذي يدلُّ علىٰ كُلِّ فردٍ من أفراده.

إنَّ جميعَ الجواهر الكامنة في مناجم الوجود يجب أن تُكتَشَفَ من خلاله، وتُستَخرَجَ من إشراقاته، إنَّ النِسبَةَ بين «الإمام» وبين جميع الطاقات والإمكانيَّات البشريَّة كالنسبة بين الشمسِ ومعادن الكُرَة الأرضيَّة، وقد قال «رسول الله» ﷺ: " الناسُ معادن كَمعادنِ الذهب والفضة ". إن مَقاليدَ الإمامة بعد «رسول الله» ﷺ كان يجب أن تُصرَفَ إلى مثل هذا الإنسان، ولكن القيادة أنحَرفَتْ عن طريقها الأصلي، فتلَبَّسَ بها مَن لا يخفى حالُهم على أحد، مِمَّن نَعِفُّ عن هَذرِ الوقتِ بذكرِ أباطيل أقوالِهم وأفعالِهم... وهذا الأنحراف هو المنشأُ في جهل الأمة في الإمامة: ما هي؟ والإمامُ: مَنْ هُوَ؟

أمَّا «المأمون» (العباسي) فمَعروفٌ مَن هُوَ...

هذه قضيَّةٌ ينقلها «علي بن إبراهيم القُمِّي»، عن «إبراهيم بن هاشم»، عن «عبدالله أبن محمد الهاشمي»، قال: دَخَلْتُ على «المأمون» يوماً فأَجلَسَني وأَخرَجَ مَن كانَ عنده، ثم دعا بالطعام فطَعِمْنا، ثم طَيَّبَنا، ثم أمَرَ بستارة فضُرِبَتْ، ثم أقبَلَ على بعض مَن كان في الستارة {وكان فيها نسوة مُغنِّيات}، فقال: بالله لما رثَيْتِ لنا مَن بِطُوس، {والقِصَّةُ وَقعَتْ بعدَ مقتل «الإمام الرِّضا» ﷺ} فأخذت تقول:

سَقياً لطُوسٍ ومَن أضحىٰ بها قَطِنا * من عِترَةِ المصطفى أبقى لنا حَزَنا

قال: ثم بكى، فقال لي: يا «عبدالله» أيلومني أهلُ بيتي وأهلُ بيتِكَ أن نَصَبْتُ «أبا الحسن الرِّضا» ﷺ عَلَماً؟ فوالله لأُحدِّثَنَّكَ بحَديثٍ تتعجَّبُ منه. جئتُهُ يوماً فقُلْتُ له: جُعِلْتُ فِداكَ إنَّ آباءكَ «موسى» و«جعفراً» و«محمداً» و«علي بن الحسين» ﷺ كانَ عندهم عِلْمُ ما كان وما هو كائنٌ {إنها كَلِماتُ المأمون!} إلى يوم القيامة، وأنتَ وَصِيُّ القَوْم ووارثهم، وعندكَ عِلمُهُم، {أنظروا وتدبَّروا في ما وراء القضية، فهي تُنقَلُ بعد كُلِّ ما جرى وما كان من الكتمان والإخفاء (لمراتب «أهل البيت» ومقاماتهم وفضلهم)... وها نحن أمامَ هذا الظهور والبروز!} وقد بَدَتْ لي إليك حاجة، قال: هاتها.

---

(١٢) انظر «البحار» (ج٦١ ص٦٥ ح٥١، عن «شهاب الأخبار»). ولعلَّ وجه التشبيه ومرتكز المقايسة هو ما يمكننا معرفته وإدراكه من كنوزهم، وإلّا فـ«أهل البيت» لا يقاس بهم شيءٌ ولا أحد.

فقلت: هذه الزاهريَّةُ حَظِيَّتي، ولا أُقدِّمُ عليها أحداً من جَوَاريَّ، وقد حَمَلَتْ غيرَ مرَّة وأسقطَتْ، وهي الآن حاملٌ، فدُلَّني على ما تتعالج به فتَسْلَم.

فقال [انظر في جواب «الإمام» وتدبَّر في ما يعنيه هذا الجواب؟]: لا تَخَفْ من إسقاطها، فإنَّها تسْلَمُ وتَلِدُ [ولا يمكن لأحَدٍ أن يقول "تَلِدَ" إلّا إذا كان من المُتَّصِلينَ بآخر «سورة ياسين» ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾!] غُلاماً أشبه الناس بأُمِّه [عمّا تُنبئُ هذه الإخبارات؟ إنها تُنبئُ عن إحاطة «الإمام» ووقوفه حتى على خفايا وأسرار بيتك (أيها المأمون)]، وتكون له خِنْصِرٌ زائدة في يـده اليمنى ليست بالـمُدلَّاة، وفي رجله اليُسرى خِنصِرٌ زائدة ليست بالمدلَّاة [دقِّقُوا جيِّداً في وَصْفِ «الإمام» لهذا المولود، إنه يقولُ إنَّ إصبعه الزائدة ليست بـالـمُدلَّاة، والمعروف أنَّ ذوي الست أصابع غالباً ما تكون إصبعهم الزائدة مُتدلِّية، ولكن «الإمام» يقول بخصوص هذا المولود إنَّ إصبعه الزائدة ليست مُرْسَلَة مُتدلِّية، بل مستقيمة منتصبة مثل بقيَّة الأصابع!]، فقلت في نفسي أشهَدُ أنَّ الله على كُلِّ شيء قدير. فوَلَدَتِ الزاهريَّةُ غُلاماً أشبَهَ الناسِ بأُمِّه، في يدِه اليمنى خِنصِرٌ زائدةٌ ليست بالـمُدلَّاة، وفي رِجْلِه اليُسرَى خِنْصِرٌ زائدة ليست بالـمُدلَّاة، على ما كان وَصَفَهُ ليَ «الرِّضا» ﷺ [فبكى «المأمون» وقال:كيف لا أبكي على مثله...][13] فمَن يلومني على نصبي إيَّاه عَلَماً؟ ". [14]

إنَّ "تَلِد" تلك، تُخْبِرُ عن (وتشير إلى) الإرادة المسيطرة (التكوينيَّة) على الوجود، حيث " إرادةُ الربِّ في مقادير أُموره تَهْبطُ إليكُم وتصدُرُ عن بيوتكُم "[15]، والتفصيل الذي جاء في كلامه ﷺ (حول المولود) يكْشِفُ عن الإحاطة التي جاءت في الآية ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾ (يس)...

(١٣) ما جاء بين القوسين [...] مُعْتَرِضاً نَصَّ الحديث، هو تعليق «سماحة الشيخ» دام ظله.

(١٤) الحديث مرويٌّ في (عيون أخبار الرضا) (ج٢ ص٢٢٤ ح٤٤)، وتراه في (مناقب آل أبي طالب) (ج٤ ص٣٣٣ نقلاً عن (الجلاء والشفاء) عن «محمد بن عبدالله بن الحسن»).

(١٥) من نصٍّ في زيارة «سيد الشهداء»، انظر «البحار» (ج١٠١ ص١٥٣ ح٣، عن (كامل الزيارات)).

إنَّ الرحمةَ الرحمانيَّةَ لـ «علي بن موسىٰ الرِّضا» عليه السلام، هٰذه الذات التي تُصوِّرُ الكمالَ البشري، تشمل وتبلغ حتىٰ «المأمون العبَّاسي»!...

نقَلَ لي المرحوم الشيخ «حبيبُ الله الگلپايگاني» مباشرةً، وهو معروفٌ لدىٰ أعيان گلپايگان وكبرائها (ووجهائها)، وهو إن لم يكن من الأوتاد فمِنَ المسلَّم أنه كان من الأبدال! قصَّةً مُفَصَّلةً، هٰذا (أنقل لكم) مختصرها، فقد سألتُهُ عند العودة من رحلتي إلىٰ «النجف الأشرف»، إذ كُنتُ مَسبوقاً بخدمته في عهدٍ ما، عن السِرِّ في الموهبة التي يتمتَّعُ بها من إزالة ورفع الألم عن أيِّ مَوْضِعٍ يَمْسَحُ عليه بيده؟! فقال:

(كُنتُ مريضاً) فنُقِلتُ إلىٰ المستشفىٰ، وفي إحدىٰ الأيام ساءت حالتي، فالْتَفَتُّ تجاه (حيال) قبة «الإمام الثامن» عليه السلام [١٦] وخاطبته قائلاً: كُنتُ خلال أربعين سنة، أوَّلَ مَن يدخُلَ حرَمَكَ عندما تُفتح الأبواب! {وحقاً أنَّ هٰذا الرجل كان هٰكذا لأربعين عاماً متواصلة، لقد كان يقطُن غرفةً في مدرسة «الحاج حسن»، وكُنتُ أنا تحت إشرافه في تلك المدرسة، لقد كان يستيقظ وَقْتَ السَّحَرِ، في بَرْدِ ذلك الشتاء القارس لمنطقة «خراسان»، وبالرغم من هطول الثلوج، فقد كان يفترش مُصَلّاهُ بإزاء الباب (باب الحرم) وينشغل بأداء صلاة الليل حتىٰ يُفتَحَ الباب!}، لقد فعَلْتُ معكَ هٰذا لأربعين سنة، وها أنا الآن في هٰذه الحال، فما أنت صانعٌ بي، وكيف ستفعل معي؟

{يقول:} كُنتُ في اليقظة وفي كامل وعيي، لم أنم ولم أكن نائماً... ما إن نَطَقْتُ بهٰذا حتىٰ رأيت انقلاباً في الحال، وَوَجَدْتُ نفسي في روضة غنَّاء، وهناك (فيها) سريرٌ، كان مولانا «علي بن موسىٰ الرِّضا» عليه السلام جالساً عليه، وأنا إلىٰ جواره!{لقد كانت تلك رحمة رحمانيَّة، وها هي الرحمة الرحيميَّة [١٧]، وكُلٌّ يمكنه أن يحظىٰ بشيء منها، سواء كان

(١٦) يبدو من سياق القِصَّة أنَّ في الغرفة نافذة تطلُّ علىٰ الحرم الشريف.

(١٧) الرحمة الرحيميَّة: هي التي تَتَوجَّهُ للمؤمنين والخواص، وينالها مَن هو أهلٌ لها، أمَّا الرحمة الرحمانية: فهي التي ينالها جميع الناس بَرُّهُم وفاجرُهُم، وتشمل حتىٰ «المأمون العباسي»، قال تعالىٰ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ (الإسراء)!

«المأمون» (العباسي)[١٨] أو مَنْ مثل هذا الإنسان!)، فمَدَّ عليه السلام يده الشريفة إليَّ بباقة من الورد وناولنيها - دون أن يحدِّثني بشيء - فانتبهتُ، فلَمْ أرَ شيئاً (مما كنتُ فيه).

(ومنذ ذلك اليوم) ما كنتُ أمْسَحُ يدي على شيء (عضو من أعضاء جسم إنسان متألِّم أو مريض) إلّا وزالَ عنه الألم!... [لقد شفى هذا الرجل كثيرين من مرضى السرطان][١٩]، قال: وكانت هذه الخصوصيَّةُ باقيةٌ مُستمرَّةٌ في يدي، ما دُمْتُ لم أُصافح العُصاةَ وأهل الذنوب، وصِرْتُ بعد ذلك (بعد مصافحتهم لي) أحتاجُ (في معالجة المرضى) إلى مزيدٍ من المسح على الموضع (دلكه)، وقراءة بعض الأدعية حتى يشفى المريض، أو تتحسَّنَ حالتُه الصحيَّة.

يَدٌ تنالُ وَرْدَةً، أو يَدٌ تُعطى وَرْدَةً، فتقع تلك الوردة في هذه اليد، فتنقلب هذه اليَدُ وتصبح هكذا (تتمتَّعُ بهذه الخصوصيات)...

إنه الإكسير الأعظم الذي لو مَسَّ العالَمَ لقلَبَهُ!

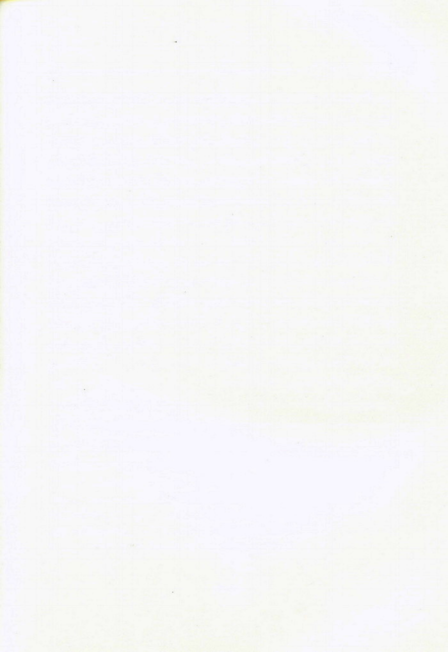
إلهي، بوجاهة ذلك «المولى»، اَعْفُ عن قصورنا وتقصيرنا، اللهم صلِّ وسلِّمْ على وليِّكَ «عليِّ بن موسى الرِّضا» عدَدَ ما في عِلمِكَ، صلاةً دائمة بدوام مُلكِك.

وصلى الله على محمد وآله الطيِّبين الطاهرين

❁ ❁ ❁

(١٨) إشارة للقصَّة التي سبَق ذكرها في البحث.

(١٩) ما جاء بين القوسين [...] هو تعليق «سماحة الشيخ» حفظه الله على القِصَّة التي نَقَلَها عن لسان الشخص الذي وقعت له.



المحاضرة الثامنة

التاريخ: ٩/جمادى الآخرة/١٤١٥هـ
الموافق ١٩٩٤/١١/٢٣م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: معرفة فاطمة عليها السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

بمناسبة يوم غدٍ (ميلاد «الزَّهراء» عليها السلام)، علينا أن نَصُبَّ جُهْدَنا اليومَ ونركِّزَهُ علىٰ فَهْم حديثٍ، والأحاديثُ كثيرَةٌ، والرُّواة وأربابُ الحديثِ كثيرون أيضاً، ولٰكن ما شَحَّ وقَلَّ هو "الدراية"، وهٰكذا أهلُ الدراية وأربابُها، شَحُّوا وقَلُّوا!

لا شَكَّ أنَّ إدراكَ و"دراية" أحاديث «أهل بيت العصمة» عليهم السلام، من حيث عُلُوِّ قدْرِها وسمُوِّ محتواها عن نيل العقول والأفكار، هو من أصعب الأُمور وفي غاية الإشكال، وهٰذه قضيَّةٌ ثابتة بالبرهان.

بل لا يمكِنُ للأمر إلّا أن يكونَ علىٰ هٰذا النحو، (إذ):

"جَلَّ جَنابُ الحقِّ أن يكُونَ شِرْعَةً لكُلِّ واردٍ". [1]

(١) انظر: «الإشارات والتنبيهات» (الإشارة الأخيرة من النمط التاسع)، وتَتِمَّة الفقرة: "... أو أن يطَّلِعَ عليه إلّا واحِدٌ بعد واحد". وقد عَرَّفَ «الآغا بزرك الطهراني» الكتاب قائلاً:

←

إنَّ طَبْعَ القضيَّةِ يحكُمُ أنَّ ما يتعلَّقُ بالحقِّ تعالى، وما يرجِعُ إلى الحقِّ المُطْلَق، أسمىٰ وأرفَعُ من أن تنالَهُ وتُدرِكُهُ العقول... لكن، من مُنطلَق قاعدة "الميسور"، علينا أن نَلِجَ هذه المواضيع ونَبْحَثَ فيها.

عن «أبي عبدالله» عليه السلام أنَّه قال:

"﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، الليلةُ «فاطِمَة» والقَدْرُ الله، فَمَن عَرَفَ «فاطمة» حقَّ معْرِفَتِها، فقد أدرَكَ ليلةَ القَدْر. وإنما سُمِّيَتْ «فاطِمَة» لأنَّ الخلْقَ فُطِموا عن معرفتها". (٢)

هذا هو نصُّ الحديث، والبحثُ في كُلِّ جملة وفقرة منه يتطلَّبُ وقتاً مديداً...

بعد أن عبَّر أنَّ ليلَةَ القَدْر هي «فاطمة»، قال: " فَمَن عَرَفَ «فاطِمَة» حقَّ معْرِفَتِها، فقد أدرَكَ ليلةَ القَدْر"، إنَّما هنا... تلك الليلة التي لا ينالُها أحَدٌ!

ثم يعقب هذه الجملة قوله: "وإنما سُمِّيَتْ «فاطِمَة» لأنَّ الخلْقَ فُطِموا عن معرفتها"، فأيُّ مقام، وأيُّ جَنابِ هذا الذي جَلَّ أن تنالَهُ مَعْرِفةُ الخلْقِ؟!

علينا أن نُفكِّرَ ونتدبَّرَ في هذا المطلب، وعلى البشرية والإنسانيَّةِ، بما بلغته من أعلىٰ مراتب التطوُّر الفكري، أن تفعل ذلك أيضاً...

فما هي القضية؟

إنَّها لَيلةُ القَدْر، ومُنَزِّلُ القرآن.

---

(٢) انظر (بحار الأنوار) لـ «العلامة المجلسي» (ج ٤٣ ص ٦٥ ح ٥٨ عن (تفسير فرات)).

←

"كتابٌ في المنطق والحكمة لـ «الشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبدالله بن سينا» (٣٧٣ هـ - ٤٢٧ هـ)، ذكر فيه من النكت والفوائد ما خَلَتْ عنه سائر الكُتب المبسوطة، رتَّبَهُ علىٰ قسمين، وأوْرَدَ مباحث المنطق في عشرة مناهج، ومسائل الحكمة في عشرة أنماط: الأجسام، الجهات، النفوس، الوجود، الإبداع، المبادئ والغايات، التجريد، السعادة، مقامات العارفين، وأسرار الآيات. هو أُسوة كتب المعقول وأسناها، عكَفَت عليه الحكماء أُولو الأحلام والآراء"... انظر (الذريعة) (ج٢ ص٩٦).

وجاء في موضع آخر من الكتاب ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان)، وقد جاء تفسير "الليلة المباركة" في هذه الآية أيضاً بـ«فاطمة»[٣]... الليلة التي يُفْرَقُ فيها كُلُّ أمْرٍ حكيم.

وقد جاءَ في الرواية تعليلٌ لهذه التَسْمية "وإنما سُمِّيَتْ «فاطمة»"، لاحِظُوا هنا أنَّ كلمةَ "الخلق" (في عبارة "لأنَّ الخلْقَ فُطِموا عن...") أوْسَعُ نطاقاً من "الناس"، وهي فضلاً عن كونها تَشْمَلُ الإنسَ والجن، فإنَّ أُفُقَ الحديث يبلُغُ حدَّ ملائكةٍ أسكَنْتَهُم سماواتِكَ[٤] ورفعتهُم عن أرضِكَ، فهؤلاء فُطِموا عن معرفتها أيضاً!...

ما الأمر، ومَن تكونُ هذه المرأة؟ وأيُّ حقيقة اسْتَتَرتْ فيها حتى كانت على هذا الحدِّ من الرفعة، والسُّمُوِّ عن مُتَناوَلِ العقول وأُفُقِ الأفكار؟!

إنَّ التحقيقَ في هذا الأمر يتطلَّبُ ذِهْناً قَوِيّاً، تَرَبَّى ونشَأَ على البرهان والاستدلال، ويُحَتِّمُ رُجوعاً إلى أكثر المستندات والأدلَّة قطعيَّةً، أي القرآن الكريم، مع اللجوء إلى السُنَّة القَطْعيَّة...

عسى أنْ نُطِلَّ إطلالةً على هذا المطلب العظيم: لماذا فُطِمَ الخلْقُ عن معرفتها؟

---

(٣) رَوَى «يعقوب بن جعفر بن إبراهيم» قال: "كنت عند «أبي الحسن موسى» عليه السلام... فقال: ﴿حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾ فقال ـ عليه السلام ـ:

أمَّا "حم" فهو «محمد» صلى الله عليه وآله، وهو في كتاب «هود» الذي أُنزل عليه، وهو مَنقُوصُ الحروف، وأمَّا "الكتاب المبين" فهو «أميرالمؤمنين» عليه السلام، وأمَّا "الليلة" فـ«فاطمة» صلوات الله عليها، وأمَّا قوله "فيها يُفْرَقُ كُلُّ أمْرٍ حكيم" يخرج منها خيرٌ كثيرٌ، فرجُلٌ حكيمٌ ورَجُلٌ حكيم و..." الحديث. انظر (الكافي الشريف) (ج١ ص٤٧٩ ح٤).

(٤) التعبير مُقتَبَسٌ من كلمة لـ«أميرالمؤمنين» عليه السلام في خِلقَةِ الملائكة، فيها: "وملائكة خَلَقْتَهُم وأسكَنْتَهُم سماواتك، فليس فيهم فترَةٌ ولا عندهم غَفْلَةٌ، ولا فيهم مَعْصِيةٌ، هم أخْوَفُ خَلْقِكَ منك، وأقرَبُ خَلقِكَ إليك، وأعْمَلُهم بطاعتك، ولا يغشاهم نومُ العيون ولا سَهْوُ العُقول ولا فَتْرَةُ الأبدان، لم يسكُنوا الأصلاب ولم تَضُمُّهُم الأرحام ...". انظر (بحار الأنوار) (ج ٥٩ ص١٧٥ ح٦).

ما هو السرُّ في ذلك؟

لقد عرَض القرآنُ الكريم، هذا الكتابُ الحكيم الذي لم نعرِفْ قَدْرَهُ بَعْدُ، في مَوارِدَ عديدة (ما يناهزُ الستين مورداً) للبحث حول الإنسان.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾ (ياسين)، هذه هي الحكمة: إنَّ الإنسانَ هو قِمَّةُ الموجودات في ساحة الوجود، وقد تناوله القرآنُ بالبحث في تلك الآيات على نحوين:

الأوّل وهو الأكبر، جاء فيه ذكر الإنسان مُعرَّفاً (بالألف واللام).

والآخر ـ ولعلَّهُ في مورد واحد فقط (هو: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝﴾ (الإسراء)) ـ جاء نكرةً، وفيه بحثٌ مُهمٌّ...

تُرىٰ ماذا تعني "كلُّ" تلكَ (الآيات) التي جاءت مع أداة التعريف؟

وماذا تعني هذه (الواحدة) النكرة في مقابلها؟!

وبما أنني لم أُراجع كُتبَ التفسير (بهذا الصدد)، فأنا لا أدري هل تعرَّضَ المفسِّرونَ لهذه الجهات والتفَتُوا إليها أم لا؟ فهي (على كُلِّ حال) من النكات التي عليهم أن يبحثوا فيها...

إنَّ الآيات تَستعرِضُ سَيْرَ الإنسان وتبدأُ من حين نشوئه، حتى تنتهيَ بغايته وخاتمته... وهنا يَظْهَرُ الإعجازُ القرآني:

فالمبدأُ هو: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ (العلق)، والغاية هي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾ (الرحمن).

وليسَ البيانُ الذي جاء في "عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ" هو مُجَرَّد القُدْرَة على النُطْق، كما تَوهَّمَهُ المبتدئون. نعم، إنَّ الناطقيَّةَ مَطرُوحَةٌ في الآية، ولكنها ليست كُلَّ ما تُريدهُ الآيةُ، والمعنى ليس محصوراً بها.

ويمكننا فهم "البيان" هذه عند الرجوع إلى القرآن نفسه، فتَراهُ يُعبِّر تارة عن نفسه بـ "تبيان"، وأُخرىٰ بـ "بيان"، وهنا تتجلَّى الحِكْمَةُ التي تحارُ فيها الحقول!

إذ تعترفُ البشريَّـةُ وتُقِـرُّ بـأنَّ الـذي جـاء بهـٰذا "الكتـاب" («النبي الأعظم محمد» ﷺ)، الذي تُعَدُّ دُروسُهُ الأبتدائية نهايةَ سَيْرٍ ومَطَافٍ (الدروس النهائيّة لمسيرة الكُمَّلِ... هو رَجُلٌ عَرَبيٌّ أُمّيٌّ لم يَحْضُر أيَّ دَرْسٍ (لم يتلقَّ أيَّ تعليم، ولم يتتلمذ على أحد)، فلا يمكن إلّا أن يكونَ ﷺ قد تَلَقَّاهُ (أي القرآن الكريم) مِنْ مبدأ غَيْبِ الوجود (الله سبحانه وتعالىٰ).

إنَّ قرآنَ ما قبل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، مع "بيان" ما بعد: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، هما شيءٌ واحدٌ، فذاكَ القرآن المتعلِّقُ بِقَبْلِ (ما سبق) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، مُرْتَبِطٌ بجهة القِراءَة، وهـٰذا الـ "بيان" الـذي تَلَا (جاء بعد) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، مُرْتَبِطٌ بِجِهةِ البَطْنِ واللبِّ، وهو منتهىٰ وغايةُ سَيْرِ الإنسان.

ويمكننا تقسيم الآيات إلىٰ قسمين، فالمسيرةُ البَشَريَّة لها فرعان، وللإنسانية شُعْبتانِ: شُعْبَةٌ تهوي إلىٰ النزول، والأُخرىٰ تنزعُ نحو الصعود، "بعضُهُم يَسْفُلُ وبَعْضُهُم يَعْلو"، من هنـا يـرتبط قِسْمٌ من الآيـات بـ "القوس النـزولي"، وقِسْمٌ بـ "القوس الصعـودي"، ثم تتلخَّصُ جميعُ البُحُوثِ القُـرآنيَّة في سُورة واحدة أسمها "سورة الإنسـان"، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾، أين الذين يقرَؤونَ القُرآنَ بِذهنيَّة وفِكْرٍ متناسبٍ مع القرآن (مع ما يقـرؤون)، حتىٰ يقفوا علىٰ نهاية وفَصْلِ جميع المطالب؟

إنَّ "سُورةَ الإنسان" هـٰذه تعني سورةَ العالَم، دقِّقُوا جيِّداً هُنا، إنَّما تعني سُورةَ عالَـم الإمكانِ كُلِّهِ، "الصورة الإنسانية هي أكْبَرُ حُجَجُ الله علىٰ خَلْقِه... وهي الهيكَلُ الذي بناهُ بحِكْمَتِه... وهي الـمُخْتَصَرُ من اللوْحِ المحفوظِ"، "أتَزْعَمُ أنَّكَ جُرْمٌ صغيرٌ وفيكَ أنطَوىٰ العالَـمُ الأكْبَرُ". (٥)

(٥) انظر رقم (٩) من حواشي الفصل السابع (ص١١٣)...
وفي الديوان المنسوب لمولانا «أميرالمؤمنين» ﷺ (ص١٠٣):

←

لقد لَخَّصَ (اللهُ سبحانه وتعالىٰ) العالَمَ في "آدم" (الإنسان)، وفصَّلَ "آدم" في صُعودهِ ونُزولهِ تفصيلاً في جميع أنحاء القرآن، ثم عادَ لِيُلَخِّصَ الجميعَ في "سورة الإنسان"، وهناك أنطلقَ من المبدأ نفسه...

علىٰ العلماء أن يلتقطُوا إشارات القرآن الكريم، أمّا عباراته فهي للعوام...

لقد دَخَلَ البَحْثُ من المبدأ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ (العلق)، بدأ في بَحْثِ خَلْقِ الإنسانِ من النُّطْفَةِ، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝﴾ (الطارق)، ثم عادَ لِيَجْمَعَ كُلَّ المفصَّلات، هذا هو الإعجازُ القرآنيُّ، يَبْسطُ (يُفَصِّلُ) المُجْمَلَ، ويُجْمِلُ المُفَصَّل، ويُلخِّصُ كُلَّ ذلك وينطَلِقُ من: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾.

فإنَّ هنا شيئاً إضافيّاً تخلو منهُ بقيَّةُ الآياتِ، ففي الآيات السابقة كانت "النطفةُ" هي المبدأ، أو "الماء المهين"، أو "الصلصال" و"التراب"، أمَّا في "سورة الإنسان" فالمبدأ يعود إلىٰ ما قبل ذلك ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾... إنَّ مُستَخرِجَ لآلئِ القرآن هو «جعفر بن محمد» عليهما السلام، فمِثْلُ هذا البحر (الزاخر) يتطلَّبُ مِثلَ ذاكَ الغوَّاصِ (الماهر)...

←
دَوَاؤُكَ فِيكَ ولا تُبْصِرُ
وداؤكَ فِيكَ ولا تَشْعُرُ
وأنتَ الكِتابُ المُبينُ الذي
بأحْرُفِهِ يَظْهَرُ المُضْمَرُ
أتَزعَمُ أنَّكَ جُرْمٌ صغيرٌ
وفيكَ انطَوىٰ العالَمُ الأكبَرُ

وقد أورد الفيلسوف «ملّا هادي السبزواري» الأبيات في كتابه، ونَسَبَها إلىٰ «أميرالمؤمنين» عليه السلام أيضاً. وتجدها كذلك في (مصابيح الأنوار في حلِّ مشكلات الأخبار) للمرحوم «العلّامة السيد عبدالله شُبَّر» (ج١ ص٢٨٢).

فقد سأله «زُرارَةُ» عن الآية فقال:

"كانَ شيئاً، ولم يكن مذكوراً". (٦)

إنَّ في هذه الكلمة لَدُنياً من العلوم والمعارف...

من هنا يبدأ البحثُ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾، إنَّ كُلَّ كلمةٍ حَرِيَّةٌ بالتوقُّفِ عندها طويلاً، إنَّ لهذا الهيكل "الذي بناه بقدرته" مُخّاً وجلداً، والجلدُ والقِشرُ مُركَّبٌ، أمَّا المخُّ واللبُّ فمُؤلَّفٌ... القِشرُ مُركَّبٌ من النطفة المختلطة (المُلقَّحةِ) للرجل والمرأة، أمَّا المخُّ فمُؤلَّفٌ من نُطْفةٍ أمْشاجٍ(٧) من العقل والهوىٰ.

هناك عُنْصُرانِ في البدنِ وعنصران في الروح، وفي كليهما تركيبٌ...

إنَّ هذا البَدَنَ هو تركيبٌ من (جَنْبَتَي) الرجولة والأنوثة، وهناك تركيبٌ من الرجولة والأنوثة في الروح أيضاً، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝﴾ (الإنسان)، لقد تَمَّ ظاهِرُ القرآنِ كما تَمَّ باطِنُه، ولكُلٍّ (للظاهر والباطن) أَهْلٌ (رجال)...

---

(٦) انظر «بحار الأنوار» لـ «العلَّامة المجلسي» (ج٦٠ ص٣٢٧ نقلاً عن «تفسير العيَّاشي»).

(٧) أمشاج: أخلاطٌ مُمتَزِجَةٌ من ماء الرجل والمرأة. قال «الراغب الأصفهاني»: "أمشاج نبتليه" أي أخلاطٌ من الدم، وذلك عبارة عمَّا جَعَلَهُ الله تعالىٰ بالنطفة من القوىٰ المختلفة المشار إليها بقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۝﴾ (المؤمنون). انظر «مفردات الراغب» (ص٤٦٩).

وقال «العلَّامة المجلسي» ﷺ:

"أمشاج" أي أخلاط، جمع مشيج أو مَشَج، من مَشَجْتَ الشيءَ إذا خلطته، ووَصَفَ النُّطْفَةَ به، لأنَّ المُرادَ بها مجموع مَنِيِّ الرجل والمرأة، وكُلٌّ منهما مختلفة الأجزاء في الرقَّة والقوام والخواص، ولذلك يصير كلُّ جزء منها مادَّة عُضْوٍ. وقيل: "أمشاج" مُفْرَدٌ كـ "أعْشَار". وقيل: ألوان، فإنَّ ماءَ الرجل أبيَض، وماءَ المرأةِ أصفَر، فإذا اختَلَطا اخضَرَّا. أو "أطوار"، فإنَّ النُّطْفَةَ تصيرُ عَلَقةً، ثم مُضْغَةً، إلى تمام الخلقة. ذكره في «بحار الأنوار» (ج٦٠ ص٣٢٧).

من هنا ينطلقُ الإنسانُ في سَيْرِه، حتىٰ يَبلُغَ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾...

إنَّ نُمُوَّ الشجرة حتىٰ هذا الموضع يكونُ من الجذر إلىٰ الأعلىٰ، ومن هنا (فما بعد) يتفرَّعُ جِذْعُ الشجرة إلىٰ غُصْنَيْن (فرعين)، ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان).

كم هو مُبْهِرٌ وعجيبٌ أُسلوبُ العَرْضِ والبيانِ هذا!

وإلىٰ أَيْنَ يَتَّجِهُ هذان الغُصنان (الفرعان) وماذا سيصيران؟

إنَّ غُصْنَ "إمّا شاكراً" سَيُصْبِحُ شجرةً طَيِّبةً ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿٢٥﴾﴾ (ابراهيم)، أمّا الفَرْعُ الآخر الذي كان كفُوراً، فَسَيُصْبِحُ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ (إبراهيم)، إنَّ جميعَ آياتِ "القَوْسِ النـزوليِّ" (تظهر و) تنطبق علىٰ (هذا) الفَرْع، وجميع آيات "القَوْسِ الصُعوديِّ" تجدها في ذاك.

وعندما نُلاحظُ ما يَعْقُبُ هاتين الآيتين ويَلْحَقُ ذينكَ الفرعين، نجد أنَّ الآية ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ (الإنسان) تَسْتَتبعُ ذلك الفرع (الشجرة الخبيثة)، ونرىٰ أنَّ الآية ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ (الإنسان) تَسْتَتبعُ هذا الفرْعَ (الشجرة الطيِّبة)، وفي حين ترىٰ أنَّ البَحْثَ هُناكَ (في الفَرْعِ الأوّل) قد انْقطَعَ وتوقَّفَ، تَراهُ هُنا مُتَّصِلاً ومُستَمِرّاً، وتَرَىٰ أنَّ الكلامَ هنا لم يَقصُرْ، بل هو مُتَّصِلٌ مُتَدفِّقٌ... إنَّهُ كلامُ الله سُبحانَهُ وتَعالىٰ.

وكانت الانْطلاقَةُ والبدايةُ القُرآنيَّةُ (العظيمة) للإنسان في: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴿٢﴾﴾، إنَّ هذا الابْتلاءَ (المذكور في الآية) يَحْمِلُ انقلاباً وتحوُّلاً، انقلابٌ وتَحَوُّلٌ جسمانيٌّ، فالنطفة تتحوَّلُ إلىٰ عَلَقة، والعَلَقَةُ إلىٰ مُضْغَة... حتىٰ تَبلُغَ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (المؤمنون)، وتجد أنَّ "أحْسَنَ" هنا تَتضمَّنُ النشأةَ النهائيَّةَ للبدَنِ، والطَوْرَ الأخيرَ للخِلْقَةِ البشريَّة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾... وهناكَ "أحْسَنُ" أُخرىٰ، وكلاهما غاية في العَجَبِ!

وهذه الـ "أَحْسَنُ" الأُخرى جاءت في مقابل الصورة النهائيّة للنفس، والطَوْرِ الأخيرِ لِخَلْقِ الرُّوحِ، وقد أشارت إليها الآياتُ الشريفة في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝﴾ (التين).

ولا بدَّ لهذه الـ "أَحْسَنُ" من الظهور والتحقُّق، وإلّا فإنَّ الخلْقَة (الإلهية لهذا الكون) تكُونُ عقيمةً! والسرُّ في ذلك أنَّ العالَمَ بالأصل كان مُقدِّمةً لآدم (للإنسان)، وإذا لم يبلُغِ الإنسانُ غايتَهُ ولم يُحقِّق الثمرَةَ المرجُوَّةَ من وُجُودِه، فإنَّ العالَمَ يكُونُ قد أخفَقَ في تحقيق الغاية وبلوغ الثمرَة من وُجُوده، وهذا يعني بُطلانَ الحكمَةِ الإلهيةِ من الخلْقِ (فيكُون خَلْقُ العالَمِ عَبَثاً والعياذ بالله)...

ومتىٰ يَبْلُغُ آدَمُ (الإنسان) غايتَهُ ويُحقِّقُ ثمرتَهُ (ثمرة الوجود)، حتىٰ تكونَ غايةُ العالَمِ وثَمَرتُهُ (فلسفة وعلّة الوجود) قد تحقَّقَت؟ (الجواب:) عندما يبلُغُ مستوىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ (الإنسان)، ولماذا كانت نهاية المسيرة هنا؟

هذا ما ينبغي البحث عن جوابه في "سورة الليل": ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝﴾... أستمروا في تلاوة السورة حتىٰ تبلغوا آخرها (حيث يقول عزَّ من قائل): ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝﴾ (الليل)، ماذا تعني "عنده" هذه؟ إنها نَفْسُ تلكَ (عنده) التي في: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝﴾ (الأنعام)، وهذا هو نَفْسُ المقام الذي ذُكِرَ في (قَوْله تعالىٰ): ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾... [8]

---

(٨) وَرَدَتْ «أُمّ الكتاب» في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝﴾ (آل عمران)، و﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝﴾ (الرعد)، و﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝﴾ (الزخرف)...

هنالِكَ حيثُ تخفُتُ جميعُ المشاعِلِ وتُطفأ، وتستَحيلُ جميعُ الأنوار وتنقَلِبُ إلىٰ ظلماتٍ، سبحان "مَن أظلَمَ بظُلْمَتِهِ كُلَّ نور"! (٩)

علينا أن نبحثَ عن النور الذي يمكنه أن يَبلُغَ هذا المحيطَ ويَصِلَ هذا الفضاءَ ولا ينطَفِئ!؟

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝﴾ (الليل)، لَعَمْري، ما هي إلّا الحيرةُ والذهولُ لمَن وَعىٰ شيئاً والتَفَتَ! إنَّه مَقامٌ يَقْصُرُ دونَهُ كُلُّ عَمَلٍ ولا يَقرَبُهُ أيُّ فِكْرٍ!...

إنَّ أسْمَى الأفكار وأعْظَمَ الأعمالِ هي ما يأخُذُ المرْءَ إلىٰ الكمالِ المُطْلَقِ، وهي قِمَّةُ مراحل الإنسانيَّة، ولكن (مع ذلك) تبقىٰ الـ "أنا" هي المحور، (سَعْيِي "أنا") ومحاولة وصولي "أنا" إلىٰ الكمالِ المُطْلَقِ!

---

(٩) رُوي عن «نَوْف البُكالي» ﷺ (من أصحاب مولانا «أميرالمؤمنين» ﷺ وَخَواصِّه) قال: خَطَبَنا «عليٌّ» ﷺ بـ «الكوفة» وهو قائم على حجارة نَصَبَها له «جَعْدَة بن هُبيْرة المخزومي» (ابن أُخت «أميرالمؤمنين» ﷺ، أُمُّه «أُمُّ هاني بنت أبي طالب» ﷺ، شَهِدَ «صفين»، وولّاه «خالُهُ» ﷺ «خراسان»، وكان فقيهاً عالماً)، وعليه مِدْرَعَةٌ من صوف، وحمائل سيفه لِيفٌ، وفي رجليه نعلان من ليف، وكأنَّ جبينه ثَفِنَةُ بعير (ما في ركبة البعير وصَدره من كثرة مماسَّة الأرض، وقد كان حصل في جبهته ـ ﷺ ـ مثل ذلك من طُول السجود وكثرته)، فقال ﷺ:

"... الحمدُ لله الكائن قبلَ أن يكونَ كُرسيٌّ أو عَرْشٌ أو سماءٌ أو أرض، أو جانٌّ أو إنْس، لا يُدْرَكُ بِوَهْم ولا يُقَدَّرُ بِفَهْم، ولا يشغله سائل ولا ينقصه نائل، ولا يَنظُرُ بعين، ولا يُحَدُّ بأين، ولا يُدْرَكُ بالحواس، ولا يُقاسُ بالنَّاس، الذي كَلَّمَ «موسىٰ» تكليماً، وأراهُ من آياته عظيماً، بلا جَوارِحَ ولا أدوات، ولا نُطْقٍ ولا لَهَوات، بل إن كُنتَ صادقاً أيها المتكلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ «جبريل» و«ميكائيل» وجنود الملائكة المقربين، في حُجُراتِ القُدُسِ مُرْجَحِنِّين (المائلين لثقلهم والمتحركين يميناً ويساراً)، مُتَوَلِّهَةً عقولُهم أن يَحُدُّوا أحْسَنَ الخالقين، فإنما يُدرَكُ بالصِّفاتِ ذَوُو الهيئاتِ والأدوات، ومن ينقضي إذا بلَغَ أمَدَ حَدِّه بالفناء، فلا إله إلّا هو، أضاءَ بنورِه كُلَّ ظلام، وأظلَمَ بظلمته كُلَّ نور". انظر «نهج البلاغة» (الخطبة ١٨٢).

أمَّا ذلك المقام (الذي نتحدَّثُ عنهُ ونَعْنِيه) فإنَّ الـ "أنا" تتلاشىٰ وتمحىٰ فيه، فلا يـبقىٰ شيءٌ (هـدَفٌ وأمَلٌ)، لا دُنيـاً ولا عقبىٰ، جنَّـةٌ ولا (حـذَرٌ من) نار، لا عَرْشٌ ولا كُرسيٌّ ولا لَـوْحٌ ولا قَلَـمٌ... ﴿وَمَا لِأَحَـدٍ عِنـدَهُ مِن نِّعْمَـةٍ تُجْزَىٰ﴾، لَيْـسَ عندَ الله شيءٌ لأحَدٍ، ولا لأحَدٍ عندَ الله شيءٌ!

مَنْ أرادَ (سعىٰ وطَلَبَ) شيئاً فليذهَبْ ويتوجَّهْ إليه...

ليذهَبِ العامِلُون للجنَّـةِ إلىٰ جنَّتِـهِم، فكُلُّ ما عندهم (لديهم) و(ما أُعِدَّ) لهم سيجَدونَهُ فيها، ليَذهَبوا هناك، وليَذْهبْ أهْلُ "جنَّات عَـدْنٍ" إلىٰ جنَّاتِ عَدْنٍ (التي وُعِدوا)، فكُلُّ ما عندَهُم (ما لهم) هو هناك...

ولكن هُناكَ ثُلَّةٌ سيُيَمِّمُونَ شَطْرَهُ "هو" ويذهَبونَ "عنده"!

وهُم الذينَ قَضَوْا علىٰ الـ "أنا" في وُجودِهِم فتَلاشَتْ تماماً، انْعَدَمَ العَقْلُ، وفَنِيَتِ الإرادةُ... هذه هي المسألة والقضيَّةُ العظمىٰ!

وكان الأمْرُ علىٰ هذا النحو:

لقد نـقَلَ القِصَّـةَ جَمْعٌ كثيرٌ من الأوَّلين، منهم «الضحَّاك» و«مجاهد» و«ابنُ جُبَيْر» و«ابنُ مسعود»، وبقيَّةُ الأجيال من الآخرين، اتَّفقُوا وأجْمَعوا علىٰ صحَّتِـها، وأنا سأنقُلُها عن «جارالله محمود بن عمر الزمخشري»، وهو من مُفسِّري أواخرِ القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين (المتوفىٰ سنة ٥٣٨ هـ). (١٠)

وعليكم جميعاً التمعُّنَ والتدقيقَ في درايةِ الحديث لا في روايته، وبما أنَّ المجالَ يضيقُ عن شرْحِ الروايةِ بتمامِها، فسنكتفي بموضع الشاهد الذي يخدمُ ما نحن بصدد إثباته من الكتاب والسُّنَّة في بحثنا اليوم...

---

(١٠) انظر «الكشَّاف» لـ «الزمخشري» (ج٤ ص٦٧٠ طبعة «دار الكتاب العربي»)، وذكر له في الهامش طُرقاً أُخرىٰ فقال: أخرجه «الثعالبي» من رواية «القاسم بن بهران» عن «ليث بن أبي سليم» عن «مجاهد» عن «ابن عباس» في قوله تعالىٰ ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾...

عن «ابن عباس» ﷺ، وهو أحدُ تلك العدَّة الكثيرة (التي رَوَتْ الحديث):

" أنَّ «الحَسَنَ» و«الحسين» مَرضا، فعادَهما «رسولُ الله» صلى الله عليه (وآله) وسلَّم في ناسٍ مَعَه، فقالوا: يا «أبا الحسن»، لو نذرتَ على ولدك.

فنذَرَ «عليٌّ» و«فاطمة» و«فضَّة» جارية لهما، إن بَرَآ مما بهما أن يَصُومُوا ثلاثَةَ أيام، فَشُفِيا، ومَا مَعَهُم شيءٌ، فاستَقْرَضَ «عليٌّ» من «شمعون الخيبري» اليهودي ثلاثَةَ أصواعٍ من شعير " ...

وهنا يُسْقَطُ في يد الدنيا!

عندما تجِدَ داراً لو أرادَ صاحِبُها أنْ يملأَها ذهباً ولؤلؤاً ومُجَوْهراتٍ لَفَعَلَ (لاستطاعَ)... تجدُها خِلواً من رغيفِ خُبْزٍ لإفطاره!

فيلجأ (حتى اضطر للجوع) إلى يهوديٍّ ليقترِضَ منه ثلاثَةَ أصواعٍ من شعير.

هذا هو الإسلامُ الذي يُوجِدُ (يُحْدِثُ) انْقلاباً في العالم، هذه هي " المدينة الإسلامية " التي تُحْدِثُ في الدنيا ثَوْرَةً وتُغيِّرُ عالَماً...

عندما يكونُ رأسُ (قِمَّة، أو زعيم) الإسلام والمسلمين، وأشْرفُ بَيتٍ في " المدينةِ الفاضِلَةِ للبشريَّة "، بهذا المستوى المعيشي (المتواضع)، حتى بَلَغَ الأمرُ أن يقْترِضَ من اليهوديِّ الخيبَري...

" فطَحَنَتْ «فاطمة» (ﷺ) صاعاً واختَبَزَتْ خمسةَ أقراصٍ على عددهم، فوَضَعوها في أيديهم ليَفطُروا، فَوَقَفَ عليهم سائلٌ فقال: السلامُ عليكُم يا أهلَ بيتِ «محمد»، مسكينٌ من مساكين المسلمين " .

دقِّقُوا جيِّداً، فقد كان السائلُ في الليلة الأُولى مسكيناً من مساكين المسلمين، وفي الليلة الأخيرة سيأتي أنَّ السائلَ أسيرٌ من أسرى المُشركين، وهنا يتجلَّى الإعجازُ التربويُّ، إنَّ في هذا الأول والآخر لَدُنياً من الكلام والبحث، في الليلة الأُولى سائلٌ من المِلَّة (مُسلم)، وفي الأخيرة غريبٌ، ومما يزيدُ في خطورة البحث أنَّ مِثلَ هذا الشخص (الزمخشري) هو الذي ينقُلُ الخبر...

" أطْعِموني أطعَمَكُمُ اللهُ من مَوَائِدِ الجنَّة، فآثَروهُ وباتُوا لم يذوقوا إلَّا الماء، وأصبَحُوا صِياماً، فلمَّا أمْسَوا ووَضَعوا الطعامَ بينَ أيديهم وَقَفَ عليهم يتيمٌ، فآثروه، ووَقَفَ عليهم أسيرٌ في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك، فلمَّا أصبَحُوا [في الثالث] أخَذَ «عليٌّ» رضي الله عنه بيد «الحسن» و«الحسين»، وأقْبَلوا إلى «رسول الله» صلى الله عليه (وآله) وسلَّم، فلَمَّا أبْصَرَهُم وهُمْ يرتَعِشونَ كالفِراخ من شِدَّة الجوع " ...

لقد اعْتَرَتِ الرعشَةُ وأصابتْ قالِعَ بابِ خَيْبَر، فوَقَفَ وأبناهُ بين يدي «رسول الله» ﷺ وهم يرتَعِشونَ كالفِراخ من شِدَّةِ الجوع! إنَّ الذي وَقَفوا بينَ يدَيه، يحْمِلُ قلْباً لو انقلَبَ العرْشُ لما ارتعش ولا اضطرَب، نعم، إنَّه قلبُ «رسول الله»، الإنسانُ الأكْمَلُ الذي يُمثِّلُ أعْظَمَ ثَمَرة لشجرة الوُجود.

تُرى أيُّ مَشْهَدٍ ومَنظَرٍ كانَ ذاكَ الذي جَعَلَ مِثْلَ هـذا الموجود (الأكمل، «رسول الله» ﷺ) يقول: " ما أشَدَّ ما يسوؤني مما أرى بكم " ! كم كانت القضيَّةُ كبيرةً وعظيمةً، حتى أطْلَقَ «رسول الله» ﷺ هـذا التعبير عن تَعَجُّبِهِ، مُستَعْمِلاً صيغةَ أفعَلِ التفضيل في الشدَّة، فقال:

" ما أشَدَّ ما يسوؤني مما أرى بكم " ؟!

" وقامَ "، أي نهض، ولماذا قامَ ونهض؟

لا يمكننا نحْنُ أن نَفْهَمَ هـذه الأُمور...

لقد رأى - وهو يَراهُم على تلك الحالة وبذاك الوضع - ثمارَ عالَم الوجود وقد نضجت (أينَعَتْ)! لقد كانَ «رسول الله» ﷺ يجني (في ذلك الحين) ثَمَرة عالَم الوجود! ولكنه مع ذلك، ومع ما كان فيه (من أمْرٍ مُهمٍّ)، قامَ لينظُرَ ويَسْتَطْلِعَ حالَ الثمرة الأُخرى وبقيَّةَ الجنْي!

" وقامَ فانْطَلَقَ مَعَهُم "، لا حولَ ولا قوَّة إلَّا بالله، تُرى بأيِّ حال ينبغي أن تكونَ امرأةٌ أمسكَت عن الطعام ثلاثةَ أيام بِلَياليها؟ غير أن يكونَ الضعْفُ قدْ نالَ منها وأخذَ كُلَّ مأخَذٍ، حتى أرقَدَها وخلَّفَها طريحةً في فراشِ المرض!؟...

(ولـكنه) "رأى فاطمةَ في محرابها"، هـكذا تكونُ ثمَرَة شَجَرة الوجود («الزهراء»)، لقد كانت ﷺ في محرابها!

وبأيِّ حال؟ (تقول تَتِمَّةُ الرواية):

"فرأى فاطمةَ في محرابها قد اَلتَصَقَ ظَهْرُها بِبَطْنها"...

وهل كان هـذا فقط؟

كلَّا، (بل): "وغارَتْ عيناها"، "فنزَلَ جبريل"، وهنا بيت القصيد...(١١)

"وقال: خُذْها يا «محمد»، هنَّأكَ اللهُ في أهل بيتك، فأقرَأهُ السورة".

أي أنزلَ عليه سُورةَ "هل أتىٰ"، وماذا تعني "هَنَّأكَ الله"؟

إنَّها تهنئةٌ وتبريكٌ لـ «النبي» ﷺ على نجاحه في دوره الخاتم، من خلال رِعَايتِهِ لذلك الغَرْس، حتى أثمَرَتْ شجرةُ الوُجود.

(إنها تعني: إنك) ربَّيْتَ أُسرَةً فَعَلَتْ فِعْلاً (وأنْجَزَتْ عَمَلاً) كـانت هـذه صورتُهُ (شكلُهُ الظاهري)، وتلك كيفيَّتُهُ، أمَّا سريرتُهُ وباطنه فقد كان ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾...

وهنا (هـكذا) يتبلوَرُ معنى الحديث، ونترك شَرْحَهُ لمقام آخر...

(ولـكننا نُشيرُ هنا إشارةً إلى) إنَّ الحديثَ هُنا قرَّرَ أنَّ هـذا "البيْتَ" قد فنِيَ في وجه الله... وهنا نسألُ «الزمخشري» و«الثعلبي» و«البيضاوي»:

هل لكم عقول؟

هل تفكِّرون وتتدبَّرون أم لا؟

ألم تكتبوا هـذا الحديث وتنقلُوه في كُتبِكُم؟

---

(١١) في النصِّ الفارسي "بزنگاه مطلب"، و"بزنگاه": المواضع التي يتحيَّنُها قُطَّاع الطُّرق من مسير القوافل للسلبِ والسرقة، وهي هنا كناية عن لُبِّ الحديث ومقصوده الأصلي، الـذي يُقتَنَص ويُغتَنَم... فترجمتها بـ "بيت القصيد".

لقد فَنِيَتْ هذه الثُّلَّةُ في وجه الله، وقد بُرهِنَ على أنَّ أحكامَ المفنيِّ تَستَتْبعُ وتَلْحَقُ الفاني، وتنقَلِبُ ـ بعد الفناء ـ أحكامُ (وخصائِصُ) الفاني إلى أحكام المفنيِّ، بمعنى أنه لا يَعُودُ ثمَّة «عليٌّ»، ولا «فاطمة»، ولا «حسن»، ولا «حسين»!

لا يبقى ولا يكون إلَّا وَجْهُ الله...

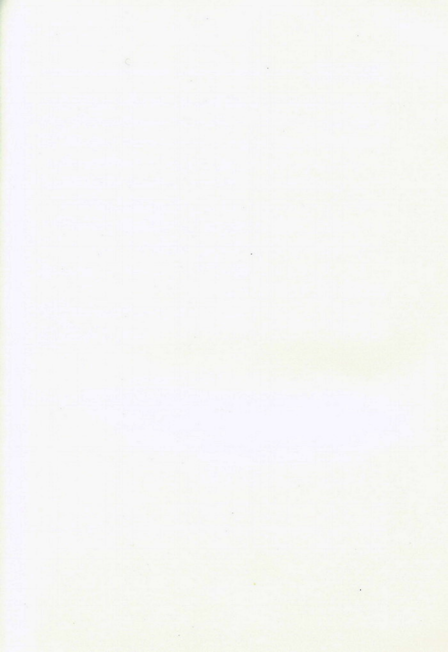
إذا كانَ وَجْهُ الله مما يمكِنُ مَعرِفته، فإنَّه يُمكِنُ معْرِفة «فاطمة» عليها السلام!

هكذا يتَّضِحُ السرُّ في قوله عليه السلام:

"إنما سُمِّيَتْ «فاطمة» لأنَّ الخلْقَ فُطِمُوا عن مَعْرِفتِها".

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

❁ ❁ ❁



المحاضرة التاسعة

التاريخ: ١١/جمادى الأولى/١٤١٤هـ
الموافق ٢٧/١٠/١٩٩٣م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: قدر فاطمة عليها السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

... ها قد فرغنا من بحث التخيير بين المتباينين، والتخيير بين الأقلّ والأكثر، ويأتي الآن بَحْثُ "الواجب الكفائي"...[1]

ولكننا سَنُؤَجِّلُ الدخولَ فيه، لِحُلُولِ ذِكْرىٰ اُستشهاد الصِدِّيقةِ الكُبرىٰ، والإنسيَّة الحوراء «فاطِمة الزَّهراء» صلوات الله عليها وعلىٰ أبيها وبَعْلِها وبَنيها، هذه المظلومَةُ، مجهولَةُ القـدْرِ، التي خَفِيَ قَدْرُها، وجَهِلَها العوامُّ والخَـواصُّ علىٰ السـواء، وهكذا المسلمونَ وغيْرُ المسلمين، وكما هي مجهولَةُ القدْرِ لَدَىٰ السُنِّيين (المخالفين)، فهي كذلك لَدَىٰ الشيعة أيضاً... علينا أن نُحييَ اُسمَها (ونُخَلِّدَ ذِكْراها)، علىٰ قدر اُستطاعَتِنا، ومع الإذعان بما نَحْنُ فيه من غاية القُصورِ والتقصيرِ، فأنا اليَوْمَ سأعْرِضُ جانباً مما قالَهُ اُثنان من أئمَّةِ السُنِّيين (المخالفين) في التفسير والحديث، ولي بعد ذلك حديثٌ ونقَاشٌ مَعهُما، إذ إنِّي أراهُما أهلاً لذلك (من حيثُ دَرَجَتُهما ومُستَواهُما العِلمي)...

(١) من تَتِمَّة درس أُصول الفقه الذي كان يلقيه «سماحة الشيخ» دام ظله ...

خَصَّص «الفَخْرُ الرَّازيُّ» في الـمُجلَّدِ الثامِن من تفسيره («التفسير الكبير»)، في الصفحة الخامسة والثمانين، المسألةَ الثانية - بِرُمَّتِها - لهذا الموضوع، ونقَل فيه حديثين، وكذلك فعَلَ «الزمخشري» إمامُ المفسِّرين في «الكشَّاف»، وقَد طَرَحَ «القاضي البيضاويُّ» الموضوعَ ذاتَهُ (ولكن بٱختصار شديد) بمُنتَهَى الأختصار.[٢]

هذا بخصوص المُفسِّرين، أمَّا أئمَّةُ الحديث: فقد تعَرَّضَ «مُسلِمُ» و«التِرْمِذيُّ» و«ٱبنُ مُنذِر» و«الحاكمُ النيشابوريُّ» و«جلالُ الدين السَيوطيُّ»[٣]، وَهُمْ من أئمة العلوم النقليَّة (عند السُّنِّيين)، (تعَرَّضُوا) للموضوع نفسه.

إنَّ ما سأقولُه اليَوْمَ هُوَ مما ٱتَّفقَتْ عَليْه كَلِمَةُ أئمَّةِ الحديثِ والتفسير...

وهذه هي خُلاصَتُهُ:

عندما خَرَجَ «النَبيُّ» ﷺ لِمُباهَلَةِ نَصارىٰ «نجران»، كانَ "عليه مِرْطٌ من شَعْرٍ أسْوَد"[٤]، حين خرج في اليوم الموعُود (المتَّفق عليه)، أيْ بعد إتمام الحُجَّة وإقامَةِ

---

(٢) انظر «الكشَّاف» لـ «الزمخشري» (ج١ ص٤٣٤)، و«تفسير البيضاوي» (ج١ ص٢٦١).

(٣) رواه «مسلم» في «صحيحه» (ج٢ ص٣٦٠)، و«الترمذي» في «الجامع الصحيح» (ج٥ ص٢٢٥ ح٢٩٩٩)، و«الحاكم» في «المستدرك» (ج٣ ص ١٥٠) ووافقه «الذهبي» على تصحيحه، و«السيوطي» في «الدر المنثور» (ج٢ ص٣٨)، و«أحمد» في «مسنده» (ج١ ص ١٨٥) ...

(٤) سَبَقَ هذا الموضع من الرواية مَقْطَعٌ لم يسرده سماحة «سماحة الشيخ» ﷺ، أنقُلُهُ بالنصِّ عن «تفسير الرازي» (ج ٨ ص ٨٥) إتماماً للفائدة:

رُوِيَ أنَّه ﷺ لما أوْرَدَ الدلائل علىٰ نصارىٰ «نجران»، ثم إنَّهم أصرُّوا علىٰ جَهلِهم، فقال ﷺ: "إنَّ الله أمرني إن لم تقبلوا الحُجَّةَ أنْ أُباهِلَكُم" فقالوا: يا «أبا القاسم»، بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك. فلما رجعوا قالوا للعاقِب، وكان ذا رأيهم: يا «عبدالمسيح» ما ترىٰ؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النَّصارىٰ إنَّ «مُحمَّداً» نبيٌّ مُرْسَلٌ، ولقد جاءَكُم بالكلام الحق في أمر صاحِبِكُم، والله ما باهَلَ قَوْمٌ نَبِيّاً قَطُّ فعَاشَ كبيرُهُم، ولا نَبَتَ صَغيرُهُم، ولئن فعَلتُم لَكَانَ الأستئصال، فإن أبيتم إلَّا الإصرار علىٰ دينكم والإقامة علىٰ ما أنتم عليه، فوادِعُوا الرجل وأنصرفوا إلىٰ بلادكم. وكان «رسول الله» (ﷺ) خَرَجَ وعليه مِرْطٌ... الحديث.

البُرْهان العِلْمِيّ القاطع من خلال ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾(٥)، وآنَ أوانُ المُحاجَجَة وبَلَغَ الأمْرُ إلىٰ المباهلة.

فَخَرَجَ «رسُولُ الله» ﷺ مُرتَدِياً ثَوْباً ورِداءً أسوَدَ، إنَّها أُمُورٌ لا تخفىٰ عليكم، ولكن المهم هنا هو نقْلُ (ما نَقَلَهُ) هؤلاء (العلماء المخالفين)، وما (يجب) عليهم أن يُعِدُّوه من جواب عن ذلك!...

هكذا بَلَغَ الأمْرُ الى المباهلة...

تُرىٰ ما هي حقيقَةُ المباهلة؟

إنَّ جَوابَ هذا السؤال هو ما سيأتي علىٰ لسان كبير أساقفة النصارىٰ، ولكن مع مُراعاة خُصوصيَّاتٍ مُعيَّنة، وهي أنَّه ﷺ: "خَرَجَ وعَليه مِرْطٌ من شَعْرٍ أسْوَد".

وكيف كانت هيئةُ الخروج؟

(ومما يجدر التنويه إليه) أن ما يُذكَرُ هنا برُمَّتِه، هو من أكثر المُستَندات الروائيَّة والتفسيريَّة إتقاناً واعتباراً، وهي مما لا ارتباطَ له بالمذهَبِ الشِيعيِّ (لم يؤخذ من المصادر الشيعية) بتاتاً!

خَرَجَ... "وكانَ قد احتَضَنَ الحُسيْنَ"، ومع أنَّ «سَيِّدَ الشُهداء» ﷺ كان حينها في سِنِّ مَن يمشي ويسيرُ علىٰ قدميه، إلّا أنَّ «الرسول» ﷺ خَرَجَ ـ لخصُوصِيَّةٍ ـ بهذه الهيئة: وهو يحْتَضِنُ «الحسين» ويضُمُّهُ إليه، (أمَّا يَدُهُ الأخرىٰ) ومن الطرف الثاني (فالحديثُ يقول:) "وأخَذَ بيَدِ الحَسَن"، أرجو التمعُّنَ والتدقيقَ في خُصوصيَّاتِ النقل، لقد تقدَّمَ هو («رسول الله» ﷺ)، "و«فاطِمةُ» تمشي خَلْفَهُ، و«عليٌّ» رَضِيَ الله عنه خَلْفَها"... كانت هذه حالَةُ وهيئةُ خُرُوجِهم (للمُباهَلة).

(٥) هذه الآية الشريفة سَبَقَت آية المباهلة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝﴾ (آل عمران).

لقد كان حَرِيّاً بـ «الفَخْرِ الرَّازيِّ» و«الزمخشريّ» و«البيضاويّ» و«النيشابوريّ» و«السَيوطيّ»، أن يُسَرِّحُوا النَّظَرَ ويُدلُوا برأيهم في جميع خُصوصيَّات القضيَّة، فلَيْسَتِ القيمَةُ للرواية بقَدْرِ ما هي للدراية، وقد قامَ أساسُ الدين - كِتاباً وسُنَّةً - علىٰ التفقُّهِ (فـ " الكمالُ كُلُّ الكمالِ التفقُّهُ في الدين "[٦]. وحقيقةُ التفقُّهِ عبارةٌ عن إمعَانِ النَّظَرِ والتدقيقِ في كُلِّ الأقوال، وجميع الأفعال والخُصوصيَّاتِ، ثم الأستنتاج (الأستنباط)...

لقد صَدَرت هذه الحركاتُ والخُصوصيَّاتُ عن ذلك «النبيِّ» الذي يُجَسِّدُ قَوْلَ الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ (النجم)، وهذه كلِمَةٌ تعني كثيراً، فمَن لا ينطِقُ عن الهوىٰ، لا يفعَلُ عن الهوىٰ (أيضاً)، وهو الذي نزَلَت فيه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۝﴾ (الحشر)، وهو الذي تُعَدُّ (كُلُّ أقواله وأفعاله، ويُعَدُّ تقريرُهُ)... سُنَّةً، لا مُجَرَّدَ أقواله فقط.

فجميعُ حَركاته وسَكَناتِهِ (هي) سُنَّةٌ، وكُلُّ أحوالِه وأطْوارِه (ما يَعْتَريه) مرتَبِطٌ بمقام ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾ (النجم)، إنه خُلاصَةُ العالَم ومُحَصِّلتُهُ، إنه «النبيُّ الخاتَم»، جَوْهَرُ الوُجود، والفَرْدُ الأوَّلُ لِعالَم الكَوْن... إنَّ كُلَّ نظرة (ٱلتفاتة) من مِثلِ هذه الشخصيَّة، تحمِلُ (في طيَّاتها دَلالاتٍ، وتنطوي علىٰ بحر متلاطم و...) عالماً من الحِكْمة، وكُلُّ عَمَلٍ منه يُشكِّلُ مَعِيناً تتدَفَّقُ منه (تخلُقُ) أربَعَةُ المعارف.

وعندما تَراهُ (أي «الرسول») يتقدَّمُ، و«عَليٌّ» علىٰ إثْرِه، و«فاطمةُ» في الوسط (بينهما)، فإنَّ لهذا الوضع مَعنىً ومَدلُولاً! إنه يعني: إنَّ «فاطمةَ» بَرزَخٌ بين النُّبُوَّة الكُبرىٰ والوِلايةِ العظمىٰ، إنه يعني: إنَّ «فاطمةَ» ﷺ تَتَمتَّعُ بمَوْقع القُطبيَّة، ولها دَوْرُ المركَزيَّة (المحورية) بين مَقامَي: الوحي الأعظم والبلاغ، فالذي كان يتقدَّمُها هو «رسولُ الله» ﷺ، والذي كان يَسيرُ خَلفَها هو «عليٌّ» ﷺ صاحبُ مَقامِ تفسيرِ الوَحْي...

---

(٦) من وصايا «الإمام الباقر» ﷺ: " الكمالُ كُلُّ الكمالِ التَفقُّهُ في الدين، والصبرُ علىٰ النائبة، وتقديرُ المعيشة " ... ذكره «أبن شعبة الحرّاني» في (تحف العقول) (ص٢١٣).

هذه هي «فاطمةُ الزَّهراء» ﷺ، مجهولةُ القَدْرِ على جميع العَوالِم.

ما الأمْرُ والسرُّ في الخروج بهذه الهيئة؟ (وكيف تتابعُ القِصَّةُ سَيْرَها؟)

هنا قال كَبيرُ الأساقفة وأعلَنَ لقومه:

"إنّي لأرى وُجُوهاً لو سَألوا الله أن يُزيلَ جَبَلاً من مَكانه لأزَالَهُ بها، فلا تُباهِلُوا فتَهْلَكوا ولا يبقى على وجه الأرض نَصْرانِيٌّ إلى يوم القيامة.

ثم قالوا: يا «أبا القاسم»، رأينا أنْ لا نُباهِلَكَ وأنْ نُقِرَّكَ على دينك.

فقال صلوات الله عليه (وآله):

فإذا أبَيْتُمُ المباهَلةَ فأسْلِمُوا، يكُنْ لكُم ما للمُسلِمينَ وعلَيكُم ما على المسلمين.

فأبَوْا، فقال: فإنّي أُناجِزكُمُ القتال، فقالوا ما لَنا بِحَربِ العَرَبِ طاقَةٌ، ولكن نُصالِحُكَ على أنْ لا تغزُونا ولا ترُدَّنا عن ديننا، على أنْ نُؤدِّيَ إليك في كُلِّ عامٍ ألفي حُلَّة: ألفاً في صَفَر، وألفاً في رَجَب، وثلاثين دِرْعاً عادية من حديد.

فَصَالَحَهُم على ذلك، وقال: والذي نفسي بيده، إنَّ الهَلاكَ قد تدلّى على أهل «نجران»، ولو لاعَنُوا (أي باهَلُوا) لَمُسِخوا قِرَدةً وخَنازير، ولاضْطَرَمَ عَلَيْهِمُ الوادي ناراً، ولاسْتأصَلَ اللهُ «نجرانَ» وأهلَه، حتى الطَّيْرَ على رؤوس الشجر، ولَمَا حَالَ الحَوْلُ على النَّصارى كُلُّهُم حتى يهلكوا". (٧)

ألا ليْتَهُ اقتَرنَ فَهْمَ الأُسقُفِ النصرانيِّ مع نَقْلِ «الفَخْرِ الرازيِّ»! إذ ها هنا تكْمُنُ المصيبة! فالروايةُ من «الفَخْرِ الرازيِّ»، ولكنَّ الدِرايةَ من الأُسقُفِ النصرانيِّ!... وهذه طامَّةٌ كُبرى! لقد فَهِمَ الأُسْقُفُ وأدركَ بأنَّ عليه أنْ يَحُولَ - بأيِّ ثَمَنٍ - بين هؤلاء وأنْ يرفعوا أيديَهُم بالدعاء. (٨)

---

(٧) انظر «التفسير الكبير» لـ «الفخر الرازي» (ج ٨ ص ٨٥).

(٨) وهذا يعني أن الأُسقُفَ عرَفَ قَدْرَهُم ووَقَفَ على خَطَرِهم، فحال بينهم وبين الدعاء إنقاذاً لِقَوْمه ونجاةً لهم، بينما جَهِلَ - أو تجاهل - «الفخر الرازي» ذلك! هذا هو وجه "الطامَّةُ الكبرى".

وكان «رسولُ الله» ﷺ حين خَرَجَ بتلك الهيئة ألتفت إليهم (إلىٰ «الزَّهراء» و«الأمير» و«أبنيهما» ﷺ) وقال: "إذا دَعَوْتُ فأمِّنوا".

دَقِّقوا في هـٰذه العبارة، لقد طَلَبَ مِنهُم أنْ يَقُولوا: "آمين" بعد دعائه...

ماذا يعني ذلك؟

أيُّها «الفَخْرُ الرازيُّ» و«الزمخشريُّ» و«البيضاويُّ»!

إنَّ ذلك يعني (إنَّ لهـٰذا القـول والفعل من «رَسُولِ الله» مَعنىً هُوَ) أنَّ مـا يَقـومُ به «النبيُّ» ﷺ هو أنعِكاسٌ للوَحي (وتطبيقٌ لأوامِرِ السماء)، فقد جاءَ الوَحيُ بـ ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴿٦١﴾﴾ (آل عمران)، فكان لا بُدَّ أن يجتَمِعَ الجميعُ ثمَّ تكُونُ (لكي تتَحقَّقَ) المباهلة.

إنَّ عِبارةَ "إذا دَعَوْتُ فأمِّنوا"، تعني أنَّ دُعائي، وأنا «النبيُّ الخاتَم»، هو (مُجَرَّدُ) مُقتَضٍ، وهناك شَرْطٌ لِفِعْلِيَّةِ أقتضاء هـٰذا المقتضي، هو أنفاسُ «فاطِمةَ الزَّهراء» ﷺ، ولا بُدَّ أنْ تنضَمَّ "آمينُها" إلىٰ دُعائي (حتىٰ تَتَحقَّقَ الإجابة)!

إنَّ دُعَاءَ «فـاطِمةَ الزَّهـراء» ﷺ شَرْطٌ، ومن المحال أنْ يُؤثِّرَ المقتضي بـدون تـحَقُّقِ الشرط، (هـٰذا ما جـاء به الوحي، وقَضَت به السُّنَّة)، وما كان دعاءُ «النبيِّ» ﷺ لِيَتَحقَّقَ حتىٰ في مثل ذلك الظرف (الحسَّاس)، أي حين مباهلة نصارىٰ «نجران»، إلّا أنْ تَرْتَفِعَ إلىٰ السماءِ أرْبَعُ أيدٍ أُخرىٰ بالدعاء...

إذا كـان الأمرُ كذلك، فمَن يكُونُ «عليٌّ» إذاً؟ ومَن تكُونُ «فـاطِمـة»؟ ومَن يكُونُ «الـحَسَنُ»؟ ومَن يكُونُ «الـحُسينُ» ﷺ؟...

ونَحنُ سنأخُذُ الإجابةَ هنا أيضاً من «الفَخْرِ الرازيِّ» و«الزمخشريِّ» نفسه، فقد قال «الزمخشريُّ» بعد ذِكْرِه لهـٰذا الحديث (حديث المباهلة)، ولَـكُم - كَـأهلِ عِلْـمٍ - أن تَلحَظُوا بِالدِّقَّةِ الفقهية، وهي الأساس والعُمدَة (في الأبحاث العِلميَّة)، (تلحظوا) جَوْدَةَ ولَطافةَ أستنباط هـٰذا الرجل، إذ قال:

"وفيه دليلٌ لا شيءَ أقوىٰ منه علىٰ فَضْلِ أصحابِ الكِسَاء عليهم السلام" ...[٩]
هذا ما خَطَّهُ قَلَمُ هذا الرجل.

وعلىٰ إثْرِ تقريرِ هذه الحقيقة، وبعد ذلك يقول:

"وفيه بُرهانٌ واضِحٌ علىٰ صِحَّةِ نُبُوَّة «النبيِّ» صلىٰ الله عليه (وآله) وسلَّم".[١٠]

وكذلك قال «القاضي البيضاويُّ» في تفسيره الشهير، بعد هذه القضية:

"وهو دليلٌ علىٰ نُبُوَّتِهِ وفَضْلِ مَنْ أتىٰ بهم من أهل بيته" ...[١١]

ولـ «الزمخشريِّ» كَلِمةٌ، وهي:

"إنَّ القُرآنَ قدَّمَهُم (الأبناء والنساء) في الذِكْرِ علىٰ الأنفُسِ، لِيُنَبِّهَ علىٰ لُطْفِ مكانهم وقُرْبِ مَنزلَتِهم، وليؤذِنَ بأنَّهُم مُقَدَّمُونَ علىٰ الأنفُسِ مُفَدَّوْنَ بها".[١٢]

وحقاً أنها لكَلِمةٌ عجيبة سَطَرَها قَلَمُ مثل هذا الفنَّان (الضليع المُبْدِع)!

وعندما يقولُ «الزمخشريُّ» - وليس أنا مَن يَقُولُ - بأنَّ القُرآنَ حينما قدَّمَ ذِكْرَ "أبناءَنا وأبناءَكُم" علىٰ "أنفُسنا" (التي تَلَتْهُم في الذِّكْر)، فإنَّ هذا يعني أنَّ رُوحَ ونَفْسَ «الحَسَنِ» و«الحُسَيْنِ» و«فاطِمَةَ الزَّهراء» عليهم السلام مُقَدَّمَةٌ علىٰ روح «رسول الله» صلى الله عليه وآله ونَفْسِهِ!

وأنَّ هذا الفِعْلَ منه صلى الله عليه وآله يعني أنَّه يفديهم بنفسه...

وعندما يكونُ هذا ما نَطَقَ وصرَّح به القرآن الكريم، وذاك هو فِعْلُ وعمل «رسول الله» صلى الله عليه وآله، وهذا قَوْلُ (واعتراف) «الزمخشريِّ»، فأنا أُقسِمُ بالله إنَّ الحُجَّةَ تامَّةٌ علىٰ جميع المسلمين في العالَم!

---

(٩) التسليم هنا "عليهم السلام" من أصل النصّ المنقول، فلم نكتبه بالرسم والنقش المعهود: "عليهم السلام" تنويهاً إلىٰ ذلك.

(١٠) انظر «الكشَّاف» لـ «الزمخشري» (ج١ ص٤٣٤، ط دار المعرفة/ بيروت).

(١١) انظر «تفسير البيضاوي» (ج١ ص٢٦١، ط مؤسسة الأعلمي/ بيروت).

(١٢) انظر «الكشَّاف» لـ «الزمخشري» (ج١ ص٤٣٤، ط دار المعرفة / بيروت).

وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنني أُوَجِّهُ السُّؤالَ إلى «الزمخشريّ» رَجُلِ التفسير، وإلى «الفَخْرِ الرازيّ» رَجُلِ العقل، فذاك بَطَلُ التفسير، وهذا بَطَلُ الفلسفة ورَجُلُها، وصاحبُ تلكَ المؤلَّفات، التي منها «المُحَصَّلُ»، و«شَرْحُ الإشاراتِ»، و«المباحث المشرقيّة»، وقد كَتَبَ في ذيل القضيّة (حديث المباهلة) ـ مع شِدّة تعصُّبه ـ (ما نصُّه):

" ورُوِيَ أنّه ﷺ لَمَّا خَرَجَ في المِرْطِ الأسْوَد، فجاءَ «الحَسَنُ» رضيَ اللهُ عنه فأدْخَلَهُ، ثم جاءَ «الحسينُ» رضيَ اللهُ عنه فأدْخَلَهُ، ثم «فاطمة»، ثم «عليٌّ» رضيَ اللهُ عنهما، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ".

ثم قال («الفَخْرُ الرازيُّ») مُمضياً:

" وأعلَم أنَّ هذه الرواية كالمتفق على صِحَّتِها بين أهل التفسير والحديث " ... (١٣)

إنّني أُوَجِّهُ سُؤالاً إلى الذي يقولُ هذا القَوْل، وَلَسْتُ مِمَّن يُخاطِبُ أيَّ مُتَشَيِّخ (تافه) ومُتطفِّل على العلم من السُّنِّيين (المخالفين)، فهم لَيْسوا أهلاً أنْ يُوَجَّهَ مثلي سُؤالَه إليهم! ولكن ماذا عسى «الفَخْرُ الرازيُّ» و«الزمخشريُّ» أن يُجيبا؟

إنَّ الحديثَ والسؤالَ يتوجَّهُ إلى «الزمخشريّ» و«الفَخْرِ الرازيّ» و«القاضي البيضاويّ» و«الحاكِمِ النيشابوريّ» و«جلالِ الدين السَيوطيّ»، وإلى العلماء الذين في (صفِّهم و) عِدادِهم: لقد رَوَيْتُم وقَرَّرتُم جميعاً أنَّ «النبيَّ» ﷺ جَمَعَ هؤلاء (الأربعة) في حركة ومَوْقفٍ أظهَرَ للعالم أنْ لا كَرامةَ لأحَدٍ على الله في هذه الدنيا، من بين أصحابه إلّا لهؤلاء، كرامَةٌ وَوَجاهَةٌ عند الله بحيث يُحقِّقُ اللهُ ويَستَجيبُ لما يريدون إذا ما رفَعُوا أيديهم بالدعاء، لم يكُنْ أحدٌ يتمتَّعُ بهذه الكرامة على الله إلّا أُولئكَ الأربعة...

لقد اعترَفتُم جميعاً بهذه الحقيقة، وأمْضَيتُم أنَّ تلكَ الأيديَ التي كانت سَتَرتَفِعُ بالدعاء إنما تنطَلِقُ من قلب (من صميم) العِصْمَة ولُبِّها (وَكرِها)، أم تُراكُم ـ أيُّها العلماء ـ قُلتُم وكَتَبتُم ولمَّا تفقَهُوا وتُدرِكُوا ما كَتَبتُم وقُلتُم؟!

---

(١٣) انظر «التفسير الكبير» لـ «الفخر الرازي» (ج ٨ ص ٨٥).

لم تفهمُوا (ماذا تعني) ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ۝﴾ (فاطر)، لا يُمكِنُ أن يَصْعَدَ "الكَلِمُ الطيِّبُ" وينطلقُ من لُبِّ (من أعماق) «أبي بكر» و«عمر»، لا ولا (حتىٰ) من «سلمان» (الفارسيّ) و«أبي ذر» (الغفاريّ)، ولا أيّ شخص آخر من أفراد هذه الأُمّة، لا يُمكِنُ أنْ تَصْعَدَ "الكلمةُ الطيّبةُ" لتبلُغَ وتطْرُقَ (تستدعي) ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝﴾ (الحجر)، ولا أنْ تنطلِقَ إلّا إذا ارْتَفَعَتْ يَدُ «فاطِمَة» ﷺ، ويَدُ «عليّ» و«الحَسَنِ» و«الحُسينِ» ﷺ بالدعاء.

هل هناكَ خامسٌ (نظير) لهؤلاء الأربعة (غير «رسول الله» ﷺ)؟

إذا كانَ الأمرُ كذلك، فهناكَ سُؤالٌ يَطرَحُ نَفْسَهُ، وهو:

مَن كانَ عِدْلَ «عبدالرحمن بن عوف» في شُورىٰ الخلافة التي أسَّسُوها؟!

إنني أُوَجِّهُ السؤالَ لكُم (عُلَماء التَسنُّن): مَنْ كانَ أهلُ تِلكَ الدَّارِ (البيت)، الذي نَقَلَ «ابنُ قتيبة»، أنَّ "الرَّجُلَ" وَقَفَ علىٰ دار «فاطِمَة» ﷺ وأمَرَ «عليّاً» ﷺ بالخروج وإلّا لأحرَقَ الدَّارَ على أهلِها؟ (١٤)

---

(١٤) رَوَىٰ «ابنُ قُتَيْبة» في كتابه (الإمامة والسياسة) (ص٣٠) قال:

"إنَّ «أبا بكر» (رض) تفقَّدَ قَوْماً تَخَلَّفوا عن بيعته عند «عليٍّ» كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه، فبعث إليهم «عمر»، فجَاءَ فناداهُم وهُم في دار «عليٍّ»، فأبَوْا أن يَخرُجُوا، فدعا بالحَطَبِ وقال: والذي نَفْسُ «عمر» بيده لَتَخرُجُنَّ أَوْ لأُحْرِقَنَّها على مَن فيها. فقيل له: يا «أبا حفص» إنَّ فيها «فاطِمَة»؟ فقال: وإن.

فخَرَجوا فبايعوا، إلّا «عليّاً» فإنّه زعَمَ أنّه قال: حلَفتُ أن لا أخرُجَ ولا أضَعَ ثَوْبي على عاتِقي حتىٰ أجمَعَ القرآن. فوقفت «فاطِمَة» رَضِيَ اللهُ عنها على بابها، فقالت: لا عَهْدَ لي بقوم حضروا أسوأَ مَحْضَرٍ منكم، تركتُم «رَسُولَ الله» صلىٰ الله عليه (وآله) وسَلَّمَ جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمرَكُم بينكم، لَمْ تستأمِرونا، ولَمْ تَرُدُّوا لنا حقّاً. فأتىٰ «عُمَرُ» «أبا بكرٍ»، فقال له: ألا تأخُذَ هذا عنك بالبيعة؟

فقال «أبوبكر» لـ «قُنْفُذ» وهو مَوْلىٰ له:

إذهب فأدْعُ لي «عَليّاً». قال: فذهب إلىٰ «عليٍّ»، فقال له: ما حاجتك؟

فقال: يدعوكَ خليفة «رَسُولِ الله»، فقال «عليٌّ»: لسريع ما كذبتم علىٰ «رَسُولِ الله».

فرَجَعَ فأبلَغَ الرسالةَ، قال: فبكىٰ «أبوبكر» طويلاً.

←

كيفَ غَابَ عنكُم أيُّها «البيضاويُّ» و«الرازيُّ» و«الزمخشريُّ» و«السَيوطيُّ»، أنتم أهلُ عِلمٍ وفَهْم، معنىٰ ومَدلولُ مَجيء مثل ذلك الشخص («عمر بن الخطّاب») إلىٰ (مثل) هٰذا البيت وقوله: يا «عليُّ» لَتَخرُجَنَّ أو لأُحرِقَ الدارَ علىٰ مَن فيها...؟!

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ (الأنعام)! فقال له أحَدُهُم: "إنَّ في البَيْتِ «فاطمة»".

وهٰذه كَلِمَةٌ تعني كثيراً، تعني أنَّ في هٰذا البيت مَنْ قالَ فيها «رسولُ الله» ﷺ: "مَنْ آذىٰ «فاطِمة» فقد آذاني، ومَنْ آذاني فقد آذىٰ الله "[15]، لٰكنه ردَّ: وإنْ!

---

(١٥) رواه «البخاري» (بأختلاف يسير) (كتاب "بدء الخلق" باب "، منقبة «فاطِمَة»"، وفي كتاب "النكاح"، باب "ذَبُّ الرجلِ عن أبنته")، وكذا «مسلم» (كتاب "فضائل الصحابة"، باب "فضائل «فاطِمَة»")، و«أبوداود» في «صحيحه» (باب "ما يُكرَه أن يجمع بينهن من النساء")، و«أحمد» في «مسنده» (ج٤ ص ٣٢٨)، و«الترمذي» في «الجامع الصحيح» (ج٥ ص٦٩٨ في كتاب "المناقب"، فضل «فاطمة»)... وغيرهم. ومن مصادرنا انظر «دلائل الإمامة» لـ «الطبري» (ص٤٥)، وعنه في «البحار» (ج٤٣ ص١٧٠)، وفي «عوالم العلوم» لـ «البحراني» (أحوال «فاطِمَة» ﷺ/ ص ٢٢٥)... وعشرات غيرها.

←

فقال «عُمَرُ» الثانية: لا تُمْهِل هٰذا المتخلِّف عنك بالبيعة. فقال «أبوبكر» (رض) لـ «قُنْفُذ»: عُدْ إليه، فقل له خليفة «رَسُولِ الله» يدعُوكَ لِتُبايعَ، فجاءه «قُنْفُذ»، فأدّىٰ ما أُمِرَ به، فرَفَعَ «عليٌّ» صوتَهُ فقال: سُبحانَ الله! لقد ادَّعىٰ ما ليس له... ثم قام «عُمَرُ» فمشىٰ مَعَهُ جماعة، حتىٰ أتوا بابَ «فاطِمَة»، فدَقُّوا الباب، فلَمَّا سَمِعَتْ أصواتَهُم نادَتْ بأعلىٰ صوتها: يا أَبَتِ يا «رَسُولَ الله»، ماذا لقينا بعْدَكَ من «أبنِ الخطّابِ» و«أبنِ أبي قُحافة»، فلَمَّا سَمِعَ القَوْمُ صوتَها وبكاءَها أنصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تنصدع وأكبادهم تنفطر، وبقي «عُمَرُ» ومعه قوم، فأخرجوا «عليّاً»...".

وأنظر المصادر الأُخرىٰ لهٰذه الواقعة الأليمة في: «العقد الفريد» لـ «أبن عبد ربه المالكي» (ج٤ ص٢٥٩ و٢٦٠، ط لجنة التأليف والنشر بمصر)، و«شرح نهج البلاغة» لـ «أبن أبي الحديد» (ج١ ص١٣٤ وج٢ ص١٩ط مصر، وج٢ ص٥٦ وج٦ ص٤٨ ط مصر بتحقيق «محمد أبوالفضل»، وج١ ص١٥٧ ط دار الفكر)، و«تاريخ الطبري» (ج٣ ص٢٠٢)، و«الملل والنحل» لـ «الشهرستاني» (ج١ ص٥٧ نقلاً عن «النظّام» ط دار المعرفة في بيروت وبهامش «الفصل» لـ «أبن حزم» ج١ ص٧٣ ط مصر).

وذكر في «بحار الانوار» لـ «العلّامة المجلسي» (ج٢٨ ص ٣٣٨)، و«الغدير» لـ «العلّامة الأميني» (ج٧ ص٧٧ عن: «تاريخ أبي الفداء» ج١ ص١٥٦، و«أعلام النساء» ج٣ ص٢٠٧١).

هٰذا ما رواه «ٱبنُ قتيبة»...

وما دام الأمْرُ كذلك، فأنا أطرحُ سؤالاً، دَقِّقُوا جيِّداً، فإنَّه والله لَحَقيقٌ أن تبكيَ البشريَّةُ دَماً علىٰ هٰذه المصيبة! بل هو قليلٌ في حقِّها، وسُؤالي هو: أيُّ بَيْعَةٍ هٰذه التي ٱستَدْعَت أنْ يقولَ الرجُلُ: لِيخرُج «عليٌّ» وإلّا أحْرَقتُ الدارَ علىٰ أهلِها؟

(ومن أجْلِ أيِّ شيءٍ أقدَمُوا علىٰ ذلك؟ من أجْلِ البيعة؟) إنَّها تلكَ البيعَةِ التي قال فيها نَفْسُ هٰذا الشخص الذي وَقَفَ علىٰ الدار وأمَرَ بها أمر، قال فيها: "بيعة «أبي بكر» فَلْتَةٌ ولٰكن وَقىٰ اللهُ شَرَّها". (١٦)

والله إنَّ الحُجَّةَ لَتامَّةٌ علىٰ العالمين!

فهٰذا «البُخاريُّ» يَشْهَدُ في (صحيحه)، أنَّ مَنْ جاءَ لِيُخرِجَ «عليّاً» ولَوْ بِحَرْقِ الدَّار التي فيها «فاطِمَةُ» و«الحَسَنُ» و«الحُسينُ»، (لِيُقيمَ ويُمْضِيَ بَيْعَةً) عَادَ لِيَقولَ عن تِلكَ البَيْعةِ إنَّها "فَلْتَةٌ"!

أي كانت غَلطَةً وزلَّةً حَفِظَ اللهُ الأُمَّةَ من تَبِعاتِها وشُرورِها!

أيُّها العالِمُ المُتسنِّن: هل كانَ ذلك الرجلُ الذي صَدَرَتْ منه هٰذه الكلمة عاقلاً أم لم يكُن؟ إذا لم يكُن بكامل قُوَاهُ العقليَّة فلا حَديثَ لنا معَهُ ولا ٱعتراض، ولٰكن إن كان عاقلاً، فإن إقرارَ العُقلاءِ علىٰ أنفُسِهِم جائزٌ (أيْ نافذ). لقد جاء لِيُحرِقَ دارَ «فاطِمَةَ» ﷺ حفاظاً علىٰ "بيعة"، أعتَرَفَ بِنَفْسِهِ (فيما بعد) أنَّها كانت بيعَةً خاطِئَةً!...

فَهَل هُناكَ مَنْ يَفُوقُ هٰذه المُخدَّرة ﷺ ظُلامَةً؟!

---

(١٦) نقل (البخاري) في "كتاب الحدود"، باب "رجم الحُبلى من الزنا إذا أحصنت"، هٰذا الخطاب لـ «عمر بن الخطاب» ضمن خطبة له في «المدينة المنوَّرة»: "ثُمَّ إنَّهُ بلَغني أنَّ قائلاً منكم يقول: والله لو ماتَ عُمَرُ بايَعْتُ فلاناً، فلا يغترَّنَّ أمرؤٌ أن يقول إنما كانت بيعة أبي بكر فلتةً وتمت، ألا وإنَّها قد كانت كذلك، ولٰكن الله وَقىٰ شَرَّها". راجع (فتح الباري) لـ «ٱبن حجر العسقلاني» (ج١٢ ص١٢٤). ويظهر من ذلك أن ٱعتبار الأمر "فلتة" كان راسخاً في الأذهان ودارجاً على الألسن، وكأنه مُتَّفَقٌ ومُتَسالَمٌ عليه، وإنما تدخُّل «عُمَر» هنا كان ٱستدراكاً ألحَق: "ولٰكن الله وَقىٰ شَرَّها"، ليس إلّا.

والله إنَّ المُصيبةَ لأعظَمُ مِمَّا نتصَوَّرُهُ وتَبلُغُهُ أفكارُنا!

لن يُعرَفَ - والله - قَدْرُ «فاطِمَة» إلّا ذلك الحين، في اليوم الذي قال (حدَّثَ) عنه «حُجَّةُ الله» («أميرالمؤمنين» ﷺ) فقال[١٧]:

" دَخَلَ «رسولُ الله» ﷺ ذاتَ يَوْم على «فاطِمَة» ﷺ وهي حزينة، فقال لها: ما حُزنُكِ يا بُنيَّة؟ قالت: يا أبة ذكَرْتُ المحشَرَ ووقوفَ النَّاسِ عُراةً يَوْمَ القِيامَة.

فقال ﷺ : يا بُنيَّة إنه لَيَوْمٌ عَظيمٌ، ولكن قد أخبَرني «جبرئيلُ» عن الله عزَّ وجلَّ أنَّه قال: أَوَّلُ مَن تنشَقُّ عنهُ الأرضُ يَوْمَ القيامَةِ أنا، ثمَّ أبي «إبراهيم»، ثم بَعْلُكِ «عليُّ بن أبي طالب»، ثم يبْعَثُ اللهُ إليكِ «جبرئيلَ» في سبعين ألفِ مَلَكٍ فيَضرِبَ على قبرِكِ سَبْعَ قِبابٍ من نور، ثمَّ يأتيكِ إسرافيلُ بثلاثِ حُلَلٍ من نور، فيَقِفُ عندَ رأسِكِ فيُناديكِ: يا «فاطمة بنت محمَّد»، قومي إلى مَحْشَرِكِ، فتقومينَ آمِنةً روعَتُكِ، مَستورةً عَوْرَتُكِ، فيُناوِلُكِ «إسرافيلُ» الحُلَلَ فتَلْبَسينَها، ويأتيكِ «رُوفائيلُ» بنجيبةٍ من نور، زِمامُها من لؤلُؤٍ رَطْبٍ، عليها مِحَفَّةٌ (مركبٌ للنساء كالهَوْدَج) من ذَهبٍ فترَكبينها، ويقودُ «روفائيلُ» بزِمَامِها، وبينَ يديكِ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ بأيديهم ألويةُ التسبيح.

فإذا جَدَّ بِكِ السَّيْرُ أستقبَلتكِ سبعُونَ ألفَ حوراء، يَسْتَبشِرنَ بالنَّظَرِ إليكِ، بيَدِ كُلِّ واحدةٍ منهُنَّ مجمَرةٌ من نور، يَسْطَعُ منها رِيحُ العُود من غير نار، وعَليهنَّ أكاليلُ الجوهَرِ، مُرَصَّعَةً بالزبرجَدِ الأخضر فيُسرِعْنَ عن يمينكِ، فإذا سِرْتِ من قبرِكِ أستقبلَتكِ «مريَمُ بنت عمران» في مِثلِ مَنْ مَعَكِ من الحُور، فتُسلِّمُ عليكِ وتَسيرُ هي ومَن مَعَها عن يَسارِكِ، ثمَّ تستقبِلُكِ أُمُّكِ «خديجة بنت خُوَيلد»، أوَّلُ المؤمناتِ بالله وبـ «رسوله»، ومعها سَبعُونَ ألفَ مَلَكٍ بأيديهم ألويةُ التكبير، فإذا قرُبْتِ من الجَمْعِ أستقبلَتكِ «حوّاءُ» في سبعينَ ألفِ حوراء، ومَعَها «آسية بنتُ مُزاحِم»، فتسيران هما ومَن مَعَهُما معَكِ، فإذا توسَّطْتِ الجَمْعَ، وذلكَ أنَّ اللهَ يجمَعُ الخلائقَ في صعيدٍ واحدٍ فتَسْتَوي بهمُ الأقدام.

(١٧) الرواية عن «أبن عباس» قال: سمعت «أميرالمؤمنين» ﷺ يقول: ... الحديث.

{إنَّه تبجيلٌ لم يحظَ به أحدٌ، لا «إبراهيم»، ولا «موسىٰ»، ولا «عيسىٰ» ؏، ولَم يَدَّخِر الله لهم في خزائنه اللامُتناهية من العطايا والمواهب مثل هٰذا! ففي ذلك اليوم يَفتَحُ الله خَزائنَهُ لـ «فاطِمَة» ؏ ويَهَبُها ما ليس لَهُ حَدٌّ}. (١٨)

ثُمَّ يُنادي مُنادٍ من تحتِ العَرشِ يُسْمِعُ الخلائِقَ: غُضُّوا أبصارَكُم حتى تَجوزَ «فاطِمَةُ بنتُ محمَّد» ﷺ ومَنْ مَعَها، فلا يَنظُرُ إليكِ يَوْمَئذٍ إلَّا «إبراهيمُ» خليلُ الرحمٰن و«عليُّ بنُ أبي طالب» ؏، ويَطلُبُ آدمُ حوَّاءَ فيَراها معَ أُمِّكِ «خديجة» أمامَكِ، ثم يُنصَبُ لَكِ مِنبَرٌ من نور، فيه سَبْعُ مَراقٍ، بينَ المِرقاةِ إلى المِرقاةِ صُفوفُ الملائكةِ بأيديهم ألويةُ النور، ويَصطَفُّ الحورُ العينُ عن يَمينِ المنبر وعن يَساره، وأقرَبُ النِساءُ منكِ «حَوَّاء» و«آسِية»، فإذا صِرتِ في أعلى المنبر أتاكِ «جبرئيلُ» فيقول لَكِ: يا «فاطمة»، سَلِي حاجَتَكِ.

{ولا حَدَّ (هنا) للطَلَبِ والأستجابة، فماذا ستكُونُ حاجَتُها من الله؟ تدبَّروا جيِّداً في هٰذا، فأنتُم أهلٌ للتدبُّر، وأعرفوا عَظَمَةَ الأمر، إنَّ الطَلَبَ يكُونُ دائماً على نَحْوِ الجزاءِ والمُقابِل، والجزاءُ غيرُ العمل، وهما شيئان مختلفان، ولٰكنها «فاطِمة»! التي عندَما يُعْرَضُ عليها الجزاءُ، وتُعطَى الأجر، ويُقالُ لها أطْلُبي، سَلِي؟ فإنَّها تَطْلُبُ العَمَلَ وتقُولُ: "اللهم أرِني «الحسنَ» و«الحسين»"، وهٰذه هي القِمَّةُ والغايةُ!}.

فتَقُولينَ: يا ربِّ أرِني «الحَسَنَ» و«الحُسَيْنَ». {أي (تقول) يا ربِّ أرِني (نتيجَةَ) عَمَلي كما هو، فيُريها الله}. فيَأتِيانَكِ وأوْداجُ «الحُسَيْنِ» تَشْخَبُ دَماً {هُنالِكَ يَظْهَرُ مَنْ هيَ سيِّدَةُ الوُجُود؟ إنها «فاطمة الزَّهراء»، الإنسيَّةُ الحوراء، الصدِّيقةُ الكُبرىٰ، إنها الموجُودُ البَشَرِيُّ الذي يُشكِّلُ قُطْبَ دائرة النُبُوَّة العظمىٰ والولاية الكُبرىٰ}.

وهو يَقُولُ (أي «الحُسَيْن» ؏): يا رَبِّ خُذْ لِيَ اليَوْمَ حَقِّي ممن ظَلَمَني، فيَغْضَبُ عند ذلكَ الجليلُ، وتَغْضَبُ لغَضَبِه جهنَّمُ والملائكَةُ أجمعون، فتَزْفُرُ جهنَّمُ عند ذلك زَفْرَةً، ثمَّ يخرُجُ فَوْجٌ من النار، ويلتقطُ قَتَلَةَ «الحُسَيْن» وأبناءَهُم وأبناءَ أبنائهم!

---

(١٨) ما بين القوسين { } من تعليقات سماحة «الشيخ» المحاضر دام ظله على الرواية.

فيقولون: يا ربِّ إنَّا لم نحضُر «الحُسَيْن».

فيقولُ اللهُ لزَبانِيَةِ جهنَّم: خُذوهُم بسيماهُم بزُرقَةِ الأعيُن، وسَوادِ الوُجُوه، خُذُوا بِنَواصِيهِم فألقُوهُم في الدَرْكِ الأسفَلِ من النار، فإنَّهُم كانُوا أشدَّ على أولياء «الحُسَيْن» من آبائهم الذين حاربوا «الحُسَيْن» فقتلوه، فتَسمَعينَ أشهِقَتَهُم في جَهنَّم.

ثم يقولُ «جبرئيلُ»: يا «فاطمةُ» سَلِي حاجتك.

فتقولين: يا رَبِّ شيعتي.

فيقولُ اللهُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُم.

فتقولين: يا رَبِّ شيعة وَلَدي.

فيقولُ اللهُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُم.

فتقولين: يا رَبِّ شيعة شيعتي. فيقولُ اللهُ: انطَلِقي فمَنْ اعتَصَمَ بكِ فهُوَ معَكِ في الجنَّة، فعند ذلك تَوَدُّ الخلائقُ أنَّهُم كانُوا فاطميين، فتسيرين ومَعَكِ شيعَتُكِ وشيعةُ وُلدِكِ وشيعة «أميرالمؤمنين»، آمِنَةً رَوْعَاتُهُم، مَستُورَةً عَوْراتُهُم، قد ذَهَبَتْ عنهم الشدائد، وسَهُلَتْ لهم الموارد، يَخافُ الناسُ وهم لا يخافون، ويظمأ الناسُ وهم لا يظمأون، فإذا بَلَغْتِ بابَ الجنَّة، تلقَّتْكِ اثنا عشَرَ ألف حوراء لم يَتَلَقَّيْنَ أحداً قبلَكِ، ولا يَتَلَقَّيْنَ أحداً كان بَعْدَكِ، بأيديهم حِرَابٌ من نُورٍ على نَجَائبَ من نور، جِلالُها من الذهب الأصفر والياقوت، وأزِمَّتُها من لُؤلُؤٍ رَطْبٍ، على كل نجيب نُمْرُقَةٌ من سُندُسٍ، فإذا دَخَلْتِ الجنَّة تباشَرَ بِكِ أهلُها، ووُضِعَ لشيعَتُكِ مَوائدُ من جَوْهَرٍ على عُمُدٍ من نُورٍ فيأكلون منها والناسُ في الحساب، وهم في ما اشْتَهَتْ أنفُسُهُم خالِدون». (١٩)

---

(١٩) انظر (بحار الأنوار) لـ «العلَّامة المجلسي» قدس سره (ج٨ ص٥٤) نقله عن (تفسير فرات بن إبراهيم) (ص١٧١). ورَوَتْهُ العامَّةُ بِطُرق وألفاظٍ أُخرى، وجاءت مقاطع منه في: (المستدرك على الصحيحين) (ج٣ ص١٥٣)، و(مَوَدَّة القُربى) لـ «الهمداني» (ص١٠٤)، و(فرائد السمطين) لـ «الحمويني» (ج٢ ص٤٩ ح٣٨٠)، و(دلائل النُبوَّة) لـ «أبي نعيم» (ص٥٣١)، و«مقتل الخوارزمي» (ص٥٥)، و«نظم درر السمطين» (ص٨٢١)، و«أُسد الغابة» (ج٥ ص٥٢٣)، و«لسان الميزان» (ج٢ ص٣١٤).

والله إنَّ قَدْرَ «الزَّهراء» لمجهولٌ على الخلق والخليقة، ولا غَضاضَةَ إن كان قَدْرُها مَخفيّاً ومجهولاً في أوساط السُّنِّيين(٢٠)، ولكنها مجهولة القَدْرِ في دولتها أيضاً، هذه دولةُ «فاطمة»، هذه بلادُ «الزَّهراء»... وفيها يحتفلون بذِكرىٰ «جم»(٢١)، وبـ «نوروز العجم»(٢٢)، ويُعلِنونَ العُطْلَةَ الرسميَّة (للدولة ومؤسساتها)، لكنهم لا يتَّخذونَ من يوم اُستشهاد «الزَّهراء» ﷺ عطلةً رسميةً! (إنها) المجهولةُ قَدْراً، ماذا عسانا أن نتوَقَّعَ وننتَظِرَ (من الغريب والخصم) إذا كانت «الزَّهراء» مجهولة القدر في دولتها وبلدها؟!

اللهم بـ «فاطمة» وأبيها، وَبَعْلِها وبنيها، والسِرِّ المستودع فيها، صلِّ وسلِّم على فاطمةَ وأبيها، وَبَعْلِها وبنيها، عَدَدَ ما في عِلمِكَ، صلاةً دائمةً بدوام مُلكِكَ وفضلك، والعن أعداءَها وغاصِبي حقوقها عَدَدَ ما في عِلمِكَ لعناً دائماً بدوام قَهّاريَّتِكَ وعَدْلِكَ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رَبِّ العالمين.

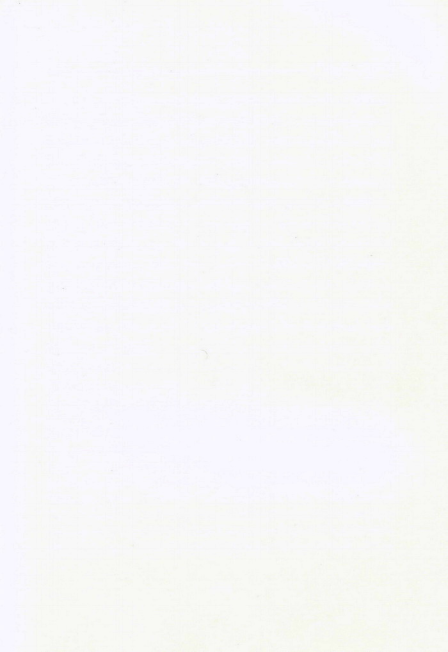
وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

❁ ❁ ❁

(٢٠) ممن لم يحظَ بمَحبَّتها وولائها، فكيف به وأنّى له بمعرفتها!؟

(٢١) جَمْ: مخفَّف «جمشيد»، رابع الملوك «البيشدادية»، (وفقاً لـ (شاهنامة) «الفردوسي»)، وهم الذين وضعوا القانون وعملوا به وجعلوه أساساً للحكم والعدل، أوَّلهم «هوشنك بن آدم» الذي تذهب التواريخ إلى أنَّهُ حكَمَ «إيران» لسبعمئة سنة، حتى خرج عليه «الضحّاك»، وهو من إخوان «شدّاد بن عاد»، وكان مؤمناً بالصابئية، فهزمه وألجأه إلى «سيستان»... وهي السلسلة الملكية الأولى للفرس. وما تزال آثارهم قائمة في إقليم «فارس» (أطراف مدينة «شيراز») وهي المعروفة بـ «تخت جمشيد»، وهناك من يخلط بينها وبين عرش «النبي سليمان» ﷺ في «القدس»، و«جمشيد» هذا هو مَن يسميه العرب «منوشلخ»... انظر (لغت نامه) موسوعة «علي أكبر دهخدا» (ج ٤٦ حرف الجيم).

(٢٢) النوروز: رأس السنة الفارسيَّة... أما بخصوص المُطالَبة بعطلة رسمية بمناسبة اُستشهاد «الصدِّيقة الكُبرىٰ» ﷺ، فقد أثمَرَت مساعي «سماحة الشيخ» دام ظله وحقَّقَت مُطالباته النتيجة المرجوَّة، فقد أُعلن تاريخ وَفاتها (وفقاً لرواية الثالث من جمادىٰ الآخرة) عطلة رسميَّة في «إيران»، وذلك بتدخُّل مباشر من «سماحته» إلى الرئيس الأسبق «السيد محمد خاتمي».



المحاضرة العاشرة

التاريخ: ٢٨/جمادى الأولى/١٤١٢هـ
الموافق ٤/١٢/١٩٩١م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: منزلة فاطمة عليها السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

سنَنتَقِلُ بكم اليَوْمَ من الحديث في "الفقه الأصغر" إلى "الفقه الأكبر"[1]...

ونَحْنُ، وإن لم نكن أهلاً لذلك، ولكن "ما لا يُدرَكُ كُلُّه لا يُترَكُ كُلُّه"، إذ إنَّنا بمُجرَّد (القصد و) العَزْم على دخول هذا الموضوع الجديد، نلمَسُ (نشعر) في أنفُسنا الانفعالَ والتأثُّرَ!

فليس البحثُ في هذا الموضوع مثلَ البحث في ما كُنّا فيه (بحث أُصول الفقه)، فكم كان البحث في ذاك سَهْلاً ومُيَسَّراً، لتَوَفُّرِ القُدْرَة والتمَكُّن (منه)، ولكنَّ البَحْثَ هنا صَعْبٌ وعَسيرٌ، إذ الموضوعُ هو المُسَيْطِرُ علينا والمتمكِّنُ مِنّا هنا، لا العكس!

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨﴾ (النساء)، كم هي عجيبة هذه الآية؟

---

(١) الفقه الأكبر: إصطلاح يُعبَّر به عن علوم العقائد والمعارف الإلهية.

إنَّ الأستثناءَ من هذا النفي (الذي جاءَ في الآية) إثباتٌ، فالله سبحانه يُحِبُّ أن يُجْهَرَ بظُلم المظلوم، ويُحبُّ أن يَعْلُوَ الصوتُ (في الظلامة)، وأنْ تَرتَفِعَ صَرْخَةُ المظلوم.

وللظلم مراتبٌ ودَرَجاتٌ، وحُكْمُهُ من الواضحات عقلاً ونقلاً، لكنَّ المُهِمَّ هو الألتفاتُ إلىٰ حَجْمِ الظُلم وحَدِّهِ، وهذا، أي إدراكُ حجم الظلم، يتطَلَّبُ غايةَ الدقَّةِ والتعمُّق، ونحنُ لا يُمكِنُنا أن نَقِفَ علىٰ أبعاد هذا الظلم، (فنُحدِّدَ) في أيِّ الدرجات والمراتب كان؟ ولكن يمكننا عن طريق الـ "إن" أنْ نَكْشِفها، بالبرهان "الإنِيّ"[٢]، ومع أنَّ هذا النَحْوَ من الكشف لا يأخذُ بأيدينا إلىٰ الحقيقة ولا يَسْمَحُ لنا بإدراكها، لكنَّهُ يبقىٰ (علىٰ كل حال) آيةً وعلامةً، وهذا هو مَبْلَغُ "الدليل الإنِيّ"...

إنَّ "أصبَرَ الصابرين" هو عنوانٌ يَصْدُقُ وينطَبِقُ علىٰ شخص واحد فقط في هذه الدنيا، وهو «أميرُالمؤمنين علي بن أبي طالب» عليه السلام، وقد جاءَ هذا العنوانُ واللقَبُ في خطبة الإمام «عليّ بن الحسين» عليه السلام في مجلس «يزيد» في «الشام»:

"أنا أبنُ مَن ضَرَبَ بين يدي «رسول الله» بِسَيْفَين، وطَعَنَ بِرُمْحَين، وهاجَرَ الهجرتين، وبايَعَ البيْعَتَين، وقاتَلَ بِبَدْرٍ وحُنَيْن، ولم يكْفُرْ بالله طَرْفَةَ عَيْن. أنا أبنُ صالحِ المؤمنينَ، ووَارِثِ النبيينَ، وقامِعِ المُلحِدينَ، ويَعْسُوبِ المُسلِمينَ، ونورِ المُجاهِدينَ، وزيْنِ العابِدينَ، وتاجِ البكَّائِينَ، وأصْبَرِ الصابِرينَ".[٣]

---

(٢) الدليل أو البرهان "الإنِيّ": مُصطَلَحٌ منطقي للأستدلال بالمعلُول علىٰ العِلَّة، كما لو قيل "هذه الحديدة مُتمدِّدةٌ، وكلُّ حَديدَة متمدِّدَة فإنَّ درجةَ حرارتها مُرتَفعة"، فالأستدلال بالتَّمدُّد علىٰ أرتفاع درجة الحرارة، أستدلالٌ بالمعلُول علىٰ العِلَّة، فيكون العلم بوجود المعلول سبباً للعلم بوجود العِلَّة. ويقابله البرهان "اللمِّيّ"، وهو علىٰ العكس من ذلك، إذ يكون الأستدلال فيه بالعِلَّة علىٰ المعلول، فبرهان التَّمدُّد في القضية: "هذه الحديدة أرتفَعَتْ حَرارتُها، وكلُّ حَديدَة ترتفع حرارتها فهي مُتمدِّدةٌ، فينتج هذه الحديدة مُتمدِّدة"، هو برهان "لِمِّيّ"، ويسمىٰ أيضاً "بُرهانُ لِمَ". وبِلُغة فنيَّة محْضَة، هناكَ تعريفٌ أدقُّ لـ "البرهان اللمِّيّ": "هو البرهان الذي يكون الحد الأوسط فيه علَّة لأتصاف موضوع النتيجة بمحمولها".

(٣) انظر «بحار الأنوار» (ج٤٥ ص١٣٨ في رواية طويلة تحكي ما جرىٰ بعد قتل «سيد الشهداء» عليه السلام).

أمَّا كيفَ يكونُ "أصْبَرَ الصابرينَ"؟

فهذا ما تَجِدُ جَوابهُ وتَوضيحَهُ في حديث «أميرالمؤمنين» ﷺ نفسه...

فهل رأيْتُم أو سَمِعْتُم أنَّ أحَداً شِيكَتْ عيْنُهُ، وشُجِيَ حَلْقُهُ (غُصَّ بعَظْمَة)[٤]، ومع ذلك، صَبَرَ علـى تلك الحـال؟! إنَّ هذا ممـا لم تـسمَعهُ أُذُنٌ ولا رأتْهُ عَينٌ، ولكنَّ «أميرالمؤمنين» ﷺ يَصِفُ حالَهُ ويَقولُ: "فصَبَرْتُ وفي العَيْنِ قَذَىً وفي الحلْقِ شَجَىً"[٥]! يقول لقد صبرتُ مع هذه الحال، فأيُّ مَدَىً بَلَغَ هـذا الصبرُ؟!

إنَّ ما تَجِدهُ في بعض المواضع الأُخرى من الروايات (من التراث الروائي)، إنما هو تفصيلُ هذا الـمُجْمَل، فإذا كان قد ذُكر «أميرالمؤمنين» ﷺ في تلك الخطبة (خطبة «الإمام زين العابدين» ﷺ) بعنوان "أصبرِ الصابرين"، فإنَّكَ تَجِدُ سِرَّ هذا التعبير يتجلَّى في هذه الخطبة (الشِقْشِقيَّة).

ثم تَجِدُ أنَّ مَنْ بَلَغَ صبْرُهُ حَدَّ "فصَبَرْتُ وفي العَيْنِ قَذَىً وفي الحلْقِ شَجَىً"، يقول: "قَلَّ يا رَسُولَ الله عن صَفيَّتِكَ صَبري، ورَقَّ عنها تَجَلُّدي!".[٦]

---

(٤) أي دَخَلَها ونفَذَ فيها الشَّوْكُ، وقذى العين ما يتجمَّعُ في الـمُوقِ من إفرازاتٍ بيضاء جامدة، أمَّا الشجىٰ فهو ما أعتَرَضَ في الـحَلْقِ من عَظْمٍ ونحوه.

(٥) من الخطبة "الشِقْشِقيَّة" في (نهج البلاغة)، وهي الخطبة الثالثة.

(٦) من خطبة لـ«أميرالمؤمنين» ﷺ في رثاء «الزَّهراء» ﷺ بعد الفراغ من دفنها، فقد رُوِيَ عنه أنه قال ـ كالمناجي به «رَسُولَ الله» ﷺ ـ: "السلامُ عليكَ يا «رَسُولَ الله» عنِّي وعن ابنَتِكَ النازلَـةِ في جِوارِكَ، والسريعةِ اللَّحاقِ بكَ! قَلَّ يا «رَسُولَ الله» عن صَفِيَّتِكَ صَبْري، ورَقَّ عنها تجلُّدي، إلّا أنَّ في التأسِّي لي بعظيمِ فُرقَتِكَ، وفادحِ مُصيبتِكَ، مَوْضِعَ تعزٍّ، فلقد وَسَّدْتُكَ في مَلحُودَةِ قَبرِكَ، وفاضَتْ بين نحري وصدري نَفْسُكَ، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، فلقد أُسترْجِعَتِ الوديعةُ، وأُخِذَتِ الرَّهينةُ وأُختُلِسَتِ «الزَّهراءُ»! فما أقبَحَ الخضراءَ والغبراءَ يا «رَسُولَ الله»...

أمَّا حُزني فسَرْمَدٌ، وأمَّا لَيلي فمُسَهَّدٌ، إلى أن يختارَ اللهُ لي دارَكَ التي أنتَ بها مُقيمٌ، كَمَدٌ مُقيِّحٌ، وهَمٌّ مُهيِّجٌ، سُرعانَ ما فُرِّقَ بيننا، وإلى الله أشكو، وستُنبِّئُكَ أبنتُكَ بتضافُرِ أُمَّتِكَ على هَضْمِها، فأحْفِهَا السؤالَ، وأستخبِرها الحالَ، فكم من غليلٍ مُعْتلِجٍ بصَدْرِها لم تجِدْ إلى بثِّه سبيلاً...

←

لقد نَفَدَ هذا الصبْرُ الذي وَسِعَ العالَمَ كُلَّهُ، (لقد طَفَحَ الكَيْلُ بذلكَ الصبور الذي تَحَمَّلَ كُلَّ تلكَ المصائب) لَيْلَةَ دَفْنِ «الزَّهراء» ﷺ! وخلَّفَتْ مُصيبَةُ تلكَ الليلةِ فتى البشريَّةِ (وبطلها)، ذاكَ الذي عَيِيَتْ "خَيْبَرُ" عن إرغامه، وأنكفأ "الخندَقُ" عن هزيمته، وعَجَزَتْ "لَيلَةُ المبيتِ" عن دَفْعِهِ للفرار... خَلَّفَتهُ عاجزاً مرغوماً مَغْلُوباً على أمْرِه، لا حِيلَةَ لَهُ! حتىٰ قال:

"قَلَّ يا رَسُولَ اللهِ عن صَفِيَّتِكَ صَبري"!

وبعد! فإنه لم يُفْضِ هذه الشكوىٰ لأحَدٍ. ومَن كانَ هُناكَ حتىٰ يَبُثُّهُ («الأمير» ﷺ) شَجْوَهُ وآلامَهُ؟! لم يكُن هُناكَ مَنْ يَلْمِسُ ويَتَحسَّسُ لَوْعَتَهُ إلّا تلكَ التي خاطَبَها على قبرِها (أي «الزَّهراء» ﷺ)! ثم ذكَرَ العِلَّةَ في ما أعتَراه، وسَاقَ العُذْرَ على ما ألَمَّ به، وهو مَن صَبَرَ "وفي العَيْنِ قَذَىً وفي الحلْقِ شَجَىً"... نَرَاهُ يقولُ:

"فبِعَيْنِ اللهِ تُدفَنُ ٱبنَتُكَ سِرّاً"؟ هذا هو ما قَصَمَ ظَهْرَ «أميرِالمؤمنين» ﷺ!

ونَحنُ اليَوْمَ سنتناوَلُ هذه الكلِمةَ - فقط - بالبحث، حتىٰ نَقِفَ شيئاً ما على مقدار ما وَقَعَ من ظلم...

رَوَىٰ «ٱبنُ حَجَر» في (لسان الميزان) و«الحافِظُ الذهبيُّ» في (ميزان الاعتدال)، وهما من أرباب الحديث، ونَقْدِ الحديث، وهما ممن لا حاجةَ إلىٰ تعريفهما...

←

والسلامُ عليكما سلامَ مُوَدِّعٍ لا قَالٍ ولا سَئِمٍ، فإن أنصرفَ فلا عن مَلالَة، وإن أُقِمْ فلا عن سُوءِ ظنٍّ بما وَعَدَ اللهُ الصَّابرين، واهاً واهاً! والصَّبرُ أيمنُ وأجمل... ولولا غلَبَةُ المستولين لجعلتُ المقامَ عندَ قبركِ لزاماً، واللبثَ عندَه معكُوفاً، ولأعوَلتُ إعوالَ الثكلىٰ على جليل الرَّزيَّة، فبعين الله تُدفَنُ ابنتُكَ سِرّاً، وتُهضَمُ حقَّها قهراً، وتمنَعُ إرثَها جَهراً، ولم يتباعد العهد، ولم يخلق منك الذكْر، وإلىٰ الله يا «رَسُولَ الله» المشتكىٰ، وفيك يا «رَسُولَ الله» أحسن العزاء...".

والنصُّ هنا جمعٌ وتلفيقٌ لما ذكِرَ في عِدَّةِ مصادِرٍ هي: (الكافي) لـ «الكليني» (ج١ ص٤٥٨ ح٣)، (أمالي المفيد) (ص١٨١ المجلس٣٣ ح٧)، (أمالي الطوسي) (ج١ ص١٠٧)، (البحار) لـ «المجلسي» (ج٤٣ ص١٩٣)، (نهج البلاغة) لـ «الشريف الرضي» (الخطبة٢٠٢).

رَوَيا حديثاً هذا نصُّهُ: "أَوَّلُ شَخْصٍ يَدخُلُ الجَنَّةَ «فاطمةُ بنتُ محمَّد»".[(٧)]

وقد رَواهُ (أيضاً) «أبوصالح المؤذِّنُ» وغَيرُهُ من أعلام السُّنِّيين (المخالفين)، ونَحنُ سنتَعَرَّضُ هنا لِفقْهِ الحديث أيضاً، وستعامَلُ مع هذا النصِّ كما يتعامَلُ مُتَسَنِّنٌ، (ولكنه) تَخَلَّصَ من حِجابِ العَصَبيَّة، وحَكَّمَ العَقلَ والكِتابَ والسُّنَّة...

إنَّ الفارقَ بين عالَمَي الدنيا والآخرة، وَفْقَ كُلِّ دقائق التعابير التي أطْلَقَها أعيانُ المتألِّهين والحُكماءِ المُدقِّقينَ، والفقهاءِ الرَّاسخين، هُوَ أنَّ هذا العالَمُ هُوَ عالَمُ غَلَبَةِ المُلْكِ على الملكوت، والظُّهورِ على البُطُون... إنه عالَمُ غَلَبَةِ الباطِلِ على الحقِّ، وغَلَبَةِ الشُّهود على الأمر.

ومن هنا فإنَّ السِّيَرَ تَتبَعُ الصُّوَرَ، والصُّورُ حاكِمةٌ على السِّيَرِ في هذه النشأة، والسِّيَرُ هي المَنويَّاتُ، أي النيَّات، "لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَىٰ"[(٨)]، إنَّ جميعَ أسرارِ الحكمة لَمَخزونةٌ (موجودة) في الأحاديث الشريفة، حيثُ يقولُ («الإمامُ الصادق» ﷺ):

"أنتُم أفقَهُ الناسِ إذا عَرَفتُم معاني كلامنا".[(٩)]

إنَّ الصُّورةَ هي الغالِبةُ على السِّيرة هنا (في هذا العالم)، فمِنَ الممكن أنْ يكُونَ شخصٌ ما ذئباً في باطِنِه، ولكنَّ صُورتَهُ هي صُورةُ إنسانٍ (سَوِيٍّ)! ولا تختلِفُ (صُورتُهُ) عن صورة الإنسان الكامل!

---

(٧) انظر (ميزان الأعتدال) (ج٢ ص٦١٨ في ترجمة «عبدالسلام بن عجلان»)، و(لسان الميزان) (ج٤ ص١٦)، وراجع (كنز العمال) (ج١٢ ص١١٠)، وجاء بأختلاف يسير في (مقتل الخوارزمي) (ص٧٦)، و(الخصائص الكبرى) لـ «السيوطي» (ج٢ ص٢٢٥)، و(التدوين) لـ «الحافظ الرافعي» (ج٢ ص١٤)، و(مستدرك الحاكم) (ج٣ ص١٥١)، وتجده في (المناقب) لـ «أبن شهراشوب» (ج٣ ص٣٢٩).

(٨) عن «النبيِّ» ﷺ: "نيَّةُ المؤمنِ خَيْرٌ من عَمَلِه، إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ ولِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَىٰ"... انظر (البحار) (ج٧٠ ص٢١٠).

(٩) جاءت الرواية في (البحار) (ج٢ ص١٨٣ نقلاً عن (معاني الأخبار) لـ «الصدوق»)، وفي هذا الباب، عن «الصادق» ﷺ: "خَبَرٌ تدريه خَيْرٌ من عَشرة ترويه... إنَّا والله لا نَعُدُّ الرجُلَ من شيعتنا فقيهاً حتى يُلْحَنَ له فيَعْرِفَ اللَّحْنَ"... انظر (البحار) (ج٢ ص٢٠٨ نقلاً عن (غيبة النعماني)).

لأنَّ الصُورةَ حاكِمَةٌ (مُهيمنةٌ) علىٰ السيرة (هنا)، وجَذرُ هٰذا الأمر ومَنبَعُهُ هو ما ذكَرْتُهُ سابقاً، ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس)، إذ الغَلَبَةُ ـ في هٰذه النشأة، وهي نشأةُ المُلْكِ ـ هيَ للمُلْكِ، والمَلَكُوتُ (هنا) مَغلوبٌ علىٰ أمْرِه ومَقْهُور.

ولكِنَّ الوَضعَ سينْقَلِبُ في الآخرة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم)، هٰكذا ستَنْقَلِبُ الأمورُ، و"بَرَزُوا" أي سيَظْهَرُ ويبْرُزُ كُلُّ شيءٍ من كُمُونه، وفي "البروز" نُكتَةٌ لطيفة، وكم هي عجيبة آياتُ القرآن! إذ تراه يُعبِّرُ (عن الحَشْرِ) في موضع (وأنَّهُ علىٰ الوُجُوه) بقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ (الإسراء)[١٠]، هٰؤلاء الذين يُحشَرونَ علىٰ الوُجُوه... وهناك وُجُوهٌ أُخرىٰ (تقول فيها الآية الكريمة): ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة).

إنه يَوْمٌ تكُبُّ فيه وُجُوهٌ إلىٰ الأرض، وتَرتَفِعُ وُجُوهٌ (أُخرىٰ) وتَعْلُو، لا إلىٰ الجنَّةِ ولا إلىٰ الفردوس، لا إلىٰ العَدنِ[١١] ولا إلىٰ الخُلْد، بل ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾!

إنَّ التفاوُتَ بينَ الوُجُوه، والفارقَ بينها سيَبْلُغُ هٰذا البَوْنَ (الحدَّ الشاسِع)!

(إنَّ العِلَّـةَ في كَيفيَّةِ حَشْرِ بعْضِ) الـوُجُوه التي قـالت عنهـا الآيـة الكريمة ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾، (هي أنها حصيلَةُ) ﴿وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ (الأعراف)، وهي النتيجة الحتميَّةُ لِظُهُورِ الباطِنِ، وغَلَبَةِ السِّيرةِ علىٰ الصُورة.

---

(١٠) وفي آية أُخرىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ (الفرقان)، وآية ثالثة: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر).

(١١) عَدْن: (جنَّات عَدْن) أي استقرار وثبات، وعَدَنَ بمكانٍ كذا: استقرَّ، ومنه "المعدن" لِمُستقرِّ الجواهر... عن (مفردات الراغب) (ص٣٢٦).

وهكذا فإنَّ بَاطِنَ مَنْ قالَ: "ما عَبدتُكَ خَوْفاً من نارِكَ، ولا طَمَعاً في جنَّتِكَ، ولكن وَجَدتُّكَ أهلاً للعبادَةِ فَعَبدتُك"[١٢]، سَيَنْعَكِسُ عند الحشر بصورة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾، فـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۝﴾ (النبأ)، و﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ...﴾[١٣]، إنَّهُ يَومٌ لا يكُونُ فيه "مُلكٌ" إلّا للحقِّ سبحانه وتعالىٰ، إنَّهُ يَوْمُ الحقِّ.

عند ذلك، لِمَنْ تكُونُ أَوْلَوِيَّةُ الدخُولِ إلىٰ الجنَّة؟ إنَّها للشخصيَّةِ الأُولىٰ في الوجود، ومن المُحالِ أنْ يكُونَ (شَخْصٌ ما، هُوَ) الأَوَّلُ في ذلك اليَوْم (القيامة) ـ بحيث يكونُ أَوَّلَ الدَّاخلين إلىٰ الجنَّةِ ـ، ما لَم يَكُن هُوَ الأَوَّلَ في الوجود (في عالَم الدنيا).

غايةُ الأمرِ (إلّا أنَّه) عَلينا أنْ نَعيَ ما تتَضمَّنُهُ هذه الألفاظُ، ونَفْقَهَ مَطَاوِيَ الحديث، وقد أَفْرَدَ «البخاريُّ» في (صحيحه) باباً تحت عنوان "قولِ النبيِّ: رُبَّ مُبلَّغٍ أوْعىٰ من سامِعٍ"[١٤]، فقد يَسمَعُ الرجُلُ الحديثَ وينقُلُه، ولكنَّه ما وَعَاهُ ولا (أدرَكَهُ)، فيأتي المُبَلَّغونَ ويَفهَمُونَ (معناهُ ومُرادَهُ)!

فأوَّلُ شَخصٍ (يدخلُ الجنَّة) يجبُ أن يكُونَ الشخصيَّةَ الإنسانيَّةَ الأُولىٰ. وإنَّه لَمِن غيرِ الممكن ـ عقلاً ـ أنْ يكُونَ أَوَّلُ الداخلِينَ إلىٰ الجنَّةِ غيرَ «النبيِّ الخاتم» ﷺ، فأوَّلُ الوُجُود صُورةً وسيرةً، وعِلماً وعَمَلاً وأخلاقاً، هُوَ «النبيُّ» ﷺ، وهو أَوَّلُ مَن يَرِدُ مأْدُبَةَ الجزاءِ الإلهي، ومائدةَ الضيافَةِ الربَّانيَّة.

فهل هناكَ تناقُضٌ بينَ العَقلِ والنقل؟

---

(١٢) القائل هو أميرالمؤمنين وسيد الموحدين الإمام «علي بن أبي طالب» ﷺ، انظر: (بحار الأنوار) (ج٧٠ ص١٨٦).

(١٣) لم يكمل «سماحة الشيخ» دام ظله الآية، وقد تكون الآية ٥٦ من (سورة الحج): ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝﴾، أو الآية ٢٦ من (سورة الفرقان): ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝﴾.

(١٤) ذكره «البخاري» في كتاب العلم من (صحيحه)، انظر (فتح الباري) (ج١ ص١٢٨).

كلَّا، لا تَعارُض، فإنَّ أوَّلَ مَنْ يدخُلِ الجنَّةَ هي «فاطمة» ﷺ لأنَّ «فاطمة» هي عَيْنُ (نفسُ) «النبيِّ» ﷺ، وهي مُندَكَّةٌ فيه، ودُخُولُ «فاطمة» (الجنَّةَ) يعني دُخُولَ «النبيِّ» ﷺ، ولا سَبيلَ غَيْرَ هذا (في الجمع ومعالجة التعارض).

وهذه الروايَةُ تنطوي على سِرٍّ عَجيبٍ، نَجِدُ شَرْحَهُ وبيانَهُ مُنتشِراً (مَبثُوثاً) في جميع الروايات التي نَقَلَتْها كُتُبُ العامَّةِ، فهذه «عائشَةُ» تقول:

"ما رأيتُ أحداً كانَ أشْبَهَ سَمْتاً وهَدْياً ودَلّاً... وحَديثاً وكَلاماً بـ «رَسُولِ اللهِ» ﷺ من «فاطمة» كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهَا". (١٥)

وهناكَ ما وَراءَ ذلك: لقد قال ﷺ فيها: "بَضْعَةٌ مِنِّي". (١٦)

فإذا كانت بَضْعَةً منه، تُصبِحُ النتيجَةَ أنَّ أوَّلَ مَنْ يَدخُلِ الجنَّةَ هُوَ «النبيُّ» ﷺ، ولكن بَضعَتَهُ قد تقدَّمَتهُ (إلّا أنَّ أعضاءَهُ سَبَقَتْ بَعضُها بَعْضاً، فدَخلَ بَعْضُها قبلَ بعضٍ)، بل إنَّ «الرَّسُولَ» ﷺ قال ما هو أعظَمُ من ذلك، حين قال:

"رُوحِيَ التي بين جَنْبَيَّ". (١٧)

لقد بَلَغَ التداخُلُ بينها وبينَ «النبيِّ» هذا الحدِّ!

---

(١٥) رواه جماعة من القوم منهم: «أبوداود» في (سُننه) (ج٢ ص ٧٧٦ ح ٥٢١٧ ط دار الجنان - بيروت)، و«الترمذي» في (الجامع الصحيح) (ج٥ ص٧٠٠ ط إحياء التراث العربي - بيروت)، والحاكم «النيشابوري» في (المستدرك) (ج٣ ص١٥٤ ط دار المعرفة - بيروت)، و«البيهقي» في «السنن الكبرى» (ج٧ ص١٠١ ط دار المعرفة - بيروت)، و«الطبري» في «ذخائر العقبى» (ص٤٠ ط مؤسسة الوفاء - بيروت). و«ابن عبدالبر» في «الاستيعاب» (ج٢ ص٧٥١ ط حيدر آباد الدكن).

(١٦) رواه «الحرُّ العاملي» قدس سره في (وسائل الشيعة) (ج١٤ ص٤٣ ح٧). ورَوَتْهُ العامَّةُ في: (البخاري) (ج٥ ص٣٦ وج٧ ص٤٧)، و(مستدرك الحاكم) (ج٣ ص١٥٤)، و(مسند أحمد) (ج٤ ص٣٢٣ و ٣٢٨ و ٣٣٢)، و(مسلم) (ج٧ ص١٤١)، و(الترمذي) (ج٥ ص٦٩٨)، و(سنن البيهقي) (ج٧ ص٦٤)، بنصوص تفاوتت بين: "مُضْغَةٌ منِّي" و "شَجْنَةٌ منِّي"، وبين "يؤذيني ما آذاها، ويُنصِبُني ما أنصَبَها، ويَقْبِضُني ما قبَضَها، ويَبسُطُني ما بَسَطَها...".

(١٧) انظر (البحار) (ج٢٧ ص٢٦).

إِنَّهُ (يَوْمُ القِيامة) عالَمُ العدالة، لم تَختَلُّ سُنَنُه ولا تَغَيَّرتْ قَوانينُهُ، فأوَّلُ مَنْ يَدخُلِ الجَنَّةَ، ويطأ بِسَاطَ الرَّحمة (الإلهيَّة)، هو الشَّخصُ الأوَّلُ في عالَمِ الوُجُود (أي «النبيِّ» الأعظم صلى الله عليه وآله)...

ولكنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أرادَ أن يُبيِّنَ (ويُظهِرَ) أنَّ «فاطمة» عليها السلام هي تلكَ "المرأةُ" التي اَستَحالَتْ إلى ذلك "الوالد" (واَندكَّتْ فيه)، حتى بلَغَتْ في مُضاهاةِ «أبيها» الذي أنزَلَ اللهُ تعالى فيه: ﴿طه ۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝﴾ (إبراهيم)، حَدّاً وَصَفَهُ «الإمامُ الحسن» عليه السلام قائلاً: "ما كانَ في الدُّنيا أعبَدَ من «فاطمة» عليها السلام، كانت تقُومُ في مِحرابِها حتى تتَوَرَّمَ قَدَماها"! [١٨]

وإذا كانت (كان الأمر) كذلك، فإنَّ هذا الشَّخصَ لَهُوَ «النبيُّ» نفسه!

أمَّا كيفَ كانَ الدخولُ؟

لقد رَوَى «الشَّيخُ الصَّدوقُ» عن «الإمام الرِّضا» عليه السلام في (العيون) وَصْفَ (كيفيَّةَ) الدُّخُولِ (دخول «الزَّهراء» عليها السلام إلى الجنَّةِ)، ولكنِّي اليَوْمَ لَن أتكِئَ وأعتمدَ على كُتُبِ الشِّيعَة، بل سأستَنِدُ في (صِحَّة) ما أقُولُهُ على العقل والكتاب (القرآن الكريم)، وعلى السُّنةِ القطعيَّة لَدَى العامَّةِ والخاصَّة، وما أقُولُهُ هنا حول كيفية ورودها (دخولها) الجنَّة، إنما آتيكم به وَفْقاً لأدلَّة ومُستندات العامَّة (السُّنِّيين).

فقد رُوِيَ عن «رسُول الله» صلى الله عليه وآله أنَّهُ قال:

"تُحشَرُ اَبنتي «فاطِمة» وعليها حُلَّةُ الكَرامَةِ، قد عُجِنَتْ بماءِ الحَيَوان، فيَنظُرُ إليها الخلائقُ فيَتعجَّبُونَ منها، ثم تكسى أيضاً من حُلَلِ الجنَّة ألفَ حُلَّة، مكتُوبٌ على كُلِّ حُلَّةٍ بخَطٍّ أخضَرَ، أدخِلُوا «بنت مُحمَّدٍ» الجنَّةَ على أحْسَنِ صُورَةٍ وأحْسَنِ كَرامَةٍ وأحْسَنِ مَنظَرٍ.

فتُزَفُّ إلى الجنَّة كما تُزَفُّ العَرُوسُ، ويُوَكَّلُ بها سَبعُونَ ألفَ جارية".

---

(١٨) انظر (البحار) (ج٤٣ ص٧٥).

وفي حديث: بَدَلَ "أَحْسَنِ كَرامَة وأَحْسَنِ مَنظَرٍ"، جاء: "على أَكْمَلِ هَيْبَة (هَيْئَة)، وأتمِّ كَرامة، وأَوْفَرِ حَظٍّ".(١٩)

ما هي "حُلَّةُ الكَرامة"؟ وما المقصود من "عُجِنَتْ بماءِ الحَيَوان"؟...

لِنترِكَ هذا البحث لمقامه.

ولنعْرِضَ إلى أربعة مقاطع (عبارات) جاءت في المتون التي نقلَها العامَّة:

الأُولى "على أحْسَنِ صُورة"، أي كيفيَّة حَشْرِها عليها السلام، والثانية "وأَكْمَلِ هَيْبَة"، والثالثة "وأتمِّ كَرامَة"، والرابعة "وأوْفَرِ حَظٍّ".

من المستحيل أن يتخلَّفَ قانُونُ نظام عدالة الوجود، الذي سَيَبْرُزُ ويظْهَرُ في يوم القيامة الكُبرى، فلا يتحقَّقُ ولا يُعْمَلُ به (ويسقط عن اَعْتِباره)! ولا يُمكنُ أن تكُونَ الصُّوَرُ التي تعطى للبَشَرِ في ذلكَ اليوم إلّا انعكاساً لِسيَرِهم في الدُّنيا، (فيَحْظى بالصورة الأجمل والأكمل والأمثل مَنْ جاءَ بالسيرة الأجمل والأمثل والأكمل...)، فإن لم يكن (المرءُ) على الصعيد العِلْمِيِّ أفضَلَ العلماء، وعلى الصعيد الخُلُقيِّ (الأخلاقي) أفضل

---

(١٩) رَوَاهُ جماعة من أعلام القوم: منهم «ابن عساكر» في (تاريخ دمشق) (ج١٢ ص٨٦) وفي (تهذيبه) (ج٤ ص٢٣٦)، والعلّامة «الخطيب الخوارزمي» في (مقتل الحسين) (ج١ ص٥٢)، و«محبُّ الدين الطبري» في (ذخائر العقبى) (ص٤٨ ط مكتبة القدسي بمصر)، و«جلال الدين السيوطي» في كتابه (ذيل اللآلىء) (ص١٦٠ ط الكهنو)، و«ابن حجر العسقلاني» في (لسان الميزان) (ج٢ ص٤١٧ ط «حيدر آباد» في ترجمة «داود بن سليمان الجرجاني»)، و«القندوزي» في (ينابيع المودة) (ص١٩٩ ط «إسلامبول»)، و«باكثير الحضرمي» في (وسيلة المآل) (ص٩٢ ط المكتبة الظاهرية بدمشق). و«الحمويني الشافعي» في (فرائد السمطين) (ج٢ ص٦٣ ح٣٨٨).

أما في مصادرنا: فقد رواه «الصدوق» قدس سره في (عيون أخبار «الرضا» عليه السلام) (ج٢ ص٢٩ ح٣٨ ط الحيدرية ـ النجف)، و«الطبري» في (دلائل الإمامة) (ص١٥٤ ح ٦٩ ط مؤسسة البعثة في قم)، و(صحيفة «الإمام الرضا») (ص١٢٢ ح ٧٩ ط مؤسسة «الإمام المهدي» ـ قم)، و«المجلسي» في (بحار الأنوار) (ج٤٣ ص٢٢١ ح٦)، و«المحدِّثُ البحراني» قدس سره (عوالم سيدة النساء «فاطمة الزهراء» عليها السلام) (ص٥٥٦ ط مؤسسة «الإمام المهدي» ـ قم).

المتخلِّفين، وعلى الصعيد العَمَليّ أفضَلُ العُبَّاد (العاملين)... فمِنَ الـمُستَحيلِ أنْ يَرِدَ (يَوْمَ القيامة، في المحشر) على أحسن صـورة. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة)، إنَّهُ اليَوْمُ (الموعود) الذي تتَحَقَّقُ فيه هذه الحالةُ والوضع.

إنَّ الـذي سيُحْشَرُ في أحسَنِ الصُوَرِ، هو أفضَلُ مَنْ حَذَا حَذْوَ «الرسُولِ» ﷺ في قَحْمِ مِضمَارِ العِلْمِ والعَمَلِ والتَّقْوَى، إذ ليست الأُمُورُ (هناك) فَوْضَىٰ وعَشوَائيَّةً!

علينا أن نفكِّر في ما رُوِيَ من أنَّ "«رسُولَ الله» ﷺ إذا سَافَرَ كانَ آخِرُ عَهْدِه بإنسانٍ من أهلِه «فاطِمة»، وكان أوَّلُ من يدخل عليها إذا قَدِمَ «فاطِمة» عليها السلام". [٢٠]

ماذا يعني هذا، وإلامَ يرمز؟

لماذا كانت آخِرَ مَن يُفارِقُ وأوَّلَ من يُلاقي؟

إنَّ ذلك يعني أنَّ أعلَمَ الأوَّلينَ والآخِرينَ، والأدقَّ نَظَراً بين الأنبياءِ والـمُرسَلين (أي «رسُولَ الله» ﷺ) كان يَعْمَدُ إلى تقصير وتقليل (فترة) الانفصال الجسمي بينَهُ وبينَ ابْنَتِه «فاطِمة» عليها السلام - الناتج عن سَفَرِه - إلى أقلِّ حَدٍّ ممكن.

و(علينا) أنْ نتدبَّرَ في ما رَوَتْهُ «عائشة» في قولها: "كانت إذا دَخَلَتْ عَلَيْه قامَ إليها، فأخَذَ بيدِها، وقبَّلَها، وأجْلَسَها في مجلسه، وكان إذا دَخَلَ عليها، قامَتْ إليه فأخَذَتْ بيدِه، فقبَّلَتْهُ، وأجْلَسَتْهُ في مجلِسِها". [٢١]

---

(٢٠) رواه «البيهقي» في (السنن الكبرى) (ج١ ص٢٦ ط حيدر آباد)، و«أحمد» في (المسند) (ج٥ ص٢٧٥)، و«الحاكم» في (المستدرك) (ج١ ص٤٨٩ وج٣ ص١٥٥و١٥٦)، و«ابن حَجَر» في (الصواعق) (ص١٠٩)، و«القندوزي» في (ينابيع المودة) (ج٢ ص٢٣)، و«الطبري» في (ذخائر العقبى) (ص٣٧ ط مكتبة القدسي مصر)، و«المتقي الهندي» في (كنز العمال) (ج٧ ص٩٩ ح١٨١٥٢) وغيرهم...

أما في مصادرنا فقد ذكره: «ابن شهراشوب» في (المناقب) (ج٣ ص٣٣٢)، و«الصدوق» في (أماليه) (ص١٩٤ ح٧)، و«المجلسي» في (البحار) (ج٤٣ ص٨٩ ح١٠ عن (كشف الغمة)).

(٢١) انظر: (سُنن الترمذي) (ج٥ ص٧٠٠ ح٣٨٧٢)، و(مُستدرك الحاكم) (ج٣ ص١٦٠)، ورَوَاهُ «الخوارزمي» في (مقتل الحسين) (ص٦٦ ط الغري)، و«ابن شهراشوب» في (المناقب) (ج٣ ص٣٣٣)، و«الشيخ الطوسي» في (الأمالي) (ج٢ ص١٤)، وروى «الأربلي» شبهه في (كشف الغمة) (ج١ ص٤٦٧).

إنَّ مَنْ كانَ «جبرائيل» عليه السلام يُقَبِّلُ تُرابَ أقدامِه، تَراهُ يُقَبِّلُ يَدَ «فاطمة» عليها السلام!
ولَيْسَ هـٰذا من قبيل العاطفة أو الحنان الأبويِّ، كَلَّا!

إنَّ تَتِمَّةَ الأحاديث تَكْشِفُ عن سِرِّ الموضوع، فقد كانَ "«رسُولُ الله» صلى الله عليه وآله لا ينامُ حتى يُقَبِّلَ عَرْضَ وَجْهِ «فاطمة»، ويضع وَجْهَهُ بين ثَدْيَي «فاطمة» ويدعو لها"[٢٢]، وكان "كثيراً ما يُقَبِّلُ «فاطمة»"[٢٣]، و«كثيراً ما يُقَبِّلُ عُرْفَ «فاطمة»"[٢٤].

وأنا الآن لا يمكنني توضيحَ ما وراء هـٰذه التصرُّفات (النبويَّة)، ولـٰكنه صلى الله عليه وآله وَضَّحَ الأمرَ بصورة إجماليَّة حينَ كانَ يقولُ: "إنِّي إذا اشتقتُ إلى الجنَّة قَبَّلْتُ نَحْرَ «فاطمة»"[٢٥]. إذن فَهُوَ لا يُقَبِّلُها حين يُقَبِّلُها، ولا يَشَمُّها حين يَشَمُّها، بعنوان (لِكَوْنِها) ابنته وحَسْب، كلَّا، إنه (بل هو) يُقَبِّلُ ويَشَمُّ جَنَّةَ القُرْب.

إنَّ ما سأذكُرُه الآن هو مما نقله أعيانُ السُّنِّيين، ممَّنْ يُعْتَمَدُ عليهم (لدى السُّنِّيين)، عن «جابر» قال: "رأى «النبيُّ» صلى الله عليه وآله «فاطمة» عليها السلام وعليها كِساءٌ من أجِلَّةِ الإبل، وهيَ تَطحَنُ بيدها وتُرضِعُ وَلَدَها، فدَمِعَتْ عينا «رسولِ الله» صلى الله عليه وآله فقال: يا بنتاه، تعجَّلي مَرارة الدُّنيا بحَلاوَة الآخرة. فقالت: يا «رسُولَ الله» الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾"[٢٦].

---

(٢٢) رواه «الخوارزمي» في (مقتل الحسين) (ج١ ص ٦٦)، و«المجلسي» في (بحار الأنوار) (ج٤٣ ص٤٢).

(٢٣) رواه «المناوي» في (كنوز الحقائق) (ص١١٩)، و«القندوزي» في (ينابيع المودة) (ج٢ ص٢٢).

(٢٤) رواه «السيوطي» في (الجامع الصغير) عن طريق «ابن عساكر» (ج٢ ص٢٩٤ ط مصر)، و«المتقي الهندي» في (كنز العمال) (ج١٣ ص٦٧٥ ح٣٧٧٢٩).

(٢٥) رواه «القندوزي» في (ينابيع المودَّة) (ج١ص١٧١ وج٢ص٢٢)، و«الطبري» في (ذخائر العقبى) (ص٣٦)، وفي رواية «المستدرك» لـ «الحاكم النيشابوري» (ج٣ ص١٥٦): "شَمَمْتُ رَقَبة «فاطمة»"، وقريبٌ منه في «مجمع الزوائد» (ج٩ ص٢٠٢).

(٢٦) ذكره «الحَسْكانيُّ» في (شواهد التنزيل) (ج٢ ص ٣٤٤)، ونقلَه «ابن شهراشوب» في (المناقب) (ج٣ ص٣٤٢) عن (تفسير الثعلبي) و(تفسير القشيري). ومن طرقنا رواه (باختلاف يسير) «العلَّامة المجلسي» في (بحار الأنوار) (ج١٦ ص١٤٣)، وغيره...

كانت قد أحيَتِ الليْلَ في محراب العبادة، وقامَتْ في صبيحة تلك الليلة لِيَكُونَ هذا ثَوْبُها (أجِلَّة الإبِلِ)، وذاك عَمَلُها (الطحْنُ بالرَّحى)! وعندما نَظَرَ إليها «النبيُّ» ﷺ، انْكَسَرَ قَلْبُهُ، ولَيْسَ هذا (انْكِسارُ قَلْبِ «النبيِّ») بالأمر الهيِّن (البسيط)!

لقد بكى «رسُولُ الله» وجَرَتْ دُمُوعُهُ، وهذا يعني أنَّ دُمُوعَ باطن الوجود قد جَرَتْ! ثم قال لـ «أبنته»: "يا «فاطمة» تعجَّلي مَرارةَ الدنيا".

وهنا (عند هذا الموضع) نُلاحِظُ غُموضاً يلُفُّ نَقْلَ الرُّواة، بحيث لا ندري ما الذي جَرَىٰ في تلكَ اللحظات، ولكننا نعْلَمُ أنَّهُ ما إنْ تحرَّكَ «الرسُولُ» وذهب، حتى نَزَلَ «جبريلُ» ﷺ بآية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۞﴾ (الضحى).

(لنعلَم جميعاً ونقف على بديهيَّة ووضوح أنهُ) ما كانَ وُقُوفُ مثل هذا الموجود البشري، التي كانت تلك هي سيرتُها وحياتُها... ما كان قيامُها ووُقُوفُها في وَجْهِ «أبي بكر بن أبي قحافة»، في سبيل أستنقاذ لُقمة عَيْشٍ مُغْتَصَبةٍ من «فدك»، كَلَّا!

وحقَّ أنْ تقومَ صَرْخَةُ لَوْعةٍ وصَيْحَةُ أسىً على ظُلامَةِ مَظلوم لم يتمكَّن من بثِّ آلامِهِ وشُجونه للعالَم!...

أمَا آنَ للدُّنيا (للبشرية) أن تُفكِّرَ (وتعودَ إلى رُشْدِها)؟

إنَّ «أبا بكر بن أبي قُحافَةَ»، هو مَنْ كانت درجتُه العلمية (كانَ مُستَوَاه)، بحيث اتَّفَقَتْ كَلِمَةُ كُلِّ مُحدِّثٍ فقيه نبيه نقَّادٍ في الرجال، على أنهُ كان لا يعرفُ الحُكْمَ في: هل أنَّ الجدَّةَ تَرِثُ، ولها نصيبٌ في تَرِكَةِ الميِّتِ أم لا؟! [٢٧]

هذا هو مَبلَغُ عِلمِه بالأحكام الشرعيَّة، غايةُ الأمرِ أنَّ «الحافظ الذهبي» اَلْتَمَسَ له العُذرَ بِكَوْنِه ضعيفَ الذاكِرة [٢٨] (كثير النسيان)، وأنَّ ذلكَ هوَ ما دَفَعَهُ لِمَنْعِ جَمْعِ الحديث! وهذا - لَعَمْري - ما يُسَمَّى بالعذر الأقبح من الذنب!

---

(٢٧) انظر (تذكرة الحفَّاظ) لـ «الذهبي» (ج١ ص٢).

(٢٨) المصدر السابق (ج١ ص٥).

إنَّ مِثلَ هـٰذا الشخص الذي لا يَعْرِفُ حُكْمَ ميراثِ الجدَّة، وتَراهُ يَلجَأُ إلىٰ أفسق الفُسَّاق، وأفجر الفُجَّار، ليأخُذَ بشهادته ويَعْمَلَ برأيه ويفتي آستناداً إلىٰ قوله...(٢٩) ذهَبَ إلىٰ تكذيب «فاطمة الزَّهراء» عليها السلام عندما جاءته تُطالِبُهُ بحقِّها في «فدَك»، وردَّ قَوْلَها! مع أنَّ «أبا بكر» هـٰذا، كان قد سَمعَ آبنَتَهُ «عائشة» تقول:

"ما رأيتُ أحداً كانَ أصدَقَ لهجةً من «فاطمة»، إلّا أن يكون الذي وَلَدَها صلى الله عليه وآله".

وأنها حَدَّثَتْ قائلة: "ما رأيتُ أحداً أصدَقَ من «فاطمة» غير «أبيها»"(٣٠)، لـٰكنه أبىٰ إلّا أنْ يُكَذِّبَ «فاطمة الزَّهراء» عليها السلام ويُصَدِّقَ ذاكَ الرجُلَ الفاسِقَ الفاجر!

هـٰذا هو الظُّلْمُ الذي يستدعي الصُّراخَ والنحيبَ! وهوَ الذي يجِبُ علىٰ فقهاء الإسلام وعلمائه أن يَضِجُّوا بالندبة (ويُعْوِلُوا إعوالَ الثكلىٰ) عليه!

---

(٢٩) المقصود هو «المغيرة بن شعبة»: فقد أعتمد الخليفة الأول علىٰ شهادته في حكم إرث الجدَّة كما هو مذكور في (تذكرة الحفاظ) لـ «الذهبي» (ج١ ص٢).

أمَّا فسقه وفجوره، فيكفينا في ذلك خبر زناهُ بـ «أُمِّ جميل بنت الأفقم» أثناء ولايته «الكوفة» في عهد «عمر بن الخطاب»: فقد شهد زناه «أبوبكرة نفيع الثقفي» وأخواه «نافع» و«زياد» و«شبل بن معبد»، وبعد أن قرَّرَ ثلاثة من الشهود أنهم رأوا الميل في المكحلة، جاء دور الشاهد الرابع («زياد»)، فأبدىٰ إليه «عمر» رغبته في درء الحد عن «المغيرة» قائلاً:

أمَا إني أرىٰ وَجْهَ رجل أرجو أن لا يُرْجَمَ رَجُلٌ من أصحاب «رسُولِ الله» علىٰ يَدِه، ولا يَخزىٰ بشهادته! فشهد قائلاً: رأيته مُتبطِّناً، رافعاً برجليها، ورأيت خصيتيه تترددان بين فخذيها، ورأيت حَفَزاً شديداً وسَمِعْتُ نَفَساً عالياً! (وفي لفظ «الطبري») قال: رأيته جالساً بين رجلي أمرأة، فرأيتُ قدَمَيْن مخضوبتين تخفقان، وإستين مكشوفتين، وسمعت حفزاناً شديداً! ولم يَقُل إنه رأىٰ كالميل في المكحلة، فجلَد «عمر» الشهودَ حَدَّ القَذْفِ وخلَّىٰ «المغيرة»! انظر: (السنن الكُبرىٰ) لـ «البيهقي» (ج٨ ص٢٣٥)، و(تاريخ الطبري) (ج٣ ص١٦٨ ضمن أحداث سنة ١٧هـ)، و(الكامل) لـ «أبن الأثير» (ج٢ ص٣٧٨)، و(شرح النهج) لـ «أبن أبي الحديد المعتزلي» (ج٣ ص١٦١).

(٣٠) رَوَاهُ جماعة من أعلام القوم، منهم: «أبن عبدالبر» في (الأستيعاب) (ج٢ ص٧٥١ ط حيدرآباد)، و«الحاكم» في (المستدرك) (ج٣ ص١٦٠ ط حيدرآباد) ووافقه «الذهبي» في (تصحيحه)، و«أبونعيم» في (حلية الأولياء) (ج٢ ص٤١ ط مصر)، و«الهيثمي» في (مجمع الزوائد) (ج٩ ص٢٠١)، وغيرهم...

فقد ذكَرَ كِبارُ مُفَسِّري ومُحَدِّثي العامَّة، أنهُ عندما نزلَتْ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ (الإسراء)، دَعَا «رسُولُ الله» ﷺ «فاطِمة» وأنْحَلَها «فدَكاً»، فانتقلت مُلكيَّةُ «فدَك» - بهذه الصورة - إلى «فاطمة» عليها السلام.(٣١)

(وبعدَ وَفاةِ «النبيِّ» صادَرَ الخليفةُ «فدَكاً») فَجاءَتْ «فاطِمةُ» تطالب بها (بِنِحْلَتِها)، وهي التي قَضَتْ حياتَها على ذلك النحو (من الزُّهْدِ والتقشُّف)، وهي - من جهة أُخرىٰ - مَنْ عَلِمَتْ أنّها أوَّلُ أهل بيت «رسُولِ الله» لُحُوقاً به(٣٢)... إنَّ مَنْ مثلُها لا يحملُ هَمَّ بطنه، ولا تقومُ فتتحمَّلُ تلك الصِعابَ في سبيل إشباع أطفالها!

إنَّ مَنْ أنزَلَ اللهُ فيها قرآناً يتلىٰ في قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان)، وذلك بعد أن قَضَتْ ثلاثةَ أيام (بلَياليها) تتَضَوَّرُ جُوعاً، وحرَمَتْ نفسَها وأطفالَها قُوتَهُم، ووهبته ليتيم ومِسكينٍ وأسير... هل يمكن أن تسعىٰ لِلكَسْبِ الماديِّ، وتتحرَّكَ (وتنافس القوم على) حُطامِ الدنيا؟

أستيقظوا أيها الغُفاةُ، وأنتَبِهوا أيُّها الغافلون!

هلَّا فكَّرتُم في ما حدَثَ؟

وأيُّ عارٍ ألحَقَ هذا الحدثُ بالإسلام والمسلمين؟

وكيف هَتَكَهُم هذا التاريخ وأوْرَثَهُم الفضيحَةَ والشنارَ!

وإلىٰ أين أنتهىٰ بهم؟

---

(٣١) أورده «السيوطي» في «الدر المنثور» (ج٤ ص١٧٧)، و«الهيثمي» في «مجمع الزوائد» (ج٧ ص٤٩ نقلاً عن «الطبراني»).

(٣٢) روت «عائشة» أن «الرسُولَ» ﷺ، دعا «فاطمة» أبنتَهُ في وَجَعِه الذي تُوُفِّيَ فيه فأسرَّها بشيء فبكَتْ، ثم دعاها فأسرَّها فضحكت، قالت: فسألتها عن ذلك فقالت: "أخبرني «رسُولُ الله» أنه يُقبَضُ في وَجَعِهِ هذا فبكيت، ثم أخبرني أنّي أوَّلُ أهْلِه لحاقاً به فضحكت". انظر (صحيح البخاري) (ج٤ ص٢٤٨)، و(صحيح مسلم) (ج٤ ص١٩٠٤)، و(مسند أحمد) (ج٦ ص٧٧ و٢٤٠ و٢٨٢)، و(سنن الدارمي) (ج١ ص٣٧)، و(مجمع الزوائد) لـ «الهيثمي» (ج٩ ص٢٣)، و(الجامع الصحيح) لـ «الترمذي» (ج٥ ص٧٠٠)... وغيرها من المصادر.

لم تكن «فَدَكُ» هدفَها، بل كانت عليها السلام تَتَحَسَّبُ (ببصيرتها الثاقبة ورؤيتها النافذة) ـ وقد رأتْ أنَّ ضياعَ حَقِّ «بنت النبيِّ» في هذا اليوم (وهم قريبو عهدٍ بـ «رسُولِ الله») ـ لِما سيُفْعَلُ بِحُقوقِ الأُمَّة في غَدِها؟!

إنَّ ما كان يبعَثُ فيها اللَّوْعَةَ والأسىٰ هو ما كانت تنظره من رُقِيِّ مَنْ لا يعرِفُ حكم إرث الجدَّة منبرَ (أبيها) «رسُولِ الله» صلى الله عليه وآله، وأستحواذه على موقعه، ثم يأتي في الغَدِ (من بعده) الذي يشهد (صحيح البخاري) و(صحيح مسلم) على جَهْلِهِ بِحُكْمِ (مسألة التيمُّم)[٣٣]، فيَحتلُّ مَكانَ خاتم جميع الأنبياء والمرسلين!

(وهكذا) إذا حصَلَ ذلك وكانَ، فإنَّ الأمرَ سيؤُولُ إلىٰ أضراب «الوليد بن عبدالملك»، ومن بعده «هارون» و«المأمون»... فتذهب (بذلك) جُهودُ جميع الأنبياء، وأهدافُ جميع النبوَّاتِ أدراجَ الرياح!

هذه هي آلامُ «الزَّهراء»، هذه هي بَواعِثُ شَجْوِها ومِحنَتِها، هذا هو ما فتَّ عَضُدَها وأوْرَثَها الهمَّ والكَمَدَ...[٣٤]

---

(٣٣) نقل «العلّامة الأميني» قدس سره في (الغدير) (ج٦ ص٨٣) مصادر كثيرة تتحدَّث عن خطأ الخليفة «عمر» بحكم التَيَمُّم، منها: (صحيح البخاري) (ج١ ص٤٥)، و(صحيح مسلم) (في باب التيمم بأربعة طرق)، و(مُسند أحمد) (ج٤ ص٢٦٥)، و(سنن النسائي) (ج١ ص١٦٦)، و(سُنن ابن ماجة) (ج١ ص١٨٨ ح ٥٦٩)، و(سُنن البيهقي) (ج١ ص٢٠٩)...(مع ملاحظة أنني قابلت أرقام الصفحات والأجزاء على الطبعات المتداولة، وأثبتُّ التغيير هنا).

(٣٤) أي أنَّها ـ عليها السلام ـ قَضَتْ شهيدة، فقد رَوَىٰ «الكليني» قدس سره في (الكافي الشريف) (ج١ ص٤٥٨) بإسنادٍ يُعبَّر عنه أهل الفن بأنه "عالٍ جداً" (عن «محمد بن يحيى العمركي بن علي»، عن «علي بن جعفر»، عن أخيه «أبي الحسن موسىٰ بن جعفر» عليهما السلام)، وهو إسنادٌ صحيح بالإجماع، أنَّه قال: "إنَّ «فاطمة» عليها السلام صِدِّيقةٌ شهيدة"، وقد ورد تعبير "الشهيدة" هذا في عِدَّة نصوص وزيارات لـ «الزهراء» عليها السلام منها:

١ـ زيارة «الشيخ الصدوق» قدس سره التي وَرَدَتْ في كتابه (من لا يحضره الفقيه) (ج٢ ص٣٤٢)، وفيها: "السلام عليك أيَّتُها الصِدِّيقةُ الشهيدة... السلام عليك أيَّتُها المضطهدة المقهورة، السلام عليك يا «فاطمة بنت رسول الله» ورحمة الله وبركاته".

←

حتى أُودَىٰ بها وماتت، وما وَسِعَها أن تُبرزَ المصيبة وتُشْهِرَها!

ولكن كلّ ما فعلته هو أن قالت لـ «أبي بكر» و«عمر»: «نشدتكما الله أَلَمْ تَسْمَعا «رسُولَ الله» يقول: رضَا «فاطِمةَ» من رِضَاي، وسَخَطُ «فاطِمةَ» من سَخَطي، فمَنْ أحبَّ «فاطِمةَ» أبنتي فقد أحبَّني، ومن أرْضىٰ «فاطِمةَ» فقد أرضاني، ومن أسْخَطَ «فاطِمةَ» فقد أسخَطَني؟

قالا: نعم سمعناه من «رسُولِ الله» صلَّى الله عليه (وآله) وسلَّم.

---

٢ - وأورد شيخ الطائفة «الطوسي» قدس سره في كتابه «تهذيب الأحكام» (ج٦ ص١٠ ح١٩)، زيارة جاء فيها: «السلامُ عليكِ يا بنت «رسول الله»... يا بنت خير البريَّة... يا سيِّدةَ نساء العالمين من الأوَّلين والآخرين... يا زوجة وَليِّ الله، وخير الخلق بعد «رسول الله»... يا أُمَّ «الحسن» و«الحسين»... أيَّتُها الصِدِّيقةُ الشهيدة... أيَّتُها الرضيَّةُ المرضيَّة...».

٣ - ذكر «السيد أبن طاووس» قدس سره زيارتها - عليها السلام - في كتابيه (إقبال الأعمال) و(مصباح الزائر) في عِدَّة مواضع منها: زيارتها في بيتها، وزيارتها في البقيع، ووَرَدَ في نصِّ الزيارة: «السلامُ على البتولة الشهيدة». انظر (البحار) (ج١٠٠ ص١٩٨).

٤ - نقل الشيخ «الكفعمي» قدس سره في كتابه (البلد الأمين) (ص ٢٧٨)، زيارتين لها - عليها السلام - جاء في الأُولىٰ: «السلامُ عليكِ أيَّتُها الصِدِّيقةُ الشهيدة»، وفي الثانية: «أيَّتُها البتولُ الشهيدة».

٥ - نقل «المجلسي» قدس سره في «البحار» (ج١٠٢ ص٢٢٠) تسليماً فيه: «السلامُ والصلاة على السيِّدةِ المفقودة الكريمة المحمودة الشهيدة العالية الرشيدة، أُمِّ الأئمة...». هذا وذكر «المجلسي الأول» قدس سره في (روضة المتَّقين) في شرح (من لا يحضره الفقيه) (ج٥ ص٣٤٢) ما نصُّه: «وشهادتها صلوات الله عليها كانت من ضربة «عمر»».

كما ذكر «العلَّامة المجلسي» قدس سره في (مرآة العقول) وهو شَرْحٌ لـ (الكافي الشريف) (ج٥ ص٣١٨) ما نصُّه: «... ثم إنَّ هذا الخبر يدلُّ على أنَّ «فاطمة» صلوات الله عليها كانت شهيدة، وهو من المتواترات. وكان سبب ذلك أنَّهم لَمَّا غَصَبوا الخلافة وبايَعَهُم أكثر الناس، بعثوا إلى «أميرالمؤمنين» عليه السلام ليحضر البيعة فأبىٰ. فبَعَثَ «عمر» بِنَارٍ ليحرق على أهل البيت بيتهم. وأرادوا الدخول عليه قهراً، فمنعتهم «فاطمة» عند الباب، فضرب «قنفذ» - غلام «عمر» - الباب على بطن «فاطمة» فكَسَّرَ جنبها، وأسقطت لذلك جنيناً كان سمَّاهُ «رسول الله» صلى الله عليه وآله «مُحسناً»، فمَرِضَتْ لذلك، وتُوُفِّيَتْ صلوات الله عليها في ذلك المرض».

قالت: فإني أُشهِدُ اللهَ وملائكتَهُ أنَّكُما أسخطتُماني وما أرضيتُماني، ولئن لَقِيتُ «النبيَّ» لأشكُوَنَّكُما إليه.

فقال «أبوبكر»: أنا عائذ بالله تعالى من سخطِه وسخَطِكِ يا «فاطمةُ».

ثُمَّ انتَحَبَ «أبوبكر» يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق!

وهي تقول: والله لأدعُوَنَّ الله عليكَ في كُلِّ صلاةٍ أُصليها". (٣٥)

لستُ أنا مَن يقولُ (ينقل ويحدِّث بـ) ذلك، بل إنَّه «ابنُ قتيبة»!

وما كلَّمَتْ بَعْدَها «أبا بكر» أبداً، حتى قَضَتْ.

وقد قال «البخاري» إنَّها ما عاشَتْ بعدَ أبيها أكثر من ستَّةِ أشهُر... (٣٦)

وكانت قد أوْصَتْ «عَلِيّاً» عليه السلام: "إذا أنا مِتُّ فغَسِّلني بيدِكَ وحنِّطني وكَفِّنّي، وادفنّي ليلاً، ولا يَشْهَدُني فلان وفلان". (٣٧)

دُفِنَتْ ليلاً... ألا أيُّها التعيسُ المسكين! أجبني:

لِمَ دُفِنَتْ ليلاً؟!

---

(٣٥) انظر «الإمامة والسياسة» لـ «أبن قتيبة الدينوري» المتوفى سنة ٢٧٦هـ (ج١ ص١٣ ط مصطفى الحلبي بمصر، وص٢٠ تحقيق طه الزيني). وذكره من المتأخرين «عمر رضا كحّالة» في «أعلام النساء» (ج٤ ص ١١٥ ط بيروت).

(٣٦) ذكر «البخاري» في «صحيحه» (ج٥ ص٧٧) عن «عائشة»: "... فأبى «أبوبكر أن يدفع إلى «فاطمة» ميراثَها، فوَجَدَتْ «فاطمة» على «أبي بكر» في ذلك، فهجَرَتْهُ فلم تُكلِّمهُ حتى تُوُفِّيَتْ، فلما تُوُفِّيَتْ دفنها زوجها «عَليٌّ» ليلاً ولم يؤذن بها «أبابكر»". وذكره أيضاً في (ج٤ ص ٩٦)، ورَوَى «الهيثمي» في «مجمع الزوائد» (ج٩ ص٢١١ قريباً من معناه، ثُمَّ قال: ورَوَاهُ «الطبراني» بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح...). وللحديث مصادر أُخرى منها: «السنن الكبرى» لـ «البيهقي» (ج٤ ص٢٩ وج٦ ص٣٠٠)، و«حلية الأولياء» لـ «أبي نعيم» (ج٢ ص٤٢)...

(٣٧) ذكره «العلامة المجلسي» قدس سره في «بحار الأنوار» (ج٨١ ص٣٩٠ نقلاً عن «مصباح الأنوار»). ورُوِيَ - بأختلاف يسير - في «المناقب» لـ «أبن شهراشوب» (ج٣ ص١٣٧)، وفي «أمالي الصدوق» (ص٥٢٣ ح٩)، وذكره أيضاً في «الخصال» (ص٣٦٠ ح٥٠).

إذا ماتت جارية (مملوكة)، فإنَّ الإسلامَ ينـدُبُ إلىٰ اجتماع المسلمين لحضور دفنها (والصلاة عليها) وتشييع جنازتها...

وقد ماتت «ابنةُ النبيِّ»، فَمَنْ حَضَرَ جنازَتَها؟ ومَن شيَّعَها؟! (٣٨)

وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الطيبين الطاهرين

* * *

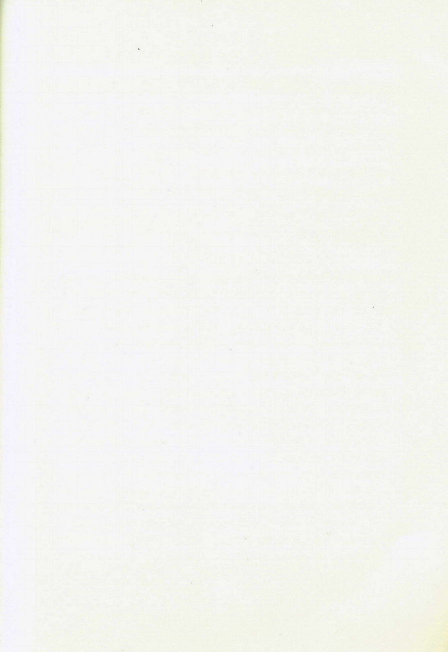
(٣٨) ما زال هذا السؤال يقرع مسامع الوجدان الإنساني ويؤنِّبُ الضمير البشري، ويتناهب النفوس الواعية والقلوب النابضة منذ ذلك اليوم حتىٰ يومنا هذا!...

ففي الحديث الشريف أنَّ «أميرالمؤمنين» ﷺ تَوَلَّىٰ غسْلَها وتكفينها: "وأخرَجَها ومعه «الحسن» و«الحسين» في الليل، وصلُّوا عليها، ولم يُعْلِم بها أحد، ودفنها في البقيع وجدَّدَ أربعين قبراً فاستشكَلَ علىٰ الناس قبرُها، فأصبح الناس ولامَ بعضُهُم بعضاً، وقالوا: إنَّ نبيَّنا ﷺ خلَّفَ لنا بنتاً، ولم نحضر وفاتها والصلاة عليها ودفنها، ولا نعرف قبرها فنزورها.

فقال مَنْ تَوَلَّىٰ الأمرَ: هاتوا من نساء المسلمين مَنْ ينبش هذه القبور، حتىٰ نجد «فاطمة» ﷺ فنُصَلِّ عليها ونزور قبرها، فبَلَغَ ذلك «أميرالمؤمنين» ﷺ فخَرَجَ مُغْضِباً، قد أحمَرَّتْ عيناهُ، وقد تقلَّدَ سيفَهُ «ذا الفقار»، حتىٰ بلغ البقيع، وقد أجتمعوا فيه فقال ﷺ: لو نبشتم قبراً من هذه القبور لَوَضَعْتُ السيفَ فيكُم، فتولَّىٰ القوم عن البقيع". انظر «عوالم العلوم: «فاطمة الزهراء»» لـ«المحدِّث البحراني» (ص٢٩٢ عن «عيون المعجزات»)، وذكره صاحب «البحار» في (ج٤٣ ص٢١٢ ح٤١)...

وما زال الأحرار من ذوي الضمائر الحيَّة يحومون حول ذاك السؤال ويستجلون النظر عسىٰ أن يحظوا بجواب، فيلوذوا بذلك القبر، ويتعاهدوه بالزيارة والصلة، وينهلوا منه ما شاءوا من البركة، ويُسكِّنوا شيئاً من ذلك الغليل الذي يعتلج في صدورهم، والغُصَصِ التي أستحالتْ حِمَماً في أحشائهم، ولكن هيهات... فقد أنعقد جواب هذا السؤال علىٰ كَشْفِ سِرٍّ أعظَم واقْتَرَنَ بِحَدَثٍ أجلَّ، ألا وهو الظهور الميمون، والفرج الموعود...

جعلنا الله وإياكم من الآخذين بثاراتهم مع إمام حقٍّ ظاهر منصور.



المحاضرة الحادية عشرة

التاريخ: ١٠/جمادى الأولى/١٤١١هـ
الموافق ٢٧/١١/١٩٩٠م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: غضب فاطمة عليها السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

... وبما أنَّ الدُّروسَ (في الحوزة العلمية) ستُعطَّلُ في الأُسبوع القادم، بمناسبة وفاة «الصِدِّيقةِ الكُبرىٰ» عليها السلام، فَسَنُرجِئُ التحقيقَ في هذه المسألة إلىٰ الأُسبوع التالي، إذ سَنَرِدُ بعدَ الفراغ منها في مَبْحَث "المعنىٰ الحرفيّ". [(١)]

إنَّ تعريفَ الفقه، الذي جاء في "المعالم" [(٢)]، بأنَّه: "العِلمُ بالأحكام الشرعيَّة الفرعيَّة عن أدلَّتِها التفصيليَّة"، ليس بالتعريف التامِّ. وليس هذا هو حَدُّ الفِقْهِ في القرآن والسُنَّة القطعيَّة. ويُعَدُّ هذا من البحوث الهامَّة التي ستَتْرُكُ - إذا ما خَضَعَتْ لتحقيقٍ جَيِّدٍ - آثاراً واسعةً علىٰ مواضيع الولاية، وهكذا علىٰ مباحث الاجتهاد والتقليد.

(١) من تتِمَّة درس أُصول الفقه الذي كان يلقيه سماحة «الشيخ المحاضر» دام ظله.
(٢) كتاب (معالم الأُصول): مُقدِّمة أُصوليَّة لكتاب (معالم الدين) لـ «الشيخ حسن بن زين الدين» المشتهر بـ "الشهيد الثاني" قدس سره، ولما انحازت عنه واستقلَّت، سُمِّيَت بـ (معالم الأُصول)، عليه حواشٍ كثيرة. وهو من المتون الدراسية في الحوزات العلميَّة. انظر (الذريعة) (ج٢١ ص١٩٨).

إنَّهُم يستدلُّونَ بآية النفر ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (التوبة)، على حُجيَّةِ الخبر في مَبْحَثِ حُجيَّةِ الخبر، وعلى حُجيَّةِ الفتوى في مَبْحَثِ حُجيَّةِ الفتوى، وعلى وُجُوبِ تعليم الجاهلِ في باب وُجُوبِ إرشاد الجاهل، وهكذا في مَباحِث النهي عن المنكر، ويتَّخِذونها دليلاً في أربعة أو خمسة أبواب، على مسائل مُتعدِّدة.

ولكن ما هي (بقيَّة) أبعَادِ هذه الآية؟

وماذا ينطوي تحت "لولا" التحضيضيَّة[٣] التي جاءت فيها؟

إنَّهُ التفقُّهُ في الدين، ولَيْسَ (مُجرَّدُ) التفقُّهِ في الطهارة حتى الديَات! فهذا جُزْءٌ من الدين لا تمامه، وبَعضُ الشيءِ ليسَ بالشيءِ كُلِّه! إنَّ فِقْهَ الصلاة لَيْسَ هو (ذاته) فِقْهُ الركوع، إنَّ شُعَبَ الفقه (الرئيسة) الأربعة: فقه الإيقاعات، والعقود، والأحكام، والعبادات، ليست إلّا جُزءاً صغيراً من الفقه، فالفِقْهُ أوْسَعُ دائرةً من هذه بكثير. والفقيه ـ حسب ما وَرَدَ عن «الصادق» ﷺ ـ ليس مَن أحاطَ بـ (علم) الأُصول من أوَّلِ بَحثِ "الوضع"، حتى آخر "التعادل والتراجيح"[٤] مع جميع المباني! و(هكذا مَن) ألَمَّ من أوَّلِ بحث طهارة الماء المطلق، حتى أحكام العاقلة[٥]... فليس (الفقه) هذا فَحَسْب.

---

(٣) التحضيض: الحثُّ على أمر بشِدَّة، ومن أدواته "ألا، وهلّا، وألا، ولَوْلا"، وإنما تُعَدُّ "لَوْلا" تحضيضيَّةً إذا دخلت على الجملة الفعلية، كما في آية النفر، وإن دَخَلَتْ على الأسمية فتدُلُّ على امتناع الجواب لوجود التالي، كما في الآية ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ (سبأ)، وقد تكون للتحضيض مع دخولها على المبتدأ والخبر، فيُقدَّر المضمر "كان" الشأنيَّة. وقد تستعمل للتوبيخ والتنديم فتختصُّ بالماضي أو ما في تأويله ظاهراً أو مُضمَراً نحو ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴿١٣﴾﴾ (النور).

(٤) يُعَدُّ "علم الفقه" و"علم أُصول الفقه" من أُمِّ وعمدة العلوم التي تُدرَّسُ في الحوزة العلميَّة، ويبدأ الأول: من كتاب الطهارة وينتهي بكتاب الديات، أما الثاني (علم الأصول): فيبدأ بمبحث الوضع وينتهي بمبحث التعادل والتراجيح.

(٥) أحكام العاقِلَة: من أواخر ما يُبحَثُ في باب "الديات"، وهي مَن يتحمَّلُ دِيَةَ القتل الخطأ من أقارب الأب.

﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾، يجبُ أن يكونَ الإنذارُ بتمام الدين، والتفقُّه بالدِّين كُلِّه، وهذا مما ينبغي لكم - كسائرين في طريق الفقاهة - أن تعرفوه وتتَّضِحَ صُورتُهُ لديكم. فماذا عَسَى الفقيه الناقصُ - وأي ناقص! - أن يُحسِن؟ وكيف سيكون أداؤه! [٦]

لا يمكِنُ (لهذا الفقيه، وهذا الأداء) أن يُداويَ جرحاً (ويرتق فتقاً) في الدين.

إنَّ الفقيهَ حَقّاً هو مَن يكُونُ مِصداقاً للآية الشريفة ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، هؤلاء هم الذين يَليقُونَ ويَستَحقُّونَ (لَقَبَ الفقيه)، وهم - وفقاً لمؤدَّىٰ الآية - قِلَّةٌ و "طائفة"، إنَّهم باقَةٌ مُنتخَبَة...

ما هو الدين (الذي دَعَتِ الآيةُ للتفقُّه فيه)؟

إنَّه ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (البقرة)، إنه الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴿١٩﴾﴾ (آل عمران)، إذا أجادَ (المرءُ) وأحسَنَ التفقُّهَ في الإسلام، فقد صَارَ من النوع الذي طَلَبَتْهُ الآيةُ ودَعَتْ إليه، وهذا الفقيهُ هو الإكسيرُ الأعظم!

إنَّ غالِبيَّتكُم يقف الآن على مشارف النُّضج والبلُوغ (العلمي، أي بلوغ الاجتهاد)، وأنتم تلحظون أننا في استنباط ما لدينا من الأحكام الفقهيَّة ننظُرُ في الروايات، (وعلى سبيل المثال) مثل رواية:

"ملعونٌ مَن أخَّرَ العشاءَ إلىٰ أن تشتبِكَ النجوم". [٧]

(وهناك رواية أُخرىٰ) قارِنوا بينها وبين هذه الرواية:

"مَلعُونٌ مَن ترأس، مَلعُونٌ مَنْ هَمَّ بها، مَلعُونٌ مَن حَدَّثَ بها نَفْسَه". [٨]

ما الفرق بين هذه وتلك؟

---

(٦) في الأصل الفارسي: "فقيه نيمه كاره چه ميمكاره...؟".

(٧) انظر ‹وسائل الشيعة› لـ «الحر العاملي» (ج٣ ص١٤٧ ح٧).

(٨) ‹الكافي الشريف› (ج٢ ص٢٩٨ ح٤).

كَيفَ كانت تلك (الأُولىٰ) حُكماً فِقهِيّاً، ولم تكُن الأُخرىٰ (الثانية) كذلك؟!

إذ كما يمكننا أن نبحثَ في "مَلعُونٌ مَن أخَّرَ العشاءَ إلىٰ أن تشتبِكَ النجوم": هل هيَ الحرمة؟ أم هيَ الكراهة؟ وما هو الموضوعُ فيها وما هو المحمول؟ فإنَّهُ يجِبُ أنْ يُبْحَثَ كذلك في: ما هو حُبُّ الرئاسة؟ وما هو اللعْنُ هنا؟ هل هي لَعْنةٌ تنزيهيَّةٌ أمْ تحريميَّة، وما إلىٰ ذلك...

إذن هـٰذا الموضوعُ من الفقه أيضاً.

إنَّ الوِلايةَ والبراءةَ هي من الواجبات التي علينا (أن نعمَلَ، أو نتحلَّى بها)، ويَجِبُ أن نتبرَّأ ممن أغضَبَ وَلِيَّ الله... هل هـٰذا من الفقه أم لا؟

هل "التولِّي" و"التبرِّي" من الواجبات أم من المستحبَّات؟

إن كانتا من الواجبات، ففي أي درجات الوجوب هما؟ ثم ما هو مَوْضوعُهُما؟

ما هو التولِّي؟ وما هو التبرِّي؟ ما هي العلاقة والنسبةُ بين هـٰذين الأمرين؟

هل يُمكِنُ (يَصِحّ) أن يكونَ أحدُهُما أقلَّ (أو أشدَّ) من الآخر، أم لا يُمكِنُ ذلك؟ يجِبُ، وهـٰذا وجوبٌ مُبرهَنٌ - عقلاً، ونَقلاً، وكتاباً، وسُنَّةً - أن يكونَ مُقابِلَ كُلِّ مَوْقعٍ للتولِّي مَوْقعٌ للتبرِّي!

يجب أن تكونوا فقهاءَ في هـٰذه المسائل (أيضاً)، أم تُراها ليست من الدين؟! إذا كانت من الدين (إذن يجِبُ أن تكون مشمولةً بالآية:) ﴿لِيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾، وبعد ذلك (ينشأ ويترتَّبُ) تكليفٌ بإنذارهم فرداً فرداً.

والخوفُ كُلُّ الخوفِ في المقام، من أننا سنُعرَّضُ في غَدِنا إلىٰ المحاسبة (المساءلة) والمحاكمة، ولا يخلو الأمْرُ إمَّا أن تكونَ مُحاكمَتُنا (محاسبتنا) - أنا وأنتم - في هـٰذه الدنيا أو ستكونُ في الآخرة؟ وسيكونُ مولانا «الحُجَّة بن الحسَن العسكريّ» عليه السلام هو "القاضي" في محكمة الدنيا، وستقومُ هـٰذه المحكَمةُ بأستجوابنا (والتحقيق معنا)، هـٰذا إن بقِينا وأدركنا أيَّامَه (في عهد الظهور الشريف)، وإلّا فسنُحَاكَمُ في المحكمة الثانية، وهي محكمةُ الآخرة، و(سيكُونُ) "القاضي" هو اللهُ جلَّ جلالُه.

وخوفي أنَّهُم إن حاسبونا في تلك المحاكمة، ولو على مستوىٰ (محاسبة) فقيه من السُنِّيين (المخالفين، لا الشيعة)، وفي حدود فقه (صحيح البخاري) ـ لا أكثر ـ، فسيَسْألوننا: هل أوفينا «فاطمةَ الزَّهراء» ؊ ـ بهذا الحدِّ فقط ـ حقَّها أم لا؟...

لَعَمْري، فأنا ـ شخصيّاً ـ لا أُحِرْ جواباً عن هذا السؤال كُلَّما فكَّرْتُ فيه!

إنّها مُعضِلةٌ كُبرىٰ، أكبرُ مما يخطُرُ في أذهاننا، وأعظَمُ من أن يَستوعِبَها تفكيرُنا، فمن القطعيِّ الذي لا شكَّ فيه، بل نَجزِمُ جزماً، أننا لم نتخلَّف عن نُصرَة حَقِّ «فاطمةَ الزَّهراء» ؊ كعلماء شيعة، وما يقتضيه التشيُّعُ ويتطلَّبُهُ في عالم (الدين)، من إحقاق حقِّ «الصِدِّيقةِ الكُبرىٰ» ؊، فَحَسْب... بل نحنُ مُتخلِّفونَ عن إحقاق حقِّ «فاطِمَةَ» حتىٰ علىٰ قدر فقيه من السُنِّيين! وأقولُ: "فقيه" وليس "سفيه" من السُنِّيين، لم نوفِ «الزَّهراء» ؊ حَقَّها حتىٰ علىٰ المستوىٰ المفروض في فقيه من السُنِّيين!

ومع ضيق الوقت، إلّا أنني سأتعرَّضُ للموضوع بقدر الضرورة، ولن أستدلَّ إلّا من السُنَّة القطعيَّة (المقبولة) لدىٰ السُنِّيين (أنفسهم، لا الشيعة)، بل (من) السُنَّة التي يَقبَلُ بها أكثرُهُم نقداً، وأشدُّهُم تعصُّباً، غاية الأمر أنني سأضمُّ الفقاهة إلىٰ تسنُّنهم، لا السفاهة (التي ما زالوا ينطلقون منها!).

نقلَ «البخاري» قال: حدَّثَنا «أبوالوليد ابن عُيَيْنَة»، عن «عمرو بن دينار»، عن «ابن أبي مُلَيْكة»، عن «المِسْوَر بن مَخْرَمَة»، أنَّ «رسُولَ الله» صلىٰ الله عليه (وآله) وسلَّمَ قال: "«فاطمة» بضعة مِنِّي، فمَنْ أغضَبَها أغضَبَني". [9]

---

(٩) (صحيح البخاري) (ج٥ ص٢١ و ٢٩ ط المنيرية بمصر). قال الشهيد «السيد نور الله التستري» قدس سره في (إحقاق الحق) (ج١٠ ص٢٠٦): رواه جماعة من أعلام القوم منهم: «القاضي المغربي» في (كتاب الشفاء) (ج٢ ص ٢٢)، و«النسائي» في (الخصائص) (ص٣٥)، و«البغوي» في (مصابيح السُنَّة) (ص٢٠٥ ط مصر)، و«ابن الجوزي» في (صفة الصفوة) (ج٢ ص٥)، و«المتَّقي الهندي» في (كنز العمّال) (ج١٣ ص٩٣)، و«المناوي» في (فيض القدير لترتيب شرح الجامع الصغير) (ص٦٢)، و«العيني» في (عمدة القاري) (ج١٦ ص٢٢٣)، و«الراغب الأصفهاني» في (محاضرات الأدباء) (ج٤ ص ٤٧٩)، و«الحضرمي» في (وسيلة المآل) (ص٨٧ نسخة مكتبة الظاهرية بدمشق)، و«الزبيدي» في (الإتحاف) (ج٦ ص ٤٤٢).

وسننظُرُ في الحديث ونُخضِعُهُ للبحث على مرحلتين، إذ عزمنا على مخاطبة فقهاء المتسننين، لا سفهائهم! فسننظُرُ - إذاً - بما تقتضيه فقاهةُ التسنن.

إنَّ لهذا الحديث جانبين، أحدُهما الجانب الدليلي، الآخر الجانب المدلولي...

أمَّا في ما يخُصُّ الجانبَ الدليلي: فالحديثُ - بلحاظ السَنَدِ وصِحَّتِه - في القمَّة التي لا ينالُها نقاشٌ، ولا يعتريها شك. فقد صحَّحَهُ كِبارُهُم، ومنهم «الذهبيُّ»، وهو مَن لا ثانيَ له في ميدانه، والأكثرُ (من بين علماء الرجال) جَرْحاً ونقداً (وإسقاطاً)!...

إنَّ «الذهبيَّ» يَرَىٰ هذا الحديث صحيحاً، ويُقِرُّ أنَّ "الله يغضَبُ لغضب «فاطمة» ويَرْضىٰ لِرِضَاها"(١٠) حَديثٌ صَدَرَ عن «رسولِ الله» ﷺ.

---

(١٠) نلاحظ اضطراباً في خصوص موقف «الذهبي» هذا، فبينما نجده لا يُصحِّح الحديث وينكره في (تلخيص مستدرك الحاكم)، نراه يعترف في (ميزان الاعتدال): أنَّ الحديثَ مَرْويٌّ عن طريق «أبي عبدالله بن محمد» وأنه لا بأس به، وقد رَوَىٰ عنه «أبوداود» و«الحفَّاظ»... وهذا إقرار من «الذهبي» بأنه لا غبار علىٰ سند الحديث. انظر: (مستدرك الحاكم) (ج٣ ص١٥٤)، حيث أضاف: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجَاهُ"، و(مجمع الزوائد) لـ«الهيثمي» (ج٩ ص٢٠٣)، و(أُسد الغابة) لـ«ابن الأثير» (ج٥ ص٥٢٢)، و(ميزان الاعتدال) «الذهبي» (ج٢ ص٤٩٢)، في ترجمة «عبدالله بن محمد القزاز»، ثم أضاف بعد نقل الحديث: رَوَاهُ «أبوصالح المؤدب» في (مناقب «فاطمة»)، و«الطبراني» في (المعجم الكبير) (ج٢٢ ص٤٠١)، و(كنز العمال) (ج١٣ ص٦٧٤، نقلاً عن «الحاكم» و«ابن نجار»)...

وقد ذكر «الهيثمي» في (مجمع الزوائد) (ج٩ ص٢٠٣): "وعن «عليٍّ» قال: قال «رسولُ الله» (ص) إنَّ الله يغضب لِغَضَبِكِ ويرضىٰ لرضاكِ، رواه «الطبراني» وإسناده حسن".

وروى «ابنُ الصبَّاغ المالكي» في (الفصول المهمَّة) (ص١٢٨)، و«الصفوري الشافعي» في (نزهة المجالس) (ج٢ ص ٢٢٨)، و«الشبلنجي» في (نور الأبصار) (ص٤١)، و«الحنفي الأمرتسري» (من المتأخِّرين) في (أرجح المطالب) (ص٢٤٥)، و«القسطلاني» في (إرشاد الساري) (ج٦ ص١٤٤)، و«السيوطي» في (الجامع الكبير) (ص ٢٦٩)، و«الخطيب التبريزي» في (مشكاة المصابيح) (ج٣ ص٢٥٥)، و«المناوي» في (كنوز الحقائق) (ص ١٠٣)، وغيرهم... عن مجاهد قال: "خرج «النبيُّ» ﷺ، وهو آخِذٌ بِيَدِ «فاطمة»، فقال: من عرَفَ هذه فقد عرَفَها، ومن لم يعرفها فهي «فاطمة بنت محمد»، وهي بَضعَةٌ مِنِّي، وهي قلبي وروحي التي بين جنبي، فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذىٰ الله".

إذا صحَّحَ «الذهبيُّ» حديثاً، وقد أذعَنَ قبله «البُخاريُّ» بِصِحَّتِه، وهو مَنْ يَحتاطُ في النقل عن «الإمام جعفر الصادق» عليه السلام! (فلم ينقل عنه في صحيحه حديثاً واحداً!)، ففي أيِّ مُسْتوىً من الحُجيَّةِ يكون (الحديث)؟! فإن فرغنا عن السند وصِحَّته، (إذ إنَّ الرواية من جهة أُخرىٰ) علىٰ حَدِّ التواتر الإجمالي، الذي يَجعَلُ صُدُورَها عن «رسُولِ الله» أمراً مُسلَّماً، لا شَكَّ فيه ولا شُبهة... هذا عن الدليل وقدرته.

(فلننظر في المدلول) أمَّا المدلولُ: ماذا يعني مدلولُ هذه الرواية؟

إنَّ الروايةَ الأُولىٰ: "«فاطمة» بضعة مِنِّي، فمَنْ أغضَبَها أغضَبَني"، كانت مُقدِّمة للرواية الثانية: "الله يغضَبُ لغضب «فاطمة» ويَرضىٰ لِرِضَاها"، فماذا يعني الرضا والغضَبُ هنا (في هذا الحديث)؟

من أين يبدأ؟ وإلىٰ أين ينتهي؟

هناك قُوَّتان (عاملان) في حياة النبات (الحياة النباتيَّة)، واحدة هي قُوَّة جَذبِ الملائمات، والأُخرىٰ هي قُوَّة دَفْع المنافرات، وهما تُشكِّلان قِوَامَ حياة هذا الكائن الحي (النبات)... وفي الحياة الحيوانيَّة، تنقلِبُ صُورةُ هاتين القوَّتين، من صورة (شكل) الجذب والدَّفع، إلىٰ الرِّضا والغَضَب، ولا منشأ لهاتين القوَّتين في الحياة الحيوانيَّة إلّا الطبْعَ، بل ما كان حيواناً إلّا لِكَوْن الرِّضا والغَضَب فيه ذوا منشأ طَبْعِيٍّ.

أمَّا في الحياة الإنسانيَّة، ولا نُريدُ بها حَياتَنا نحنُ! ولا أُجامِلُ أحداً هنا، فَلَسْنا ـ في هذا المحفل ـ في مقام المجاملة، إنَّ الحياةَ الإنسانيَّة هي حيثُ يبلُغُ البَشَرُ مُستوىً يُصبِحُ فيه إنساناً، ومتىٰ يكونُ إنساناً؟

عندما يُصْبِحُ العقلُ مبدأ الرِّضا والغَضَبِ (فيه)، فـ "دَعَامَةُ الإنسان العقل"[11]، (بمعنىٰ) أن يكونَ العَقلُ مَنشأً ومَبدَأً كُلِّ غَضَبٍ وكُلِّ رِضاً.

---

(١١) عن «أبي عبدالله الصادق» عليه السلام: "دعامَةُ الإنسان العقل، ومن العقل الفِطْنة والفهم والحفظ والعلم، فإذا كان تأييد عقله من النور، كان عالماً حافظاً زكيّاً فطِناً فَهِماً، وبالعقل يكمُل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره". انظر: (البحار) (ج١ ص٩٠، نقلاً عن (علل الشرايع)).

فهل بلَغْتُ أنا هـذا المقام؟ كلّا، أبداً!

وكُلُّ عاقِلٍ حَظِيَ بأوَّلِ درجات العقل، يدركُ أنَّه لم يصبح "إنساناً" بَعْدُ، وهـذا بحَدِّ ذاته أمْرٌ في غاية الخطورة.

لَعَمْري، فنَحْنُ ما عرفنا مَحَكَّ (معاييرَ ومُميِّزات) الإنسانية بعد!

إنَّ تأمينَ رضانا وإشباعِهِ كان (يتحقَّقُ) ـ طِيلَة حياتنا ـ ببلُوغ المقام ونَيْلِ الجاه!

فقد تجاوزنا [١٢] (نَحْنُ مرحلة) الشهوة البطنيّة (للذائذ الطعـام)، وهـكذا تخطَّيْنا اللذائذَ الجنسيَّة، ولكن المهمَّ (في حالاتنا) هوَ إذا ما رأينا أنَّ مُريداً و(شخصاً) مُتعلِّقاً (مُعْجَباً) بنا قد أنصرف عَنَّا، فهل سَنَأسىٰ وننقبِض (نحزَن على فوته)؟! إذن فنَحْنُ (ما زِلنا) من السِبَاع! ولم نصل إلى مستوىٰ الإنسان بعد.

كم نتأذّىٰ ونَنزعِجُ إذا ما رأينا حيواناً آخر مثلنا، سَبُعاً مثلما نَحْنُ سِباع، تقدَّمَ وتفوَّقَ علينا بمَرتَبةٍ (بمِرْقاةٍ) في هـذا السُلَّم، فتحمَرُّ الوُجُوهُ وتنقبِضُ (من الغيظ والحنَق)... ما نحنُ إلّا سِباعٌ تَحْتَ هـذه العمائم! [١٣]

---

(١٢) يتحدَّثُ «سماحته» ﵀ عمَّن في مقامه وسنِّه على نحو النوع، ويشير إلى داء هـذه الطبقة وطبيعة الآفات الأخلاقية التي تبتلى بها.

(١٣) إنَّ إطلاق سماحة «الشيخ» ﵀ عبارات التقريع والتوبيخ هـذه، وإنزال النفس منزلة التهمة، وجلدها بسياط الأعتراف بالأهواء الخفيَّة، والركـون إلى المطامع العصبيَّة، والخضوع والأنقياد للشهـوات... هـو سيرة في علمائنا الربَّانيين، ودأب في السـالكين العـارفين، كما في النصِّ عن «أميرالمؤمنين» ﷺ: "لا يَرْضون من أعمالهم القليل، ولا يستكـثرون الكثير، فهم لأنفسهم متَّهمون ومن أعمالهم مُشفِقُون". وألفت إخواني المؤمنين الملتزمين، والمثقفين منهم خاصَّة، إلى ما يقوله سماحة «الشيخ الأستاذ» ﵀ ويفعله هنا، لعلَّنا نستقي الدرس والعبرة، وننهل من أخلاقه كما نستفيد من علمه... فنتخلّى عن أوهامنا التي تملي لنا بـ "الشأنيَّة" والمنزلة المتفوِّقة على "العوام"، ولا نغترّ بخطوات نحسب أننا قطعناها من طريق الكمال وطويناها من درب المعرفة، ونحن ما نزال نتعثَّر في أُولاها، ولم نبلغ أدناها، فإذا قابَلَنا أحد بصدود وإعراض، أو مسَّنا برفض وأعتراض، أنتفضنا من كِبر، وكأن الإسلام أُصيب بمقتل، فإن سقطت الهمَّة في بعضنا عن المواجهات والنزاعات، شمخ بأنفه وترفَّع من تعالٍ وغرور، من حيث أنَّ المعترِض عليه أقلّ شأناً من أن يعيره التفافاً ويوليه جواباً!

إنَّ بُلـوغَ (رتْبَـةِ) الإنسـانيَّـة لا يكـونُ إلّا بتحكيم العقل في الـرِّضـا والغَضَـب، وانبعاثها منه... إذا نشأ رِضـاكَ من العقل، فكان مَبـدَؤُه ومُنْطَلَقُهُ، لِـمَرَّة (واحدة) في حياتك، فقد صِرْتَ إنساناً لِـمَرَّة في حياتك! وإذا نشأ الرِّضـا وانبَعَـثَ (فينا) في الـمَرَّة التاليـة من (شهوة) البطن أو الملبس أو الجاه، فلَسْنا إلّا إحدىٰ تِلكَ الحيوانات التي تتميَّزُ بواحدة (تطغى فيها واحدة) من تلك الصفات.

إذن هذا هو التعَقُّلُ، فإذا بلَغَ (المرءُ) هذا الحدَّ بِصُورة مُطلَقَة، لا لِـمَرَّة في حياته أو لِـمَرَّتين، بل كان الغَضَبُ والرِّضا ينبعثان فيه من العقل على الدوام، فإنَّه يُصبِـحُ إنساناً عقلانيّاً، يَرْضىٰ لِرضا العقل، ويَغضَبُ لِغَضَب العقل.

وهناك مقامٌ يأتي بَعْدَ (وراء) ذلك، وهو حَيْثُ تفنىٰ الإرادةُ (البشريَّة) في إرادة الله سبحانه وتعالىٰ، وعندما يتحقَّقُ ذلك، يكون ممن "يَغْضَبُ لِغَضَب الله، ويَرْضىٰ لِرِضا الله سبحانه وتعالىٰ".

أمَّا بخصوص المرتبة السابقة، فإن كُنْتَ تعرف شخصاً يتحلّىٰ (يتمتَّعُ) بها علىٰ وجه هذه البسيطة، بحيث بَلَغَ مَقامَ "يَرْضىٰ للعقل ويَغْضَبُ للعقل"، فنرجُوكَ أن تدُلَّنا عليه لِنَذهَبَ ونُقبِّلَ يديه، بل لِنُقَبِّلَ تُرابَ قدميه!

إنَّ "مَن يَرْضىٰ للرب ويَغْضَبُ للربِّ" تَراه (خاضعاً) مُسلِّماً لله سبحانه وتعالىٰ في جميع شؤون حياته (وحالاته)، فسواء قتلوا ابنَهُ، أو أحْيَوْه، فهو يَرْضىٰ للربِّ، ويَغْضَبُ للربِّ... إنَّ الفِكْرَ (الذهن) لَيَضيقُ ويَعْجَزُ عن (مُجَرَّد) تصوُّرِ الأمر، فكيف بتحقُّقه (ووقوعه)؟!

وحينَ يَبلُغُ هذا المقامَ... تكُونُ "العِصْمَةُ الخاتميَّة".

وهي عصمةُ ذلك الموجود الأكمل الذي لا نظيرَ له في عالم الوجود، أي مَن فَنِيَ واندكَّ حُبُّهُ في حُبِّ الله، و(انصبَّ) بُغْضُهُ في البُغضِ الإلهي! فلا يُحِبُّ إلّا ما يُحِبُّهُ الله، ولا يُبغِضُ إلّا ما يُبغِضُهُ الله، فإذا صـارَ الإنسانُ كـذلك، يُصْبِـحُ (مِصْداقاً لـ) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ (النجم).

وهذه المرحلةُ هي التي يُطلَقُ عليها "العِصْمَةُ الخاتمة"، وهي شيءٌ آخر (يختلف) عن العِصْمَةِ الإبراهيميَّة، وعن العِصْمَةِ اليونُسيَّة، فتلك عِصْمَةٌ، ولكنها (من النوع أو المستوىٰ الذي) لم يمنع (وقوعَ وتحقُّقَ) ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ۝﴾ (الأنبياء)! ومع كونها عِصْمَة، إلّا أنها سَجَّلَتْ في حياته تلك النقطة التي أنتهت به إلىٰ أنْ نادىٰ في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهكذا «يُوسُف» ﷺ كانَ مُتحلّياً بالعِصْمَةِ، ولكن ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ ۝﴾ (يوسف)، إنَّ "بُرهانَ الربِّ" (الذي رآه «يُوسُفُ») هو نوعٌ من عِصْمَة، ولكنها عِصْمَةٌ ما مَنَعَتهُ أن يقولَ: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ۝﴾ (يوسف)، لِتكُونَ النتيجة: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾!

إنَّ التسليمَ لله سبحانه وتعالىٰ - علىٰ نحو مُطلَق - في الحُبِّ والبُغضِ، منحَصِرٌ في «النبيِّ الخاتَم» ﷺ، عندها يمكننا أن نقولَ (عنه ﷺ) إنه:

"يَرْضىٰ لِرضا الربِّ، ويَغْضَبُ لِغَضَب الربِّ"...

كان هذا ما أردناهُ حتىٰ هذا الموقع (الموضع من البحث).

إنَّ (معرفة) «الزَّهراءِ» ﷺ مَحْجُوبةٌ عنّا (ولِذا جاءَ قولُ «النبيِّ» ﷺ):

"إنَّ اللهَ لَيَرْضىٰ لِرِضا «فاطِمَة»، ويَغْضَبُ لَغَضَبِ «فاطِمَة»".

(وهنا تَحارُ الأفهامُ والألبابُ) اللهم إلّا أن تتمكّنوا أنتم من أستيعابِ ذلك!

فالأمرُ يكون تارةً علىٰ نحو "يَرْضىٰ لِرِضا الله، ويَغْضَبُ لَغَضَبِ الله"، إذ جاءت "اللام" قبل لفظة «الله»، لِتُؤَثِّرَ في الرِّضا والغضب، وهنا تكون العِصْمَةُ الكبرىٰ... ولكنها تأتي تارةً أُخرىٰ (تأتي) مُحَلِّقَةً لِتَطأَ مَرْقىً في الأُفُق الأعلىٰ، فتكون "اللام" من الطرف الآخر! أي تكون قبل لفظة «فاطِمَة»، وذلك في قوله ﷺ:

"إنَّ اللهَ لَيَرْضىٰ لِرِضا «فاطِمَة»، ويَغْضَبُ لِغَضَبِ «فاطِمَة»"!

وهنا يَتَّضِحُ المعنىٰ المراد من تلك الكلمة التي قالَها الخبير بـ«فاطِمَة» (مَنْ يَعْرِفُ «فاطِمَة» حقَّ مَعْرِفتِها)، ومَنْ هو الخبيرُ بـ«فاطِمَة» ﷺ؟

إنه «الإمامُ جعفر بن محمد الصادق» عليه السلام، إذ قال:

"إنَّما سُمِّيَتْ «فاطِمَة» لأنَّ الخلقَ فُطِموا عن معرفتها". (١٤)

وهنا (هكذا) أصبحَ الأمرُ أستدلاليّاً وبُرهانيّاً، فاتَّضَحَ (وبان) أنَّنا مَفطُومُونَ عن مَعْرِفَةِ «فاطِمَة الزهراء» عليها السلام، عاجزونَ عن الوقوف على كُنهِها. وإدراك حقيقتها، وفي أيِّ أُفُقٍ تحلِّق (هذه «الصِدِّيقَةُ الطاهرة»)؟

لقد أنزاحَ السِتّارُ عن شيءٍ من عَظَمَتِها ومقامِها لَيْلَةَ دَفنِها، بما أنَّ مَعرفتها لم تكُن شأن أيٍّ كان، فما عَرَفها إلّا الذي قال: "أمَّا حُزني فَسَرْمَدٌ، وأمَّا لَيْلي فَمُسَهَّدٌ" (١٥)!

(نعم) لم يعرفها إلّا («عليٌّ» عليه السلام) الذي أعرَضَ عن الدنيا والآخرة معاً، ولم يعْبأ بهما، لكن لَوْعَةَ فَقْدِ «فاطِمَة» أوْدَتْ به (وقَضَتْ عليه)! لأنه كان يَعلَمُ مَن تكُونُ «فاطِمَة»... ولاحِظُوا تعبيراتِه (في المقام).

سأذكُرُ قضيَّةً واحِدَةً، ولا يمكنني أنْ أذكرَ أكثر من ذلك:

عندما وَضَعَ جَنازَتَها عليها السلام وصَلّى عليها، وَقَعَ ما لم يقع لأيّة جَنازة أُخرىٰ!

والمهمُّ (وأرجوكم)(١٦) أن تلتفتوا - إذ إنكم أهلٌ لذلك - إلىٰ دِقَّةِ الموضوع، لما ينتظركم من مسؤولية كبيرة وعِبءٍ ثقيل (لدوركم في تبليغ الدين وأحكامه)... (تقول الرواية):

"فلَمَّا جَنَّ الليلُ غسَّلَها «عليٌّ» ووَضَعَها على السرير، وقال لـ «الحسن» أُدْعُ لي «أبا ذر»، فدَعاهُ فَحَمَلاهُ (السرير) إلى المُصلى، فصلىٰ عَليها، ثمَّ صلىٰ ركعتين [إنَّه «أميرُالمؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب»، صلىٰ ركعتين بعد صلاة الجنازة على «الزَّهراء» عليها السلام]، ورَفَعَ يديه إلى السماء فنادىٰ [لاحِظُوا أنَّ العِبارةَ "نادىٰ" وليست "قال"، أي أنَّه عليه السلام رَفَعَ صَوْتَهُ وَضَجَّ! وبأيِّ نِداءٍ ضَجَّ «عليٌّ» عليه السلام؟ قال]:

---

(١٤) رواه «المجلسي» في (البحار) (ج٤٣ ص٦٥ عن (تفسير فرات بن إبراهيم)).

(١٥) انظر (الكافي الشريف) (ج١ ص٤٥٩ ح٣).

(١٦) كانت موجات البكاء والعويل التي تنتابُ الحضور بشكلٍ جماعي تقطع علىٰ «الشيخ» حديثه!

هـذه بنتُ نبيِّكَ «فاطِمَة»، أخرَجتَها من الظلمات إلى النـور"، [قال ذلك على نحو مُبْهَم يلُفُّهُ الغُمُـوض، فماذا يعني بـ "أخرَجتَها من الظلمات إلى النـور"؟ إنها جملة لا يمكِنُ أن يُخَاطَب وأن يُحَدَّثَ بها إلّا الله جلَّ وعلا، (تقولُ الرواية إنه) ما إن قال تِلكَ العِبارة حتى] "فأضَاءَتْ الأرضُ مِيلاً في مِيل"! (١٧)

ماذا يعني هذا الحَدَثُ؟ هل فكَّرتُم في ما تعنيه هـذه الواقعة؟

وبعد أن خاطَبَ الإمامُ «عليٌّ» ﷺ ربَّهُ بقوله: "أخرَجتَها من الظلمات إلى النور"، أرادَ اللهُ سبحـانه وتعـالى أن يُشْهِـدَ «عليّاً» ويُـريَه أنَّه أخـرَجَ (فعلاً) «فـاطِمَـة» ﷺ من الظُّلُماتِ (ظلمات الحياة الدنيا) إلى ذلك "النور" الذي ذكره في القرآن الكريم في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۝﴾ (النور).

---

(١٧) رواه «المجلسي» في «البحار» (ج٤٣ ص٢١٣) . وتتمَّة الحديث: "فلما أرادوا أن يدفنوها، نُودُوا من بقعة من البقيع: إليَّ إليَّ، فقد رفع تربتها مني، فنظروا فإذا بقبر محفور، فحملوا السرير إليها، فدفنوها، فجلس «عليٌّ» على شفير القبر، فنُودِيَ منها، وأَنسَدَّ القبرُ وأستوى بالأرض، فلم يعلم أين كان إلى يوم القيامة"! ومن المصادر السُنِّية تجده في «مودة القربى» لـ «الهمداني» (ص١٣١).

ومن المآسي والمصائب المتجدِّدة على «أهل البيت» ﷺ والنوائب النازلة بشيعتهم الأبرار، ما جَرَى في عصرنا الحاضر مما صار يُعرف بـ "فتنة فضل الله"، الـذي أدَّعى، وهو من المنتسبين لمذهبنا، المستأكلين بزيِّ أهل العلم، بل المتنحلين لمقام المرجعية، أدَّعى وزعم أن «الزَّهراء» ﷺ ختمَت نزاعها وخُصُومَتها مع القوم، وأنهَتْ جفوتها لهم، وأنقضى وَجْدُها وغضبها عليهم...

فلمَّا وُوُجِهَ بِسِرِّ تجهيزها ـ ﷺ ـ خفية ودفنها ليلاً، ووَصِيَّتها بأن لا يحضر القوم جنازتها ولا يشهدوا تشييعها، ثم إعفاء قبرها (مع أنتهاء الخصومة، المفترض في زعمه)؟ قال بأنكشاف مَوْضِع القبر، وأنَّ مكانه صار معلوماً! وقد ألحق بزعمه هذا وأضاف جملة من المقولات الباطلة الأُخرىٰ التي تمحورت حول التشكيك في فضائل «أهل البيت» ﷺ وبخسهم منازلهم ومقاماتهم، وصبَّت في إنكار مصائبهم والجنايات التي أرتكبها أعداؤهم.

ولم تخمد "الفتنة" ولا سكَن الشيعة، وفي مقدِّمتهم الحوزات العلميَّة في «قم المقدسة» و«النجف الأشرف» حتى أصدرت المرجعيَّة العليا للطائفة المحقَّة حكمها في الرجل بأنه "ضالٌّ مُضِلٌّ"، وأخرجته من المذهب، بعد رفضه التوبة وإصراره على أباطيله.

إنَّ آية ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ (البقرة)، تتَحَقَّقُ وتنطَبِقُ على الجميع، ولكن انطباقَها وتحقُّقَها على «فاطمة الزَّهراء» عليها السلام يكُونُ رُجُوعاً إلى "النور"، إلى نور السماوات والأرض!...

لقد أراد اللهُ سبحانه وتعالى أنْ يُجيبَ «علياً» عن كلمته وأن يقولَ له: إنَّما قد وَصَلَتْ إلى النور الذي ذكَرْتَ، وإنَّما خَرَجَتْ من هذه الظُّلُمات (ظلمات الدنيا) إليه (واتَّجهَتْ نحوه)!

وقد فعَلَتْ رُوحُها (التي رجعت واتَّصلَت بالنور) في البقعة التي استقرَّ فيها جُثمانُها الطاهر، فِعْلاً سَرَىٰ بِسنخيَّةِ تلكَ الرُّوح النُورانيَّة إلى تلك البقعة (الأرضيَّة) الظلماء، حيثُ رقَدَ جِسْمُها الشريفُ، فأضاءَها ميلاً في ميل! (١٨)

هذه هي «فاطمة الزَّهراء» عليها السلام...

لقد صَعَدَتْ رُوحُها إلى ذلك النور، فَسَرَىٰ شُعاعُها إلى بدنها المودَع في عالم الظُّلْمَةِ نوراً. (١٩)

إنَّها مَنْ بَلَغَتْ مقامَ "يَغْضَبُ الربُّ لِغَضَبِها، ويَرْضىٰ لِرضاها"...

وكلُّ ما ذكرناه كانَ مُقدِّمَةً لهذه الكلمة، وهي:

لقد ذكَرَ «البخاريُّ» في صحيحه، حديثاً مُعْتَبَراً مَروِيّاً عن شخص «عائشة» (أُم المؤمنين) إذ قالت:

---

(١٨) يجدر التنويه إلى أن الميل في اللغة ليس هو المسافة المعروفة اليوم! بل: "الميل من الأرض: قدر منتهى مَدِّ البصر، والجمع أميال وميول... وقيل للأعلام المبنيَّة في طريق «مكَّة» أميال، لأنَّها بُنِيَتْ على مقادير مدى البصر من الميل إلى الميل. وقيل: مسافة من الأرض متراخية ليس لها حَدٌّ معلوم". انظر: (لسان العرب) (ج١١ ص٦٣٩).

(١٩) ولعلَّه من هذا القبيل (تأثير بدَن «المعصوم» عليه السلام في الأرض التي يدفن فيها) ما جاء في بعض الزيارات: "أشهد لقد طيَّبَ الله بك التراب"، و"طِبتُم وطابت الأرض التي فيها دفنتم"، و"طَهُرَتْ أرضٌ أنتَ فيها"...

"... فوَجَدَتْ على «أبي بكر»". (٢٠)

وهو تصريحٌ بأنَّ «فاطمة الزَّهراء» عليها السلام غضبت على «أبي بكر».

وقد عاشَتْ بعد أبيها ستَّةَ أشهر، قاطعت فيها «أبا بكر» وما كلَّمَتهُ مَرَّة! وأوْصَتْ «عليّاً» بأن يدفِنها ليلاً وأن لا يحضر «أبوبكر» جنازَتها. (٢١)

وهذا مما يذكره «البخاريُّ» ويُقِرُّ به!

ونُسَجِّلُ هنا قياساً مُكوَّناً من: صُغرىٰ وكُبرىٰ ونتيجة...

فإذا كانت هذه هي السُّنَّةُ (والأحاديثُ المأثورةُ عن «رسول الله» صلى الله عليه وآله)، وكان الكتابُ العزيز يُصرِّحُ ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ (طه)...

فهذه السُّنَّةُ تُقرِّرُ أنَّ غَضَبَ الله عزَّ وجلَّ قد حلَّ على «الأول».

والقرآنُ يقولُ إنَّ مِن حَلَّ عليه غَضَبُ الله فقد هَوَىٰ، وأنت تقرأُ - أيُّها الفقيهُ المتسنِّنُ - في يومك وليلتك فاتحة الكتاب خَمسَ مرَّاتٍ (في الأقل)، وتقول فيها: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾...

فلا سبيلَ أمامَكَ إلّا أن تتَنكَّرَ لتلكَ "السُّنَّة" (والأحاديث المأثورة)، فإن فعَلْتَ ذلك، فهذا يعني إلغاءَ (البخاري) و(مُسلم) وجميع أضراب هذه الكتب، وطَيِّ صفحتها، وتخليك عنها! أو أن تتنكَّرَ للقرآن الكريم، أو أن تحذفَ منه آية: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾! أو أن تُبقي على تمسُّكِكَ بالكتاب والسُّنَّة وتتناسىٰ ما عرضتُه عليكَ من فِقْه (واستدلال)!

---

(٢٠) انظر: (البخاري) (ج٥ ص٧٧ و ج٤ ص٥٦)، و(السنن الكبرىٰ) لـ «البيهقي» (ج٦ ص٣٠٠)، و(تاريخ الطبري) (ج٢ ص٤٤٨)، وذكر في مصادر أُخرىٰ أشرنا إليها في بعض هوامشنا، فراجع...

(٢١) رَوَىٰ «الشيباني» في (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) (ج١ ص٢٠٩) عن «عائشة» أنها قالت: "أتت «فاطمَة» و«العبَّاسُ» يلتمسان ميراثها... إلى أن قالت: فهَجَرته (أي «أبا بكر») «فاطِمَةُ» ولم تُكلِّمهُ حتى ماتت بعد سِتَّة أشهر". ورُوِيَ بعينه في (السُّنن الكبرىٰ) عن كلام لـ «مُعمَّر».

وهل كان حديثي وعَرْضِي إلّا الكِتابَ والسُنَّة، وفقْه الكتاب والسُنَّة؟!

إنَّ القضيَّة المنفصلة[٢٢] لها ثلاثةُ أقسام: فإمَّا هذا، وإمَّا ذاك، والشِقُّ الثالثُ للقضيَّة هو: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۝﴾ (الجمعة)...

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

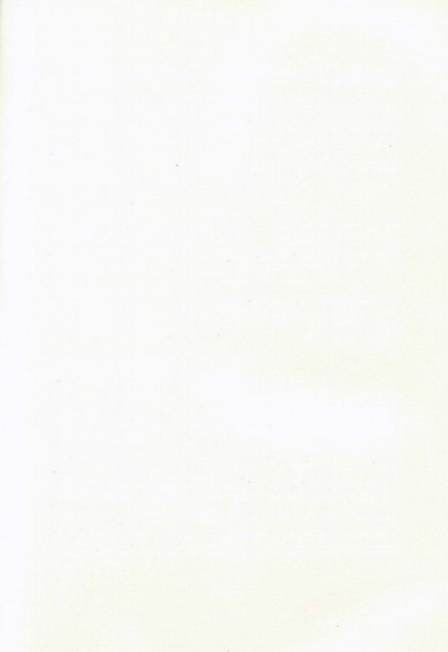
❁ ❁ ❁

(٢٢) القضية المنفصلة عند المناطقة: هي التي يُحكَمُ فيها بالمنافاة أو بعدم المنافاة بين قضيتين، وهي على ثلاثة أقسام:

١ـ المنفصلة الحقيقية: وهي التي يُحكَمُ فيها بالمنافاة بين القضيتين في الصدق (مطابقة الواقع) والكذب (عدم مطابقة الواقع) معاً، كقولنا: العدد إمَّا أن يكون زوجاً أو فرداً، فإن الجزءين يستحيل أجتماعهما ويستحيل أرتفاعهما.

٢ـ مانعة الجمع: وهي التي يحكم فيها بالمنافاة بين القضيتين في الصدق فقط، كقولنا: هذا الشيءُ إمَّا أن يكون حجَراً أو شَجَراً، فإنه يستحيل أجتماعهما على الصدق، ويمكن أرتفاعهما، وذلك في العصا مثلاً.

٣ـ مانعة الخلو: وهي التي يحكم فيها بالمنافاة بين القضيتين في الكذب فقط، كقولنا: هذا الجسم إما أن يكون غير أسود أو غير أبيض، فإنه يستحيل أجتماعهما على الكذب، ويمكن أجتماعهما على الصدق وذلك في الجسم الأحمر مثلاً.



المحاضرة الثانية عشرة

التاريخ: ١٣/شعبان/١٤١٤هـ
الموافق ٢٦/١/١٩٩٤م
المسجد الأعظم/قم المقدسة
الموضوع: عظمة القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كُنتُ قد ذكرتُ في الأُسبوع المنصرم ـ بمناسبة ما تعرَّضتُ له من (آية) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴿١٨٠﴾﴾ (الأعراف) ـ، مَطلباً (علمياً، أو مَوْضوعاً)، أعترَض عليه أحدُهُم (أحَدُ الطلبة)، ومع أنَّ "قلوبنا كالحجارة" إلّا أنَّه أفحَمَني بأحتجاجِه!

وقد دَفَعَني هذا الأمـرُ إلى أن أُتَمِّمَ ـ في هذا الأُسبوع ـ ذلك البحث حول القرآن الكريم، الذي نعترفُ بأنَّنا قد ظَلَمناهُ (ما أوفيناه حقَّه)...

عسى أن يُعاملنا الله بفَضْلِه!

ونحنُ على حذرٍ من دخول هذه الأبحاث وتناول هذه الموارد، ذلك لقِلَّة الباعِ والأطِّلاع، وعدَم توفُّرِ الكفاية والأستعداد (الإمكانيَّة والقدرة)، وليست هذه (الأبحاث) فقهاً وأُصولاً حتى نكونَ نحنُ المسلَّطينَ عليها، كلّا، بل العَكْسُ هو الصحيح، فهذه المسائلُ هي المتسلِّطَةُ علينا. من هنا فَنحنُ عاجزون، و(علينا أن) نلِجَ الموضوعَ بتلكُّؤٍ ورَهْبةٍ، مقترنين بالإقرار بالعجز!

لـ «الإمام الصادق جعفر بن محمد» ﷺ - وما أدراك مَن هو («الإمام الصادق»)؟! - كلمةٌ في تعريف القرآن، ويمكننا من هذه الكلمة أن نعرفَ القرآن، كما يمكننا أن نعرفَ قائلَها («الإمام الصادق» ﷺ) أيضاً... ولنُصغي جميعاً بخشوع وأمتثال إلى الروح المقدَّسةِ لذلك المولى، عسى أن يَمُنَّ علينا فنُدرِكَ بَعْضَ ما جاءَ في ذلك القول الذي تجلى (تجلَّت ذاته وظهرت) فيه!

هذا هو نصُّ حديث «الإمام الصادق» ﷺ:

"لقد تجلى اللهُ لِخَلْقِه في كلامه ولكنَّهُم لا يُبصِرون". (١)

يا للعظمة والعَجَب!

إنَّ الإتيانَ بالمعجزة (نوع المعجزة) للخواص يختلفُ عنه للعوام، إنَّ هذه العبارة تُعَدُّ، في دُنيا العِلم (على الصعيد العِلميِّ)، معجزة تُضاهي "شَقَّ القمر"! بمعنى أنَّهُ إذا كانَ هناكَ مَن يَتحَلَّى بالبلوغ العقلي، فإنه سيتَوصَّلُ - من هذا الحديث - إلى أنَّ «الإمام جعفر بن محمد الصادق» ﷺ قد اتَّحَدَ بكُلِّ وُجُوده مع القرآن، وأنه بهذا الاتِّحاد مع القرآن يكونُ مُتَّحِداً مع تَجلِّي الله سبحانه وتعالى!

إنَّ (الحكيمَ) العالِمَ القُرآنِيَّ، يُدرِكُ من هذه العبارة، أنَّ «الإمام جعفر بن محمد الصادق» ﷺ يعني (يُمثِّلُ) تجلِّي الكلام التكويني للأُلوهيَّة (بتمامها)، ولَيْسَ (مُجَرَّدُ) الرحمانيَّة، ولا الرحيميَّة، ولا العَليميَّة، ولا السميعيَّة... إنَّ هذا (هنا) لَبَحْرٌ مُتلاطِمٌ (زاخر) من العلم والمعرفة!

لقد عَبَّرَ «الصادق» ﷺ قائلاً: «تجلَّى الله»، ولم يقل "تجلَّى العليُّ العَظيمُ"، إذ أنتَخَبَ من أسمائه عَزَّ وجَلَّ «الله»، فيُعرِّفنا (بذلك حقيقة) القرآن. وهذا ما لم نبلغه ونتوصَّلُ إليه أبداً... هذا من جهة. أمَّا من جهة أُخرى: فإنَّ للأسم «الله» - من بين الأسماء التسعة والتسعين - خُصوصيَّةٌ ينفَرِدُ بها من حيثُ الأسم، ومن حيث المسمَّى.

---

(١) انظر (بحار الأنوار) (ج٩٢ ص١٠٧).

أمَّا من حيثُ المسمَّى، فالمسمَّى بـ «الله» هو مقامُ جمعُ جميع الأسماء الحسنى والصفات العُليا من جمالٍ وكمالٍ وجَلال...

هذه هي حقيقة المسَمَّى، أمَّا من حيثُ الأسم فإنَّ ما يتميَّزُ ويختَصُّ به آسم «الله» من بين بقيَّة أسمائه سبحانه وتعالى، هو ما آندرَجَ في هذا الأسم من حقيقة غَيْبِ الغُيوب، وآندَرجَت فيه حقيقة المالكية الرُّبوبيَّة، وهكذا آنطوىٰ هذا الأسم علىٰ حقيقة البسيطة المحضة، الحاكية عن الوحدة الحقيقيَّة الحقَّة...

هذا هو «الإمامُ الصادق» ﷺ.

ولكَوْننا لا نُحْسِنُ الفَهْمَ، ولا نُدْرِكُ (حقيقةَ) المتكلِّم، لذا ترانا لا نَخْرُجُ بالحصيلة المطلوبة من حديث «الإمام الصادق» ﷺ!

وقد تَدْفَعُنا أجْوَاءُ التديُّنِ والقَدَاسةِ (والأحتياط والألتزام، والتَقَيُّدِ الحَرفيِّ التَعبُّديِّ بالدين)، إلىٰ تقديس الحديث[٢]، (حديث «الإمام الصادق» ﷺ)، (وتردَعُنا عن الأستهانة أو الأستخفاف به)...

ولكننا (عَمَليّاً و) في سلوكنا وفي باطننا (تَرَانا) نُولي نُقُوشَ (خُطُوطَ) «الشفاء»، وكلمات «الأسفار»، ومَواضِعَ "فتأمَّل" (التي جاءت) في «نهاية الدراية»، ومَواضِعَ "فأفهم"[٣]، (التي جاءت) في «الكفاية»... نُوليها أهميَّةً تَفُوقُ ما نُوليه حديث «الإمام» من العناية والأهتمام!

ولكن - سواء شِئنا أم أبَيْنا - ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ (إبراهيم).

(٢) في الأصل الفارسي: "شايد از راه مقدس مآبى تقديس كنيم"...

(٣) المقصود من مواضع "فتأمَّل" و "فأفهم" التي تأتي في الكتب العِلميَّة، ما يُلفِتُ فيها النظر إلىٰ الإبداعات والأنتزاعات الفنية التي تنمُّ عن دقَّة المطلب وعمقه والمقدرة الذهنية والمستوىٰ العلمي للمؤلِّف، ويريد «سماحة الشيخ المحاضر» ﷺ - أستنكاراً - أننا نُؤخَذ بهذه النكات والإبداعات أكثر مما تفعل بنا أحاديث الأئمة ﷺ!...

إنَّ أوَّلَ اسْمِ «الله»، هو الألف، وآخِرَه الهاء، وحَرْفُ الألف هو الأوَّلُ وله الصدارة من بين جميع الحروف الهجائيَّة، ويتمتَّعُ بمقام (رُتْبة، أو منزلة) الأستقامة[٤]، ومقام البساطة (مقابل التركُّب)، لقد جاءَ حَرْفُ الألِفِ الذي انفَرَدَ بهذه الخُصوصيَّات من بين الحروف الهجائيَّة في أوَّلِ اسم «الله»، وهذا يحكي عن الوَحْدَةِ الحقَّةِ الحقيقيَّة...

ولـ «الإمام» («الصادق» ﷺ) ـ صاحب هذا الحديث ـ عبارةٌ (أخرىٰ) في شرح وبيان "الوَحْدَة الحقَّة".

فنَحْنُ إن نزعنا "الألف" من «الله» تُصْبِحُ: «لله» و﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.[٥]

وإن أسقطْنا (أتبَعْناها، بعد ذلك بـ) "اللام" (أيضاً) تُصبِحُ «له»: و﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٦] وعندما نُزيل "اللامَ" الثانيةَ تبقىٰ الـ «هُ»: و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ (التوحيد)... هذه هي خُصوصيَّةُ الأسم، وكانت تلك خُصوصيَّةُ المسَمَّىٰ.

---

(٤) يُسمَّىٰ "الألف" هيولىٰ الحروف وقطبها، أمَّا تسميته بالهيولىٰ فلأنَّ هيولىٰ الشيء مادَّته وما لا يمكن وجوده بدونها، بل يتوقف وجوده بكونه مُركَّباً منها ومن شيء آخر، و"الألف" كذلك بالنسبة إلىٰ الحروف، فإنَّ كُلَّ واحد منها ومن غيرها لا يمكن وجوده بدونها، وذلك ظاهرٌ في مثل الباء والتاء والدال، وأما في الجيم والسين فلتوقُّف وجوده علىٰ الياء، وتركُّبه منها ومن غيرها، ووجودها موقوفٌ به علىٰ "الألف".

وأمَّا تسميتها بالقطب، فلأنَّ قطب الشيء وسطه، والألف وسط جميع الحروف، إمَّا بدون واسطة كالقاف والكاف وأمثالها، وإمَّا بواسطة غيرها كالجيم والعين، فإنَّ وسطيهما الياء، ووسط الياء الألف، فوسطها الألف. وقد يطلق القطب علىٰ "الألف" لتساوي عدد حروفيهما فإنَّ عدد كُلِّ منهما مئة وإحدىٰ عشر. انظر: (كتاب الخزائن) لـ «الملَّا أحمد النراقي» ﷿ (ص٢٧).

(٥) جاءت في السور التالية من القرآن الكريم: البقرة: ٢٨٤، آل عمران: ١٠٩و١٢٩، النساء: ١٢٦ و١٣١ و١٣٢، النجم: ٣١.

(٦) جاءت في السور التالية من القرآن الكريم: البقرة: ١٠٧، المائدة: ٤٠، الأعراف: ١٥٨، التوبة: ١١٦، الفرقان: ٢، الزمر: ٤٤، الزخرف: ٨٥، الحديد: ٢ و ٥، البروج: ٩.

هـذا هو القرآن، إنَّه تَـجَلٍّ لمثل هـذه الذات، بجميع أسماء جماله وكماله، وجميع أسمائه الجلاليَّة... (تجلِّيه) لخلقه. فهل تمكَّنا من انتزاع هـذا الوجود من القرآن الكريم؟

هل عَرَفْنا هـذا (الكتاب) الذي بين أيدينا؟

هل عَرَفنا أيَّ شيءٍ تَركَ لنا («رَسُولُ الله» ﷺ) حين قال:

"كأنّي دُعيتُ فأجَبْتُ، [لقد دعـاني اللهُ سبحانه وتعـالى للرحيل إليه، وقد قبلتُ دَعْوَته، وها هُوَ («رَسُولُ الله») يُناوِلُنا عُصَارة وُجُوده]، وإنّي تاركٌ فيكُم الثَّقلَين أحدُهُما أعظَمُ من الآخر، كِتابُ الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعِترتي أهلُ بيتي، فانْظُروا كيف تخلفوني فيهما". [٧]

هـذا هو الحبلُ والطرَفُ الرابطُ بين الخلق والخالق.

إنَّ هـذا الذي بين الدفَّتيْن والجلدين، يُشكِّلُ التجلِّيَ التامَّ للألوهيَّة.

والآن، (والسؤال الذي يَطرَحُ نفسَهُ هنا، هو) كَيفَ لنا أن نستفيدَ (حقَّ الفائدة وتمامها) منه؟ إنَّ الخطوة الأُولىٰ (في هـذا الطريق) هي السعي لمعرفة القرآن الكريم... إنكم لَسْتُم من عوام الناس، فالعوام لهـم "العبارات"، أمَّا "الإشارات" فهي للخواص، عليكم الانتباه لهـذه الأُمور والتدقيق فيها، وهـذا مما سيعودُ عليكم، وعلىٰ الآخرين الذين يدخلون في دائرة مسؤوليتكم - إذ كُلُّنا مسؤول - بالنفع والفائدة.

(نلاحظ) أنَّ البـاري تعالىٰ استعمَلَ (وجـاء بـ) "تبارك" في مَـواضِعَ خاصَّـة من القرآن، منها: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾ (الأعراف)، هناك حيث جَمَعَ الخلقَ والأمرَ، والملكَ والملكوت، واللُّبَّ والقِشْر... يقول (سبحانه وتعالىٰ) عندها: "تَبارَكَ الله"، وكذلك (يستعملها) عندما يُنهِي إليه مُلكَ الوُجُود (عالَمَ المُلك)، فيقول: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ (الملك).

عليكم بتلاوة القرآن، والتدبُّر فيه، وفهمه...

---

(٧) انظر «البحار» (ج١٠ ص٣٦٩).

وعندما ينْضَجُ العالَمُ، ويَحينُ وقتُ جَنْيِه وأوانُ حَصادِه، أي هناكَ حيثُ يتلَخَّص العالَمُ ويتمركزُ في آدم (الإنسان)، إذ تُصبِحُ النُطْفةُ عَلَقةً، والعَلَقَةُ مُضْغَةً، والمُضْغَةُ عِظاماً، وتُكسى العِظامُ لَحماً... هناك، عندما يصل الأمرُ إلى نهايته وغايته، يقولُ عَزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝﴾ (المؤمنون)، هل تدبَّرتُم جيِّداً ورأيْتُم متى وأين استَعمَلَ (جَاءَ بِـ) "تبارَكَ"؟

إنَّ ذلك الربُّ هو الذي يقول: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝﴾ (الفرقان)، لقد قالَ ذلك حتى نتعَرَّفَ على ما في هذا "الفرقان"، وما هو السبيلُ للوصول إليه وبلوغه؟

وعسىٰ أن لا ينقضي العُمرُ ولـمَّا نَصِلَ بَعْدُ! ويا حَسْرَتاهُ على ما فرَّطْنا!

روحي وأرواحُ العالمين فداءٌ لأنفاسِ مَن قال: "لقد تجلَّى الله"...

كُلَّما كَرَّرَ المرءُ هذه العبارة (المقدَّسة) يتنزَّلُ عليه فيضٌ جديدٌ! "لقد تجلَّى اللهُ لِخَلْقِه في كلامه ولكنَّهُم لا يُبصِرون"، كانت تلك ("لقد تجلَّى الله") الجملة الأُولىٰ.

لننتقل الآن إلى الجملة الثانية: "ولكنَّهُم لا يُبصِرون".

إنه (القرآن) تجلِّي الله، ولكننا لا نُبْصِرُ ذلك!

ولماذا لا نُبْصِرُه؟ لن تجد الجوابَ إلّا بالرجوع إلى القرآن نفسه، فليس هذا من المواضع التي يُمكِنُ لـ «ابن سينا» أو غيره أن يُدْلِيَ فيها بدلوه!

فعندما يتحدَّثُ «جَعفرُ بن محمَّد» ﷺ، أو (يتكلَّمُ) الله عَزَّ وجلَّ، فإنَّ كلماتِ أُولئكَ (الفلاسفة) تذهَبُ هباءً منثوراً!

علينا أن نعودَ إلى القرآن الكريم لِنَبْحَثَ عن "البَصَر" الموجودة في "يُبصِرون"، التي جاءت في "ولكنَّهُم لا يُبصِرون" فنجد أنَّهُ قد ذُكِرَ "البَصَر" في القرآن، ولكن المهم - وهنا الإعجاز - أنَّ في القرآن "بَصَراً" و"بصيرةً"، فتلك ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۝﴾ (الأنعام)... هنالك (في تلك الآية) بَصَرٌ (ينظر)، ولكنها بصيرته (التي ذُكِرَتْ) هنا (في هذه الآية الشريفة)!

اْرجِعُوا إلى القرآن الكريم واْنظُروا كَم كَرَّرَ اللهُ ذِكْرَ "البصائر" فيه، (نراها خمس مرات)، إذن فنَحْنُ لَدَيْنا البَصَرُ، ولكننا أضَعْنا البصيرَة!

علينا أن نجد البصيرة ونعثُرَ عليها... وكيف السبيل إلى ذلك؟

ونحن - هنا - سنَخْتَصِرُ الكلامَ ونُلخِّصُ القَوْلَ، لِنُنْهِيَ الموضوعَ، عسى أن نلتزِمَ ونتَّخِذَ - ابتداءً من اليوم، إن شاء الله - مما قُلناهُ الساعةَ، منهجاً وخِطَّةَ عمَلٍ لي ولكُم...

فإذا عرفنا القيمةَ والمقام، علينا أن نبحث بعد ذلك عن الشرط ونجِدَهُ...

يقول سبحانَهُ وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران)، ويقول في آية أُخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴿٢﴾﴾ (الجمعة)، وكذلك في دعاء «إبراهيم الخليل» ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة)، إنَّ القرآنَ - من أوَّله إلى آخره - يَسْتَنِدُ ويعتَمِدُ على هذا الشرط، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة)...

إذن فالجملَةُ الثانيةُ: "ولكنَّهُم لا يُبصِرون"، هي محلُّ الأزمة، ومَكْمَنُ المعضِلَة!

ماذا عَسانا أن نَفعَلَ؟ وما هو مفتاح حَلِّ هذه القضيَّةُ؟

كلَّا، ليست القضيَّةُ تَعليميَّةً وتحصيليَّةً! ولا تُتْعِبوا (تُؤخِّروا) أنفُسَكم هنا، فلَيْسَ هو مما تؤثِّرُ فيه دُروسي، مهما أَلقَيْتُ عليكم منها هنا، فللأمرِ طريقٌ أُخرى ليست من هذا القبيل... (يا حَسْرةً) لقد أضيعَ الدربُ!

إنَّكَ مهما تتلو الدروسَ على "الزجاج" الذي يكمُن في باطن (جوف) الصخور، وتقرأ عليه (وتُعلِّمُهُ) كيف يمكنه أن يتحوَّلَ إلى مِصباح، و(تُعلِّمُهُ) كيفية اتصاله بالكهرباء حتى يُضيء... فلن تُؤثِّرَ فيه شيئاً!

إنَّ البَحْثَ ليسَ فِكْرِيّاً، ولَيْسَ (من مادّة ومواضيع) «الكفاية»، ولا «نهاية الدراية»، ولا «الجواهر»[٨]، حتىٰ تَتَلقَّاهُ علىٰ يَدِ أُستاذ! كلَّا، فإنَّ له طريقاً أُخرىٰ!

يجبُ أن يُؤخَذَ ذلك الزُّجاجُ الكامِنُ في قَلْبِ الصَّخرِ إلىٰ تنُّور (بوتقة) حتىٰ ينصَهِرَ، فإذا أنصَهَرَ (يُعالَجُ حتىٰ) يُفرَزَ ويُستَخلَصَ (من الأحجار والأتربة)، ثم يُؤخَذُ فيَنْفُخُ الصانِعُ فيه، ولا بُدَّ أنْ يُعالِجَهُ الصانِعُ بالنَّفْخ... حتىٰ يكونَ في المحصِّلَةِ مِصباحاً، ثم تأتي يَدٌ توصله بالكهرباء (بمصدر طاقة) ليتمَّ العملُ (ويُضيء المصباح)!

وهنا مَعْمَلُ الإضاءة (المصابيح) الإلهيَّة! ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (النور)، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾ (المائدة)...

(نَحنُ) أنا وأنت زُجاجٌ، وهذا مَعمَلُ المصابيح، ونَحْنُ موجودون (مُودَعُونَ) في جَوْفِ الصخر، وعلينا أن نخرجَ (ونَسْتَخلِصَ أنفُسَنا)... في البداية يجب أن تُصيبَنا (تلفَحَنا) الحرارةُ حتىٰ ننصَهِرَ، وبعْدَ ذلك يَجِبُ أن ننفَصِلَ ونُستَخلَصَ من الحجر، ثم يأتي بعدها نَفْخُ الصانع.

---

(٨) كنت قد ذكرت شيئاً عن الكتب الحوزوية التي جاء «سماحة الشيخ» رحمه الله علىٰ ذكرها في محاضراته (في بعض هوامش هذا الكتاب)، حتىٰ يحيط القارئ بها ولو علىٰ نحو الإلمامة الموجزة، ولا يفوتني هنا ذكر شيء عن «الجواهر»، وقد أتىٰ «سماحته» علىٰ أسمه لأوّل مَرَّة...

جواهر الكلام: في شرح «شرائع الإسلام»، للفقيه العلامة الشيخ «محمد حسن النجفي» قدس سره، أكبر دورة فقه أستدلالي للشيعة، تقع ـ طبعتها الحديثة ـ في ثلاثة وأربعين مجلّداً، قال «الآغا بزرك» في «الذريعة» (ج٥ ص٢٧٥): توفي (مؤلفها) سنة ١٢٦٦هـ، وخلَّف كتابه «الجواهر» الذي لا يوجد في خزائن الملوك بعضُ جواهره، ولم يُعهَد في ذخائر العلماء شيءٌ من ثماره وزواهره، لم يكتب مثلُه جامعٌ في أستنباط الحلال والحرام، ولم يُوَفَّق لنظيره أحَدٌ من الأعلام... أثبت بعَمَلِه القيِّم المِنَّةَ علىٰ كافَّة المتأخِّرين، وجَعَلَهُم عِيالاً له في معرفة أستنباط أحكام الدين.

إنَّ «الحجَّة بن الحسَن» ﷺ هو صانعُ هذا المصباح، ولا يَصِحُّ إلّا أن يَكُونَ هو النـافِخُ لا غيره، (وإلّا لَفَسَدَ الأمرُ)، إن دَوْرَهُ (النفخ) لا يحين إلّا إذا طَوَينـا نحنُ (بأنفُسنا) تلك المراحل، فإذا فعلنا ذلك، فلن تكون لنا حاجة لأيّة خطوة أُخرىٰ، لا إلىٰ الشرق ولا إلىٰ الغرب، إنَّهُ («المولىٰ» ﷺ) في كُلِّ مكان، (وهو حيث تكون)، قُمْ أنتَ فقط بأنتِزاع الزُّجاج من قلبِ الصخر (أستخلاصِ نفسك)، فإذا حَصَلَ ذلك فسيأتيك النَّفْخُ، وستَتَّصِلُ بالطَّاقة، وسيُنْجَزُ العملُ ويَتِمُّ! هذا هو الطريق...

(ولكن) من أين نبدأ؟ من أين علينا أن ننطلق؟

هذا هُوَ طَرِيقُ البَدْءِ، لِنُدقِّقَ جيِّداً، (إذ سنأخُذُ الإجابة) من القرآن نَفسِه، فقد سَبَقَ أن قلنا إنَّ البحثَ هذا لا يتناولُهُ (يحيط به) كلامُ (وفهم) البشر، فلنأخُذْ جَوابَنا من القرآن، فكِّروا وأنظُروا (تدبَّروا) مَنْ هُوَ المتكلِّم، ومَن هُوَ المخاطَبُ؟

أعُوذُ بالله من الشيطان الرجيم ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ (المزمّل)، هل تلَقَّيتُم الرسالَةَ (الإشارة)؟

ها هنا المفتاح... لِنُقرِّرَ جميعاً ونعْقِدَ العزمَ - من هذه الليلة - (علىٰ ألتزام نافلة الليل) ونعمل بـ " قُمِ اللَيْلَ " ! كُلُّ ما هُناكَ (من فَيْضٍ ورحمة) تجدهُ في ذلك الوقت (في تلك الآناء)، فلا تُفرِّطُوا (بالأمر) مهما بَلَغَ الثمنُ.

وهذا البرهان هو الأخير، وأمَّا في بداية السورة فالخطابُ يتوجَّهُ لِشَخْصِ «النبيّ» ﷺ، " قُمِ اللَيْلَ "، وبَعْدَ ذلك " ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً "، إنَّ كُلَّ هذا التأكيد علىٰ صلاة الليل، يعني شيئاً ويحمِلُ رِسَالةً، وينطوي علىٰ سِرٍّ...

إنَّ الطريق إلىٰ الله تؤخَذُ منه (من الله)، ومن المعلِّمين الذين عَيَّنَهُم سبحانه.

إنَّ في آخر السورة خطاباً للجميع، (أمَّا بدايتها) فإنَّ لـ «النبيِّ الخاتَم» ﷺ وَضْعَهُ (تكليفه) الخاص، (ولكن في آخر السورة) يأتي دَوْرُ الوضع والحالة العُموميَّة، وليتأمَّلْ هنا العلماءُ من ذوي الرأي والنَّظَر...

إنَّ الآيَةَ الأخيرَةَ في هذه السورة هي ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ (المزمّل)، في حين كانَ الخطابُ هناكَ (في بداية السورة) مُختصّاً بـ«النبيّ» (مُتَوَجّهاً إلى «النبيِّ» ﷺ وَحْدَهُ)، تجِدُهُ هنا يتوَجَّهُ إلى جَمْعٍ (مُنضمِّينَ معه)، لقد انْضَمَّ هنا الجميعُ، وهذا هو الأعجاز...

إنه القرآن، كتابُ العِلم والحِكْمة. ويا للأسف إنَّه لم يُفسَّر!

ولو أنَّهم أفْسَحُوا المجالَ أمامَ مُفسِّرِهِ (المخوَّل بتفسيره، أي «الإمام المعصوم») لَكَشَفَ غَوامِضَهُ، ووَضَّحَهُ (لنا)... ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، أيها السادة إنَّ تَتِمَّة هذه الآية تقول: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾... ومن هذا المقطع، (أدعوكم) إلى مزيد من الانتباه!

إنَّ الآيَةَ تمضي حتى قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، لقد كانت صلاةُ الليل هي المفتاح، وعليك أن تَفتَحَ بها القفل، ثُمَّ تقرأ ما تَيَسَّرَ من القرآن، هل رأيتُم نظيراً لهذا في القرآن كُلِّه؟

إنَّه كَلامُ الله و "إذا انتهى الكلامُ إلى الله فأَمْسِكُوا". [9]

(تمضي الآيـة حتى) يقـول: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثم يعود ليقول: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، لقد تكرَّرت ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ مَرَّتين في آية واحدة، وهذا يعني الكثير لذوي الألباب...

إذا طَوَى الإنسانُ هذه الطريق، فإنَّه سيَصِلُ شيئاً فشيئاً إلى حَيْثُ يتمكَّنُ من فَهْمِ ما تعنيه: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، وماذا تعني ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، و﴿يسٓ ۝١﴾

(٩) عن «سليمان بن خالد» قال: قال «أبوعبدالله» ﷺ: "«يا سليمان» إنَّ الله يقول ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسِكوا". انظر: «البحار» (ج٣ ص٢٦٤).

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾... ماذا تعني هذه الكلمات: "الحكيم"، و"المجيد"، و"ذي الذكر"؟ (التي جاءت) بعد هذه الأحرف الثلاثة من حروف الأسم الربوبي الأعظم، (نتساءل) ما هو الرابط بين هذه الـ "ق" التي جاءت في أوّل "سورة قاف"، مع الحرف الأول من كلمة "قرآن"...؟!

ورُوَيْداً رُوَيْداً، يمكن للإنسان إذا ما مضى في هذا الطريق أن يبلُغَ حَدَّ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (الحشر)، والمهمُّ هُوَ ما وَراءَ ذلك (حين يُزاحُ سِتارٌ آخر، يَفوقُها ويَعْلُوها جميعاً) هو: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾...

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

* * *



الشيخ «محمد حسين بن الشيخ إسماعيل بن الحاج ملا جواد بن الحاج ملا صالح الخراساني»... من مواليد مدينة «مشهد» المقدّسة عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢١م)، ينتمي إلى أسرة عريقة يعود تاريخ استقرارها في «مشهد» المقدّسة إلى ما يناهز سبعة قرون خلت.

نشأ «سماحته» في بيت علم وتُقىً، فوالده يُعتبر من أشهر علماء «مشهد» وكبار خُطبائها، ومن أوتاد عصره، وقد اشتُهِرَ بالزهد والعبادة والإعراض عن الدنيا... وهكذا أجداده، فقد كانوا من العلماء أيضاً، وأمّا جدّه الثالث «الملا صالح» فقد كان من ذوي الكرامات.

بدأ سماحة «الشيخ الوحيد» دراسته في سنٍّ مبكرة، وكان مُتميّزاً عن أقرانه بالنباهة والنبوغ، والجدّ والمثابرة، ويُنقل في هذا المضمار أنه لم يخلد إلى النوم ليلاً طيلة سنة كاملة، كان يقضيها في المطالعة والدراسة، والتهجّد والعبادة!

التحقَ أوّل الأمر بمدرسة «بائين پا» (وهي من المدارس القديمة التي لا أثر لها اليوم، إذ هُدم مبناها وأُلحِقَ بمشروع توسعة الحرم الرضوي الشريف)، تلقّى المقدمات ومُعظم علوم اللغة العربية والأدب على المرحوم «الشيخ شمس» و«المحقق النوغاني»، أنتقل بعدها إلى مدرسة «ميرزا جعفر» الواقعة في صحن الحرم الرضوي الشريف، وهناك حضَرَ (الرسائل) و(المكاسب) على «الشيخ حسن البرسي»، و(الكفاية) على أبن صاحب الكفاية (الآخوند الخراساني) «الميرزا أحمد الكفائي»، ودرَسَ (منظومة السبزواري) عند المرحوم «أبوالقاسم حكيم إلهي»، وأكمل المعقول والحكمة عند أُستاد الفن «الشهيدي الكبير»، المعروف بـ "فيلسوف الشرق"، حيث حضر عليه (الأسفار) و(الشواهد الربوبية)، كما تعلّم الهيئة والنجوم عند أُستاد الأستانة المقدّسة، والهندسة عند المرحوم «الحاج غلام حسين زرگر»، وقد تتلمذ في السلوك والأذكار والمجاهدات على قُدوَة السالكين «الشيخ حسين علي الأصفهاني»، كما حضر أبحاث «الميرزا مهدي الأصفهاني»، و«آية الله الآشتياني»، والمرحوم «الشيخ محمد النهاوندي» صاحب تفسير (نفحات الرحمن).

في «النجف الأشرف» حيث حلَّ مجاوراً مرقد «أميرالمؤمنين» ﷺ، قطن «مدرسة اليزدي» لعقد كامل، واصل خلاله تحصيله، فحضر على الأعاظم (في الفقه والأُصول): «الميرزا النائيني» (لسنة واحدة)، و«السيد أبوالحسن الأصفهاني» (سنتين)، و«الشيخ محمد حسين الأصفهاني (الكمپاني)»، و«الآغا ضياء الدين العراقي»، و«السيد جمال الدين الگلپايگاني»، و«الشيخ كاظم الشيرازي»، و«الشيخ موسى الخونساري» (ست سنوات)، و«الميرزا عبدالهادي الشيرازي»، و«السيد محسن الحكيم»، و«السيد أبوالقاسم الخوئي» رضوان الله عليهم أجمعين... كما حضر في الأخلاق والسلوك على أُستاذ السالكين الآية «السيد علي القاضي» (١٢ سنة).

ونظراً لما تميَّز به «سماحته» من دقَّة وعمق ونباهة، إلى جانب الجِدِّ والمثابرة، فقد نالَ الاجتهاد وحازَ مرتبة الفقاهة وهو في الثامنة والعشرين من عمره!... فقد أجازه «السيد الحجَّة الكوهكمري» إثر لقاء جرىٰ بينهما عام ١٣٦٧ هـ الموافق ١٩٤٨م، تخلله حوار ومباحثة معمَّقة، أنتهت إلىٰ قناعة تامَّة من «السيِّد» بأنَّ «الشيخ» بلَغَ الفقاهة والاجتهاد وحرُم عليه التقليد، وقد حرَّر بذلك شهادة أرسلها إلىٰ «الشيخ»، كما حظيَ «سماحة الشيخ» بإجازات أجتهاد أُخرى من آخرين من الأعلام...

وبالإضافة إلىٰ حضوره علىٰ أولئك العظام، فقد كان «سماحته» من أبرز أساتذة السطُوح العليا، حيث بدأ بإلقاء بحث الخارج في الحوزة العلمية في «النجف الأشرف» (في عرض بحث «السيد الخوئي» وغيره من المراجع العظام)، لفترة تجاوزت اثنتي عشر عاماً.

وفي السنوات الثلاث الأخيرة من إقامته في «النجف الأشرف» كان «سماحة الشيخ» دام ظله معتكفاً ـ في الغالب ـ في مسجدي «السهلة» و«الكوفة».

وعملاً برسالة التبليغ، ونظراً لأحتياطه في الصرف من الحقوق الشرعية، فقد كان «سماحة الشيخ» يعمد إلىٰ الخطابة ورقيِّ المنبر، وكثيراً ما كان يُسافر إلىٰ «الكويت»، حيث كان لحضوره دور أساسيٌّ في الحالة الإسلامية والجو الإيماني لأبناء ذلك الجيل في هذا البلد... وهناك أقترن بكريمة «السيد محمد الحسيني»، و«آل الحسيني» من الأُسر العلوية المعروفة في «الكويت».

وبعد إقامة وأنشغال بالتحصيل والتدريس دامَ عشرين عاماً، غادَرَ «سماحة الشيخ» «النجف الأشرف» عائداً إلىٰ «مشهد المقدَّسة»، وذلك عام ١٣٧٤هـ.

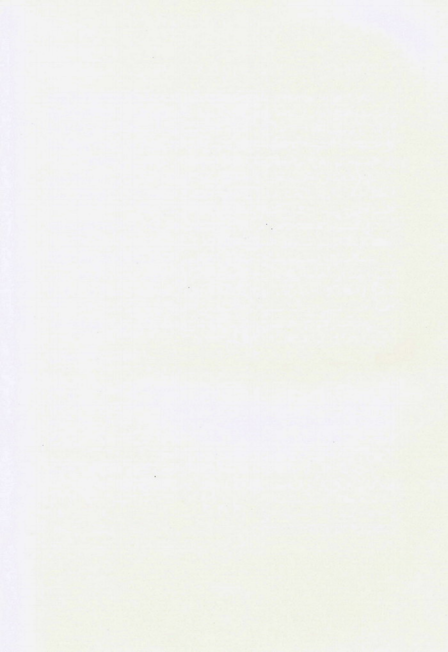
أنتقل بعدها «سماحته» إلىٰ «قم المقدَّسة»، وما زال منشغلاً بتربية العلماء وتنشئة المجتهدين، ودرسه اليوم في الحوزة هو الأول مادة وعمقاً، كما هو عدداً وحضوراً.

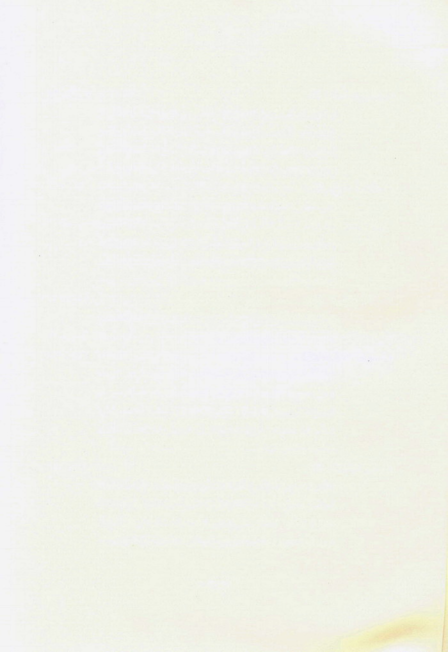
من مؤلفاته وآثاره المطبوعة: (نخبة الكلام في معرفة الإمام)/ (أسرار الصلاة)/ (شرح دعاء عرفة)/ (خُلاصة الأُصول)/ (مناسك الحج)... بالإضافة إلىٰ رسالته العملية (منهاج الصالحين) المتميِّزة بمقدمة عقائدية في أُصول الدين أستغرقت أكثر الجزء الأول، وهي سابقة في مسلك المراجع العظام. أما المخطوط منها، فهي: (حاشية علىٰ الكفاية)/ (حاشية علىٰ المكاسب)/ (شرح شرائع الإسلام)/ (حاشية علىٰ العروة الوثقىٰ)/ (حاشية علىٰ وسيلة النجاة).

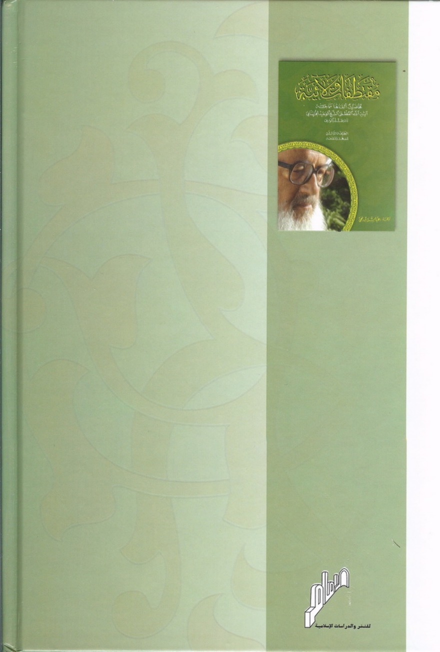
* ملحوظة: هذه الترجمة لـ «سماحة الشيخ» مُقتبَسة من كتاب (گنجينه دانشمندان) لـ «الشيخ محمد شريف الرازي»، مع إضافات سُماعيَّة نقلها لي بعض تلاميذ «الشيخ» دام ظله.

❁ ❁ ❁

فهرست الموضوعات






مقتطفات ولائية
للنشر والدراسات الإسلامية